قصة أبي جهل

عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي

فرعون هذه الأمة

للحقيقة والتاريخ

تأليف
جميل إبراهيم حبيب

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

قصة أبي جهل

عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي

فرعون هذه الأمة

للحقيقة والتاريخ

تأليف

جميل إبراهيم حبيب

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

يستوقف هذا الكتاب التأمّل والنظر بجدّية، لأنه يكشف عن دواعي الصراع، وقصة الاختلاف بين شخصيتين تاريخيتين متناقضتين.. . أحدهما يمثّل مصلحة الخير ويكرّس إرادة العمل والسعادة والحركة المعطاء، للأمة العربية والإنسانية جمعاء، والثاني لم يعِ المسؤولية التاريخية، ولم يدرك أبعادها، وبقي مراوحًا في خندق الجمود ضمن دوائر المحافظة اللامنطقية على القيم والتقاليد الموروثة والمضرّة بالمصلحة القوميّة والإنسانية.. .

كان يترأس الخط الأول، سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وهو خط الخير، والتأكيد على قيمة الإنسان على مستوى الأفراد والجماعات، وتحقيق المبادئ الجديدة المنطوية على العدل والحق وحرية العقل، ورفض الأوهام، والتوحيد، ممثّلةً بالرسالة الإسلامية المسندة بالعناية الإلـٰهية وألطافها الصمدانية.. . وكان يمثّل الخط الثاني، وهو خط الرفض والشقاء والجمود وعدم الانفتاح، أبو جهل عمرو بن هشام،.. . حيث كان يقف أمام تيّار هذه الرسالة التاريخية المضيئة، ويحارب زعيمها والمؤمنين بدعوته.. . والكتاب زاخر بالشواهد وحافل بالوثائق والنصوص والمستمسكات، تؤكّد على سلبية أبي جهل أمام سطوع أمواج النور لهذه الرسالة الخالدة وعدم التفتّح لها، ويستعرض للقارئ حلقات مواقفه الرافضة، ويركّز على دراسة ظروفه، ونشأته، وسائر تحليلات شخصيته، وعناصره التي تفاعلت، والتي جعلته يعاند هذه الرسالة دون مناقشة أعماق العقل وطوايا الضمير.. . والكتاب يقدم دراسة إضافية عن نشأته، وطفولته، وعلاقته بمحمّد، ثم مواقفه من الدعوة الجديدة، ومشاركته في الحروب ضدّها، وقصة مصرعه وارتباطه بما رُوِي من بعده ما قيل على سبيل الحقيقة أو غيرها.

وهكذا تجدنا وقد أخذنا بيد القارئ الكريم، ونحن نقدّم له حلقات الموضوع عن هذه الشخصية، حتى وقفنا معًا في آخر فاصلة بقيت من المشهد الختامي، من هذا الصراع الذي عانته هذه الشخصية، وهذه العقدة التي آلمته، وذلك بعدم الاستجابة لنداء التغيّرات التاريخية التي تمخّضت في عهده، وظلّ متذرّعًا بقيمه القديمة، حتى ابتلعه الحق ولم يستفد من الغطاء الذي وفّره لنفسه، والذي كان على أساسه يختبئ به ويتعكّز عليه.

أبو جهل (ت ٢هـ)

اسمه واسم أبيه ونسبه وكنيته

هو أبو جهل، واسمه عمرو، وكان يكنى (أبا الحكم)، بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤي[١] بن غالب بن فهر بن مالك[٢] بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن معد بن عدنان بن أود بن مقوم بن ناخور بن يعرب بن يسخب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم، خليل الرحمٰن، بن آزر بن ناخور بن شاروح بن أرغو بن فالح بن غير بن شالح[٣] بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلح بن أخنوخ بن برد بن مهليل بن قتن بن يانش بن آدم عليه السلام[٤].

أما أمّه، فهي:

أسماء بنت مُخرِّبة بن جندل بن أبير بن نهشل بن دارم[٥].

كنيتـه

وكان أبو جهل يكنى في الجاهلية أبا الحكم، وكناه رسول الله ﷺ أبا جهل[٦]،

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام، القسم الأول ص ٢٦٥، الطبعة الثانية القاهرة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م.

(٢) راجع نسب قريش (للزبيري) ج ٩ ص ٢٩٩ وما بعدها في نسب [ولد يقظة بن مرة، وهم بنو مخزوم بن يقظة].

(٣) في بعض المصادر: سالخ، والصحيح شالخ، ومعناه: الرسول أو الوكيل.

(٤) يراجع كتب الأنساب، مثل جمهرة أنساب العرب وغيرها.

(٥) انظر: نسب قريش ج ٩ ص ٣٠٢، للنسابة المصعب الزبيري، طبع دار المعارف، مصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦ م.

(٦) راجع ج ١ ص ٣٢٩ من كتاب (تهذيب الأسماء) للنووي، مصر، الطباعة المنيرية.

وقد غلبت عليه شهرة أبا جهل، وعُرِف بها، ونادرًا ما يذكره المؤرّخون باسمه عمرو بن هشام، أو بكنيته أبا الحكم، في مرويّاتهم المتعلقة به، بل يشيرون دائمًا إلى ما اشتهر به، وهو أبو جهل...

ولا أدري لم سمّي أبو جهل!!! ولربّما سماه الرسول ﷺ بهذه الكنية لشدّة عداوته لرسول الله ﷺ وللإسلام.

ومهما تكن الأسباب، فلا بأس من استقصاء معنى كلمة الجهل، لعلّنا نجد فيها ضالتنا، ومن ثم نربطها بموضوعنا الذي نحن بصدده...

فقد ورد عن مدلول الجهل، كما في «مختار الصحاح» بما يلي:

«(الجهل): ضدّ العلم، وقد (جهل) من باب فهم وسلم، و(تجاهل) أرى من نفسه ذلك وليس به... و(استجهله): عدّه جاهلاً واستخفّه أيضًا... و(التجهيل): النسبة إلى الجهل... و(المجهلة): بوزن المرحلة، الأمر الذي يَحْمِلُ على الجهل، ومنه قولهم: الولد مجهلة... و(المجهل): المفازة لا أعلام فيها»[1].

وفي اللغة أن الجهل يعني: الخفّة والسفَه، وعكسه: «الحلم» وهو التؤدة والرزانة...

وقد ورد:

فإن تزعميني كنت أجهل فيكم   فإني شريت الحلم بعدك بالجهل[2]

وفي اجتهادي أن هذه الكنية الرديئة ما كانت تُطلق على أبي جهل عبثًا، وأعتقد أنها أتت له من المجتمع الذي عاش فيه، ويبدو أنهم ألصقوها به في مناسبة من المناسبات، أو لسببٍ من الأسباب، سواء في أوائل أيام طفولته المبكّرة أو بعدها...

---

(١) يراجع مختار الصحاح (ص ٩٤)، للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، نشر المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، لبنان، الطبعة بلا تاريخ.

(٢) راجع ج ١ الصفحة (٤٣٢) مع هامشها من («شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» ومعه كتاب «منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل») تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة عشر، ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م، مصر، مطبعة السعادة بالقاهرة.

وإطلاق المجتمع للكنى والألقاب على الأفراد، بدوره يقودنا إلى استخراج المعاني الخفيَّة وراءها واستجلاء ما تحويها من مدلولات أو أبعاد...

وفي رأيي، وحسب ما التمسته من دراسة استقرائية لعمق شخصية أبي جهل، وبعد الغوص في قيعانها، تبيَّن لي أنه سُمّي بهذه الكنية، بسبب طيش مفضوح كان باديًا عليه للصغير والكبير، وقد لازمه هذا الطيش والحمق طول حياته، كما لوحظ عليه خفَّةً في عقليته، وخمول في تفكيره، وبالتالي عدم توازنه في ضبط تصرّفاته وأقواله وقراراته في الأحكام والمواقف الحياتية، كما يتبيّن.

وإن متابعةً فاحصة منّا لحلقات أخباره وأدواره التاريخية التي سنلاحظها معًا في صفحات الكتاب، لتبرهن لنا على ذلك بكل تأكيد ووضوح وإبانة، وتضعنا أمام مرآة الحقيقة واليقين وجهًا لوجه.

ومهما تكن الاحتمالات والافتراضات التي سقناها، حول ما ذكرناه أعلاه، فإن هناك حقيقة لامعة لا ينكرها منكر، ألَا وهو الجهل الأعمى لأبي جهل، أو تجاهله المقصود للدعوة الإسلامية المؤيّدة بالعناية الإلـهية، ووقوفه مواقف شنيعة ومخزية ضدّها، بكل عناد وإنكار واستكبار، بل وإصرار منقطع النظير، دون الرجوع إلى حساب أو فحص ضميره، أو مخاطبة عقله في إيجاد المبرّرات المنطقية لهذه السلوكية الجاهلة والخرقاء والمخالفة للطبائع السَّوية، والتي كان يسلكها مع النبيّ محمد ﷺ وأصحابه الأوائل، بله عنك العراقيل التي كان يضعها أمام خطوات الدعوة الإسلامية، ومنع انتشارها... هو ورهط من قريش الذين سنقف على أخبارهم في حينها أيضًا.

لقد بقي أبو جهل كافرًا إلى أن مات...

والكفر والجهل ندَّان لا يختلفان...

ووجهان لعملة واحدة، كما يقال في تعابيرنا المعاصرة...

ومتلازمان بشدَّة وقوّة...

فحيثما يوجد الكفر يتوكّر الجهل...

وحيثما يوجد الجهل ينتشر الكفر والإلحاد...

غادر أبو جهل الحياة دون أن يترك وراءه آثارًا حسنة، ولم يأخذ معه، إلى قبره، سوى أردأ بضاعتين، وهما جهله بالله الواحد الأحد، وكفره به ومحاربته لرسوله ﷺ...

وقد ظلّت مخازي ولعنات هاتين الصفتين الذميمتين تلاحق اسم عمرو بن هشام، أمام التاريخ والحقيقة، وأمام المنطق، وميزان الضمير...

كانت شخصية أبو جهل مهووسة ومصابة بداء الغرور، وتسفيه آراء الغير، والثبات على الإنكار والمكابرة، وهذه الخصلة السيئة في شخصيته المهزوزة المظلمة، لم تكن خافية بين أفراد مجتمعه آنئذٍ، فكانوا يعرفون فيه هذه الصفة السيّئة، وها هو ـ على سبيل المثال ـ شيخ قريش أبو طالب، يؤكّدها، ويشخّصها، في قصيدةٍ له يردّ فيها على أبي جهل، ويمدح عتبة بن ربيعة، وقال له في حينها: ما تنكر أن يكون محمّد نبيًّا؟!

ثم أنشد يقول:

عجبت لحلم يا ابن شيبة ... وأحلام أقوام لديك سخاف[1]

يقولون شايع من أراد محمّدًا ... بسوءٍ وقم في أمره بخلاف

ويقول فيها أيضًا:

فما بالكم تغشون منّا ظلامةً ... وما بال أحلام هناك خفاف[2]

والقصيدة طويلة ليس هنا محل كتابتها، فأخذنا منها ما يخصّنا، وما يخدم هدفنا في ترتيب الموضوع المطلوب منّا، في هذا المقام... وحاصل الأمر أن كناية الرسول لأبي جهل بهذا الاسم المُخزي له، حقيقة أثبتتها الأيام فيما بعد.

ولعلّ ما جاء في كتاب المستطرف ما يكشف لنا عن العمق التاريخي والمقصد الاجتماعي لحقيقة كنية أبي جهل، وذلك ما يعزّز بدوره أيضًا رأينا، وبالتالي فيه أبلغ الدليل على صحة الاستنتاج الذي نوهّنا عنه، وقد جاءت الإشارة تلك ضمن فقرة من الضروري الاستشهاد بها، وعدم تجزئتها، حتى تكتمل الصورة المطلوبة لدى القارئ، فقد جاء في (ج ١ ص ٢٣) من الكتاب المذكور أعلاه ما يلي:

---

(١) مشيرًا إلى أبي جهل وأمثاله.

(٢) راجع كتاب «السِّيَر والمغازي» ج ٤ ص ٢٠٨ لمحمد بن إسحٰق الشهير بابن إسحٰق المتوفّى ١٥١ هجرية، تحقيق الدكتور سهيل زكار، طبع دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨ م، الطبعة الثانية.

... «... وكان يقال مجالسة الجاهل مرض للعاقل، وقال أبو الأسود الدُؤلي: إذا أردت أن تعذّب عالمًا فاقرن به جاهلاً، وقال الشاعر:

جهلت ولا تدري بأنك جاهل ومن لي بأن تدري بأنك لا تدري

وقال رجل للحسن [البصري]: أنا أفصح الناس... قال: لا تقل هذا... قال: فخذ عليّ كلمة واحدة... قال: هذه واحدة، أبو جهل كناه المسلمون بذلك، وكانت قريش تكنيه أبا الحكم، فقال حسان ﷺ [ابن ثابت]:

الناس كنوه أبا حكم والله كناهُ أبا جهل»[1]

منزلة والده في قريش وذكر إخوته وذرّيته

يذكر مؤلف «نسب قريش» لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري (١٥٦ ـ ٢٣٦ هـ) مُشيرًا إلى هذا الموضوع بالتفصيل، فيقول:

... «... وولد هشام بن المغيرة، وكان شريفًا مذكورًا، وزعموا أن قريشًا كانت تؤرّخ بموته، تقول: «عام مات هشام»! وله يقول أبو بكر بن شعوب:

ذريني أصطبح يا بكر أني رأيت الموت نقّب عن هشام[2]

تخيّره ولم يعدل سواه ونعم المرء من رجل تهام[3]

فولد هشام بن المغيرة: عثمان وبه كان يكنى، وأمه: بنت عثمان بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم، وليس لعثمان عقبٌ، والحارث بن هشام، وكان شريفًا مذكورًا، وله يقول كعب بن الأشرف:

نُبِّئت أن الحارث بن هشام في الناس يبني المكرمات ويجمع

ليزور أثرب بالجموع وإنما يبنى على الحب القديم الأرفع[4]

---

(١) المستطرف في كل فنّ مستظرف (ج ١ ص ٢٣) تأليف شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي المولود سنة ٧٩٠ هـ، المتوفى سنة ٨٥٠ هـ طبعة بغداد/ مطبعة أوفسيت منير، ١٩٨٦ م.

(٢) البيتان في «الاشتقاق لابن دريد ص ٦٣» في قطعة ٥ أبيات منسوبة إلى بحير بن عبد الله القشيري.

(٣) تهام بفتح التاء: نسبة إلى تهامة، وإذا شدّدت الياء فقلت «تهامي» كسرت التاء على القياس.

(٤) أثرب: هي «يثرب»، لغتان، وهي المدينة المنوّرة.

وشهد الحارث بن هشام بدرًا مع المشركين، فكان فيمن انهزم، فعيّره حسّان بن ثابت، فقال[1]:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوتِ فنجى الحارث بن هشامِ
ترك الأحبّة لم يقاتل دونهم ونجا برأس طِمرّةٍ ولجامِ

فاعتذر الحارث من فراره، فقال[2]:

القوم أعلم ما تركتُ قتالهم حتى رموا فرسي بأشقر مُزْبِدِ
وعلمتُ أني إن أقاتلْ واحدًا أُقتل ولا ينكى عدوّي مشهدي
فصدرت فهم والأحبّة فيهم طمعًا لهم بعقاب يومٍ مفسدِ

ثم غزا أحدًا مع المشركين، ولم يزل متمسّكًا بالشرك حتى أسلم يوم فتح مكّة، يقولون: إنّ أمّ هانئ استأمنت له، فأمّنه رسول الله ﷺ، ثم حسن إسلامه، وخرج في زمن عمر بن الخطاب بأهله وماله إلى الشام، فتبعه أهل مكّة يبكون عليه، فوقف، فبكى، ثم قال: «أما كنّا نستبدل دارًا بدار، أو جارًا بجار؟ ما أردنا بكم بدلًا، ولكنها النقلة إلى الله». فلم يزل حابسًا نفسه ومن معه بالشام، مجاهدًا حتى مات، ولم يبقَ من أهله وولده، غير أُم حكيم ابنة الحارث، وابنه عبد الرحمٰن بن الحارث، وختم الله له بخير.

وأخوه لأبيه وأمّه: عمر، وهو أبو جهل ـ لعنه الله ـ قُتل يوم بدر كافرًا، وأمّهما: أسماء بنت مُخَرِّبة بن جندل بن أبير بن نهشل بن دارم، وأخواهما لأمّهما: عبد الله بن أبي ربيعة، وعياش بن أبي ربيعة، والعاصي بن هشام بن المغيرة، قتله عمر بن الخطاب ﷺ يوم بدر كافرًا، وأمّهم: الشفاء بنت خالد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وسلمة بن هشام، استُشهد يوم أجنادين، وكان من المستضعفين بمكّة، وكان رسول الله ﷺ يدعو له، وللمستضعفين بمكّة، وفيهم نزلت: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: الآية ٧٥]، وأمّ سلمة بن هشام بن المغيرة: ضباعة بنت عامر بن قُرط بن سلمة بن قشير»[3].

---

(١) راجع «ديوان» حسان بن ثابت.
(٢) يراجع شرح «ديوان» حسان (ببعض الاختلاف في الرواية).
(٣) راجع نسب قريش ج ٩ ص ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣.

ثم يقول النسّابة الزبيري في موطن آخر من كتابه، وفي صدد ذرية أبو جهل، فيقول:

«ومن ولد أبي جهل بن المغيرة عكرمة[1]، قُتل يوم أجنادين شهيدًا، وليس له عقب، وهو من مسلمة الفتح، وله يقول الشاعر:

إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمهْ ولحقتنا بالسيوف المسلمهْ

وكان عكرمة خرج هاربًا يوم الفتح، حتى استأمنت له زوجته من رسول الله ﷺ، وهي أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، فأمّنه، فأدركته باليمن، فردّته إلى النبيّ ﷺ، فلمّا رآه رسول الله ﷺ قام إليه، فرحًا به، حتى اعتنقه، وقال: «مرحبًا بالمهاجر!»، وزعم بعض أهل العلم أن قيام رسول الله ﷺ وفرحه به كان أنّ رسول الله ﷺ رأى في منامه أنه دخل الجنّة، فرأى فيها عذقًا مذلّلًا، فأعجبه، فقال: «لمن هذا!» فقيل له: «لأبي جهل»، فشقّ ذلك عليه، وقال: «وما لأبي جهل والجنّة؟ والله لا يدخلها أبدًا!»، فلما رأى عكرمة أتاه مسلمًا، فرح به، وتأوّل ذلك العذق عكرمة... وهاجر إلى المدينة منصرفه من مكّة بعد الفتح، فجعل عكرمة كلما مرّ بمجلس من مجالس الأنصار، قالوا: «هذا ابن أبي جهل»، وسبّوا أبا جهل، فشكا ذلك عكرمة إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات».

ولما ندب أبو بكر ﷺ الناس لغزو الروم، وقدم الناس، فعسكروا بالجرف، على ميلين من المدينة، خرج أبو بكر الصدّيق ﷺ يطوف في عسكرهم، ويقوّي الضعيف منه، فبصُر بخباءٍ عظيم، حوله تُرابط ثمانية أفراس ورماح وعُدَّة ظاهرة، فانتهى إلى الجناء، فإذا خباء عكرمة، فسلّم عليه، فجزّاه الله أبو بكر خيرًا، وعرض عليه المعونة، فقال: «أنا غنيّ عنها، معي ألفا دينار! فاصرف معونتك إلى غيري»، فدعا له أبو بكر بخير، ثم استشهد عكرمة يوم أجنادين، ولم يترك ولدًا[2]، وأمّه: أمّ مجالد، إحدى نساء بني هلال بن عامر.

---

(١) أسلم ﷺ عام الفتح وحسن إسلامه، وكان يقال: لا يضرّ إيمان عكرمة كفر أبو جهل.

(٢) وترك خلفه زوجته أم حكيم (ابنة الحارث بن هشام) قُتل عنها يوم اليرموك شهيدًا، فخلف عليها خالد بن سعيد بن العاص، فقتل عنها يوم مرج الصفر شهيدًا، فتزوجها عمر ابن الخطاب [ﷺ] فولدت فاطمة بنت عمر بن الخطاب، فتزوج فاطمة عبد الرحمٰن بن زيد بن=

وكان لأبي جهل من الولد (أيضًا): أبو علقمة، قُتل باليمن، واسمه زُرارة، وأبو حاجب، واسمه تميم، وأمّهما: بنت عمير بن معبد بن زُرارة بن عدس، وعلقمة بن أبي جهل، درج، وأمّه: عائشة بنت الحارث بن ربيع بن زياد بن عبد الله بن سفيان بن ناشب، من بني عبس.

وكان لأبي جهل أربع بنات: صخرة، والحنفاء، وأسماء، وجُويرية، وأمُّهنّ: أروى بنت أبي العيص بن أميّة، وأمّها: رقية بنت أسد بن عبد العزى بن قصي، وأمّها: خالدة بنت هاشم بن عبد مناف بن قصي.

كانت الحنفاء بنت أبي جهل عند سهيل بن عمرو بن عبد شمس العامري.

وكانت أسماء بنت أبي جهل عند الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومي، فولدت له أمّ عبد الله بنت الوليد، تزوّج أم عبد الله بنت الوليد عثمان بن عفان فولدت له الوليد وسعيدًا، ابني عثمان بن عفان.

وكان جُويرية بنت أبي جهل عند عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أُميّة، فولدت له عبد الرحمٰن بن عتّاب، قتل عبد الرحمٰن يوم الجمل، ووقف عليه عليّ بن أبي طالب، فقال: «هذا يعسوب قريش»! وكان عليّ بن أبي طالب قد خطب جُويرية بنت أبي جهل قبل عتّاب، وهمّ بنكاحها، فكره ذلك رسول الله ﷺ، وقال: «إني لأكره أن تجمع بين بنت وليّ الله وبين بنت عدوّ الله»، فتركها عليّ، وتزوّجها عتّاب.

وكانت صخرة بنت أبي جهل عند أبي سعيد بن الحارث بن هشام، وليس لأبي سعيد بن الحارث عقب إلّا من بنته فاطمة بنت أبي سعيد، ولدت لخالد بن العاصي بن هشام بن المغيرة: الحارث بن خالد بن العاصي. وأمّهم: عاتكة بنت الوليد بن المغير[1]».

هذه جملة ما يتعلّق ويرتبط بأبي جهل من جهة مكانة والده في قريش وذكر إخوته، ومن ثمّ الوقوف على أخبار ذرّيته، نقلناها كما هي من التاريخ، ليكون القارئ المطالع على علمٍ أيضًا بهذه الناحية التي من المحتمل أن تفيده في فكّ

= الخطاب، فولدت له عبد الله بن عبد الرحمٰن بن زيد، فلعبد الله بن عبد الرحمٰن عقب. (راجع ج ٩ ص ٣٠٣ من نسب قريش).

(١) راجع نسب قريش ج ٩ ص ٣١٠، ٣١١، ٣١٢.

رموز بعض أجزاء القضايا التاريخية المستغلقة أمامه، وذلك لأن هناك كثير من الأسرار التاريخية تحتاج إلى كشفها وإماطة اللّثام عنها، ولم يتأتّ ذلك إلّا بالاجتهاد السليم وبُعد النظر والاستشهاد بالحقائق. . .

قبيلتـه

ينتسب أبو جهل إلى بني مخزوم، وهم فرع من قريش، وهي قبيلة معروفة بالسُؤدد والكرم والمجد، وهي كذلك من أكثر القبائل العربية نشاطًا وأوسعهم اطّلاعًا على مختلف العادات، لما اعتادوه من الأسفار التجارية، شمالاً وجنوبًا، وتلجأ القبائل من جميع أنحاء الجزيرة العربية إلى بلادهم كل عام، لتؤدّي فريضة الحج، وهي كذلك أشرف قبيلة في الجزيرة لتولّيها حجابة الكعبة المقدّسة عند العرب ولقيامها بالوظائف الدينية الشريفة التي تتبعها.

وكانت لإقليم الحجاز حرمة مقدّسة لدى القبائل المنتشرة في الجزيرة (من أقصاها إلى أقصاها)، وكانت وظائف الإمارة فيه منقسمة في بطون قريش، حفظًا لوحدتها، كأنها جمهورية يقوم بأجرها رؤساء البطون الرئيسة[(1)]، وكان مقر اجتماعهم بدار الندوة، وكان بنو مخزوم لهم كلمتهم ومكانتهم وطرف في الزعامة المشتركة. . .

«وقد حفظ القريشيّون، بعد تقسيم الوظائف بينهم، وحدتهم من أن تمزّق بالنزاع والتنافس، وثبتت حرمتهم في عيون كافة قبائل العرب»[(2)].

وحين ظهر الإسلام كان الشرف في قريش قد انتهىٰ إلى عشرة رهط من عشرة أبطن، وهم:

١ ـ العباس من بطن هاشم، وإليه كانت السقاية وبقي له ذلك في الإسلام.

٢ ـ أبو سفيان من بطن أُميّة، وعنده العقاب راية قريش، فإذا اجتمعوا على أحد سلّمها له وإلّا فهو صاحبها، وهذه الوظيفة هي وظيفة القيادة.

٣ ـ الحارث بن عامر من بطن نوفل، وكانت إليه الرفادة.

---

(١) راجع ج ١ ص ٧٩، ٨٩ من كتاب «مختصر تاريخ العرب والإسلام» ترتيب محمد عزة دروزة، الطبعة الثالثة ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥ م.

(٢) ج ١ ص ٨٠ مختصر تاريخ العرب والإسلام.

٤ ـ عثمان بن طلحة من بطن عبد الدار، وكانت إليه اللواء والسدانة مع الحجابة، ويقال أن الندوة كانت في بني عبد الدار.

٥ ـ يزيد بن زمعة بن الأسود من بطن أسد، وكانت إليه المشورة.

٦ ـ أبو بكر الصدّيق من بطن تيم، وإليه كانت الأشناق في الجاهلية.

٧ ـ خالد بن الوليد من بطن مخزوم [وإليه ينتمي أبو جهل]، وإليه كانت القبّة والأعنّة.

٨ ـ عمر بن الخطاب من بطن عدي، وإليه كانت السفارة في الجاهلية.

٩ ـ صفوان بن أُميّة من بطن جُمح، وإليه كانت الأيسار.

١٠ ـ الحارث بن قيس من بطن سهم، وإليه كانت الحكومة والأموال المحجرة.

وقد استمرّت هذه المناصب حتى فتح مكّة حين ألغاها النبيّ ﷺ جميعًا، إلّا سُدانة البيت والسقاية[١].

وكان رجال الملأ من قريش يسارعون للقضاء على المنازعات التي قد تنشب أو تثور بين البطون، لكي تحتفظ قريش بمركزها وقوّتها وحرمتها، كما نوّهنا بين القبائل الأخرى.

إنّ غرضنا الوحيد من استطراد الزعامات التي انحصرت في البطون القريشية المذكورة هو للتأكيد ضمنيًا على سهم بنو مخزوم من هذه التقسيمات الوظيفية، والتي كانت محتلّة في خالد بن الوليد، وهو ابن عمّ عمرو بن هشام أبا الحكم أو «أبو جهل».

«إذًا كان لبني مخزوم على هذا الأساس المكان المشار إليه، والصلة الشديدة الوثوق بمصير كيان قريش عامّةً، من جهة رابطة هذه المسؤولية المنوط بها ضمن تقسيم الوظائف الآنفة الذكر أعلاه.

ولم يظهر عليها، أنها كانت مهملة أو ضعيفة الشأن، أو ليست لها مشاركة فعّالة في الأحداث والوقائع كما سيتبيّن ذلك. وقد كان من المفروض على (أبي

(١) راجع ص ١٢١ من كتاب «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول»، تأليف الدكتور أحمد إبراهيم الشريف، القاهرة، دار وهدان للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، الطبع بلا تاريخ.

جهل) أن ينفتح لدعوة محمد ﷺ، ويفتخر به، ويسرّه ذلك قبل غيره، لأن كليهما من قريش. . .

ولكننا تمكنّا بعد الفحص والتنقيب وتقليب وجهات النظر، أن نتوصّل بدون تكلّف وعناء وجهد، بأن أبا جهل كان مصابًا بداء الشذوذ النفسي، والانحراف العقلي والحسّي، وأنه كان متّصفًا بالأنانية والاستكبار واللؤم في الطبع، ومن الطبيعي أن هذه الشمائل السيّئة لا علاقة لها بالروابط الوراثية مطلقًا، لأننا لا نستطيع أن نحكم بسهولة على هذا الجانب، لأن شذوذ أبو جهل لا علاقة له بالصفات الوراثية لآبائه أو قبيلته، بل إنه يخصّ أبو جهل فقط، ومحدود بحدود شخصيّته، لا يتعدّاها إلى غيره، لا إلى آبائه، ولا إلى ذرّيته من بعده[1].

إن شجرة النسب، لآبائه، تنتمي إلى قريش في الصميم، وقريش أشرف قبيلة عربية في الجزيرة، وأكثرها تقديرًا، فقد تجمّعت فيها من دون القبائل: الدين والتجارة والفصاحة وكرم الأخلاق، وتوارثوها كابرًا عن كابر، إلّا من شذَّ منهم، والشاذ لا يقاس عليه، وقد توّج السماء شرف قريش والبشرية جمعاء بظهور محمد ﷺ من هذه القبيلة، التي كان أبو جهل المخزومي ينتمي إليها، وكان وقوف أبو جهل المضاد لنبيّ الدعوة الإنسانية محمد ﷺ، الإسلام، دين الخير والوحدانية والأخاء، هو لأسباب واهية جدًا لا أساس لها من الحقّ، منها الانتصار للأوثان والأصنام، وكذلك المحافظة على العادات الجاهلية المتوارثة، والخوف على مراكزهم ومناصبهم، ومنها الحسد الشخصي لظهور نور النبوّة في بني هاشم، إنّ تجمّع هذه المشاعر وغليانها في نفسية أبي جهل الباطنية ضدّ محمد ودعوته الإصلاحية هو الذي استدعانا تلقائيًا وبدون اجتهاد أن نحكم لأول وهلة على ضحالة شخصيته وضآلة توازنه أمام هذه المواقف العظيمة الحاسمة، وبالتالي هو الذي أرشدنا عبر محراب الحقيقة البيّنة، أن نحكم على جهله المطبق، وسفهه الشاذ؛ لأنه لم يستجيب لنداء السماء كما ينبغي على إنسان مثله، هذا النداء الذي يحتوي على الشفاء من الرجس والوثنية ويحمل معه الخير واليقين بالله الواحد الأحد. . . والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

(١) ولذلك جاء في الأثر: لا يضرّ كفر أبو جهل إيمان عكرمة.

انضمّ أبو جهل، إلى الذين كانوا يناوئون الرسول ﷺ وصحبه الكرام، وطفقوا يعذّبونهم من رجالٍ ونساء، ويضعون شتّى العقبات والعراقيل أمامهم ويقاسونهم الشدائد، ويسومونهم أسوأ العذاب... وقد أخذ أبو جهل يمثّل الدور المخزي في عملية تعذيب المسلمين، بل كان من أشدّ المعاندين والمعارضين، وصفحات كتب التاريخ مليئة بالوسائل الغادرة التي كان يلجأ إليها أبو جهل في سبيل الدعوة الإسلامية، ويطول بنا استطرادها وعرضها في هذا الموضع.

فهل لهذا العمل الشنيع من أبي جهل له مبرّر!

أجل... إن هذه السلبية المُرّة التي اتّسمت بها صورة أبو جهل الحقيقية والخالية من الأقنعة إزاء الإسلام، ونبيّ الإسلام، وصحبه العظام، مصدره الوحيد، هو الغيرة، على المصالح والمراكز كما ذكرنا، والانتصار للآلهة والأوثان والأصنام والحُسّد من النبيّ ﷺ...

كان أبو جهل يمثّل الدور التعس ويمسك بشدّة خيط الرجعية الجاهلية بيده، للوقوف أمام حقائق الإسلام الناصعة والمنتصرة، لأنها مؤيّدة من السماء.

وعلى هذا الأساس، لم يكن أبو جهل، إنسانًا ناضجًا، من الناحية النفسية والعقلية والاجتماعية، وكان معدومًا من وسائل التأهيل بحيث يستطيع بموجبه التفتّح أمام الدعوة الجديدة، ويتهيّأ لهضم مبادئها، ويتحمّل قسطًا من المسؤولية التاريخية بأمانة، ويتفاعل معها.. لكنّه كشف أوراقه السوداء أمام هذا الأمر الإلـهي، فبقيت عقليّته ومشاعره تتراوح في دوائرها الجاهلية، ورفض الجديد، وأصرّ على عدم مغادرة ميادين القديم المظلمة، مصمّمًا التقوقع والتخندق في زواياها، وقد انكشف في هذه الحالة أبو جهل في أسوأ صورة، وفضح نفسه بنفسه عن حقيقته المريضة الكامنة في باطنه، والتي كانت حتمًا مكبّلة بالأوهام الفاسدة والطموحات المهزوزة... وهذه الطوايا والأوهام الشريرة، لها مساس بطوايا وعناصر النفس الخفيّة، ولا أعتقد أن لها جذورًا أو امتدادات وراثية تتعاقب في العوائل أو الأفراد، وتنتقل من جيل إلى جيل في نفس السلسلة البشرية، مدنية أو متحضّرة كانت، أو قبلية أو بدويّة...

ولنعرض صفحًا وفق هذا المقرّر عن أبي جهل، ولنقف على حقيقة رجل آخر من بني مخزوم، ولنسمع من التأريخ قوله فيه، فقد ورد في هذا الصدد:

(وقد اشتهر بنو مخزوم بالثروة والمال، حتى كان أحدهم، وهو عبد الله بن أبي ربيعة، يلقّب بعدل قريش، وقد كان تاجرًا موسرًا، وكان متجره إلى اليمن[1]، كما كفن أحد الموتى وهو عبد المطلب ابن هاشم في حلل قيمتها ألف مثقال من الذهب، وطرح عليه المسك حتى ستره[2]. ولا ننسَ أن التجارة كانت في قريش جماعية، وكانت الثروة في أيدي أكثرهم متيسّرة، ومواقف السخاء كانت تتكرّر في عدّة صور بينهم... من رجال مخزوم أو غير مخزوم على السَّواء. ولكن قبل أن نغادر هذا الموضوع وننتقل إلى موضوع آخر، نودّ أن نسوق ظاهرة عامّة في بطن بنو مخزوم وهو عرضه لنا كتاب (تاريخ مكّة والمدينة) للدكتور أحمد إبراهيم الشريف، نذكر ما نصّه:

«وقد كان بنو مخزوم من قريش يملكون عددًا كبيرًا من العبيد السود، يستخدمونهم في مختلف الأعمال وفي الحروب، وبخاصة تلك التي خاضتها ضدّ يثرب»[3]، وقد قمنا بتسجيل هذه الحقيقة التاريخية كمعلومات عامّة قد تفيد القارئ وهو يبحث عن أبي جهل، وقد يستطيع أن يستخرج منها بعض النقاط التي خفيت علينا من وراءها ويزوّدنا بها.

نشأته وصفاته

نشأ أبو جهل في مكّة في بطن مخزوم من قبيلة قريش، وكان أبوه يُعَدّ من أشراف قريش، إلّا أنه كما يتبيّن لنا وبوضوح، من خلال استقراء الأحوال الخاصة به، كان شريرًا منذ طفولته، ميّالًا إلى الصراع والنزاع معهم، وحبّ العدوان، كما كان يتّصف بالحسد والغيرة ومنافسة الأقران، وقد استقرّت بذور هذه الخلال الكريهة، وتغلغلت في أعماق شخصيّته، فاصطبغت بها، وتطبّعت عليها، سلوكًا وتصرّفًا.

إن الطريق الأعوج الذي انتهجه أبو جهل في حياته، منذ نعومة أظفاره، هو الذي أفقده وأفرغه من قابلية التأهّل لامتصاص الصفات القريشية الأصيلة؛ كالكرم والسخاء والتعاون والنخوة والسماح... الخ، وقد أظهر العكس من ذلك، في

(١) الأغاني ١/ ٦٤ (دار الكتب المصرية ١٩٢٩).
(٢) تاريخ مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٢١٣.
(٣) تاريخ مكة والمدينة ص ٢٢٩.

نفسه، فأخذ يشذّ عنهم ويخالف صفاتهم الاجتماعية الحسنة، واستمرّ في حلقات نشأته وهو يكره الخير ورجاله، ويتعصّب لهواه ومزاجه، وينطوي على العناد والغرور والأنانية واللُّؤم إلى أن لقي حتفه ودفع حياته ثمنًا من جراء ما اقترفت يداه، ودخل التاريخ، بعدئذٍ، ولكن من أبوابه المهملة المظلمة، وسجّل المعنيين بشؤون التاريخ اسمه في القائمة السوداء إلى أبد الآبدين.

بين محمد ﷺ وأبي جهل قبل الإسلام

نشأ كلّ من محمد بن عبد الله ﷺ، وأبي جهل عمرو بن هشام، في بيئةٍ واحدة، ورغم مكانة بني مخزوم قبيلة أبو جهل، في قريش، إلّا أن مكانة بنو هاشم كانت أعلى منها ومن غيرها من البطون القريشية، في نظر المجتمع، على مستوى الجزيرة عامّة، ومكّة بالخصوص.

وبهذا فمحمّدٌ ﷺ كان أعلى حَسَبًا وسؤددًا من أبي جهل، ثم أنّ محمد عُرف منذ صغره بالصادق والأمين والحليم، وغير ذلك من الصفات الحميدة التي اشتهر بها، بين الكبير والصغير، فكان بذلك موضع تقدير واحترام الناس له، إضافةً إلى كونه ابن عبد الله الشاب العفيف، الذي كسب ودّ واحترام جميع سكان مكّة وقريش، لنبله وكمال خلقه وعقله ونزاهته وفتوّته المثالية، وهو الذي اشتهر في وقوع القرعة التي أجراها زعيم قريش أباه عبد المطلب على أولاده، ثم افتداه بعد ذلك عوضًا عن الذبح، والقصة معروفة في كتب التاريخ(١)، فتوفّر مثل هذه الفضائل وغيرها في شخصية محمّد المبكرة، كان يغيض أبو جهل ويدفعه أن يخزن البغض والحسد والغيرة من محمد ﷺ، منذ أيام الطفولة الأولى، حيث كان كما يبدو من استقراء الصور الخبرية المُستقاة من صفحات التاريخ، أنه يشعر بالفارق بينه وبين محمّد اليتيم، ويستصغر نفسه أمامه، وكان ينظر إليه نظرة مليئة بالكراهية والحقد. . .

وكان محمّد ﷺ في طفولته على العكس من أبي جهل، طفولة بريئة هادئة، قويّة أمام النكبات، وكانت علامات الطفولة الباكرة في محمّد ﷺ الصغير واليتيم تتّجه وتتفتّح نحو الخير والفضيلة والكمال والحكمة والقناعة وصفاء النظر في

---

(١) يراجع كتاب (أخبار عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ)، جميل إبراهيم حبيب، إصدار بغداد، المكتبة العالمية ١٩٨٥ م.

فلسفة الحياء، بينما علامات طفولة أبي جهل كانت منذ تأسيساتها الأولى تؤشر إلى التفاعل مع بذور الشرّ، وحبّ المجازفات الطائشة، فكثيرًا ما كان في طفولته، كما سنلاحظ في بعض الأخبار التي التقطناها بصعوبة من صفحات التاريخ، يلحق الأذى متعمّدًا بزملائه، ويتنافخ عليهم، ويتفاخر بقوّة عضلاته... كان محمّدًا ﷺ نموذجًا للخير والكمال منذ صغره إلى خاتمة حياته...

وكان أبو جهل نموذجًا مشحونًا بالنقائص منذ نشأته، ميّالًا إلى الشرّ والمكابرة والتطاول... وبقي أبو جهل على هذه الحالة مع الأيام إلى نهاية حياته، حيث نال جزاءه العادل في معركة بدر على يد أتباع محمّد ﷺ، جُنْد الله، جند الحق.

نشأ أبو جهل في بيت أحد سادات قريش، وفي قبيلة مخزوم التي كانت لها بدورها منزلتها بين القبائل الأخرى في الجزيرة العربية وقريش ومكّة، ولكن طموح أبو جهل كان يفوق حجمه الطبيعي، من الشعور والإحساس الذي كان يحتويه داخله، وقد تجاوز على حقيقته حين ارتدى ثوب الغرور والطموح والكبرياء، فخرج عن طريق الحق وزلّت به قدماه عن الجادّة الصواب.

انطلق أبو جهل، من مبدأ الحقد وحبّ الخصام والشر من طفولته، إلى نهاية حياته، ولم يساعد نفسه في التغيير نحو الأحسن.. فبدايته مع الحياة كانت سوداء متورّمة... ونهايته مع الحياة كانت سوداء كما هي... وبقيت وراءه سُحُب مظلمة من الآثار والأفعال التي تعلّقت به، وهي أسوأ ما تكون حين تُستعرض وتُكشف!! فكم هي كريهة، في نظر التاريخ والمؤرخين، ونظر كل صاحب ضمير نابض، ومروءة كاملة!!

لقد طرح التاريخ شخصية أبو جهل، والذكريات المتعلّقة بها، في مزبلة التاريخ إلى الأبد.

شواهد أوّلية على الصراع
بين أبي جهل ومحمّد بن عبد الله ﷺ

تمتدّ جذور الصراع بين أبو جهل عمرو بن هشام، ومحمد بن عبد الله بن عبد المطلب، منذ طلائع الأيام الأولى من نشأتهما المبكّرة سويّة في البيئة الاجتماعية بمكّة، وقد اتّضح أن كليهما كانا من جيل واحد، وعمر متناسب

تقريبًا، وكان لكلّ منهما، رغم ترعرعهما تحت سقف اجتماعي واحد، مزاجه المستقلّ عن الآخر وطريقته وعاداته وسلوكه، ولكل منهما منزلته ودرجته لدى الآخرين، وقد اكتشف أبو جهل - المشهور منذ نعومة أظفاره بأذيّة الآخرين - أن منزلة محمّد اليتيم أعلى منه، وأن احترامه رغم صغره كان شائعًا بين الكبير والصغير، والقريب والبعيد، وقد اغتاظ أبو جهل من محمّد، وامتلأت وساوس الحسد في قلبه من مقامه الرفيع الذي حازه في نظر المجتمع...

فقد عُرف محمّد اليتيم، بالحكمة المبكّرة، والصبر، والعقل الراجح، والاتّزان، والتصرّف السليم، والهدوء، والصدق في القول... وغيرها من الصفات الحميدة...

وكان أبو جهل على العكس من محمّد بن عبد الله، فقد كان الأطفال يبغضونه ويتجنّبون اللقاء معه، لأنه كان شرسًا، يؤذيهم، كما اشتهر بالعداء، والكيد، والميل إلى غلبة الأقران، والمشاجرة معهم، كما عُرف أيضًا بالمشاكسة والحسد والبغض والضغينة واللُّؤم في الطبع،... إلى غيرها من خصال الشرّ المذمومة...

ويتبيّن أنّ أبا جهل، كان يحبّ الصراع مع الأطفال في مستوى عمره، وكما يظهر أن القوم كان يلذّ لهم أن يتمتّعوا بمناظر صراع الأطفال، وأيّهما الغالب وأيّهما المغلوب، وتفتخر كل قبيلة بالتالي بصبيانهم أو غلمانهم الأقوياء الذين تتمّ لهم الغلبة في المشهد... أي المحل الذي يتفقون فيه لإجراء الصراع، ويحضر لأجله الجمهور أيضًا... وكانت هذه المناظر إنّ صحّت، بمثابة مهرجانات رياضية على طريقتهم الخاصة، أو موروثًا اجتماعيًا له شروطه وقواعده وأعرافه... بله عنك عدم تجرّدها من صراعات الروح القبلية المخبوءة تحت النفوس وأعماق المشاعر... وإن كانت لا تخلو تأثّرها بالتقاليد الحضارية الوافدة إلى مكّة لكونها تقع في موقع أهّلتها أن تتأثّر وتكتسب بعض العادات الاجتماعية الشائعة لدى الآخرين، مع العلم أننا باستقرائنا لملامح الموروث الشعبي حول هذا الشأن في تأريخ البلدان المجاورة للحجاز، لم نستطلع لديهم ولم نقف على خبر أو إشارة إلى إقامة مثل هذه المشاهد...

ومما يروىٰ أن أبا جهل ألحّ وأصرّ ذات مرّة أن يكون محمّدًا هدفه في حلبة الصراع، وأطلق إليه سيلًا من التهديدات، لتخويفه وإغاظة بني هاشم أيضًا، وذلك

لأن محمّدًا كان محبوبًا بشكل منقطع النظير بين رجال ونساء بني هاشم، وهو الوحيد الذي كان يتمتّع بهذه المكانة الراقية فيهم منذ صغره. . .

وصلت التهديدات والوعود الغليظة من أبي جهل إلى محمّد، وعلم بنو هاشم بذلك، وطلب أبو جهل أن يكون اللّقاء الحاسم أمام حشد من رجال قريش وزعمائها اعتبارًا من بني مخزوم، قبيلة أبو جهل، إلى غيرها من القبائل والأفخاذ والبطون. . . عقد رجال بني هاشم جلسة هامّة لمدارسة هذه القضيّة التي شاعت وسادت أوساط مكّة وقريش، وتهيّأوا لمعالجة الموقف، والتزام محمّد بكثير من الاهتمام والحزم والإسناد. . . وتوسّط محمد ﷺ أعمامه أبو طالب والحمزة والعباس بالهيبة والجلال، وأقبل معهم إلى ساحة العرض، وهو متفائل بالنصر المؤزر مستعينًا بالواحد الأحد، إلـه أجداده الأحناف، ووقف الجميع ينتظرون النتيجة النهائية، وكان وجه محمّد يُشرق بالنور وعضلاته تنبض وتفيض بالقوّة، وكان لابسًا أجمل وأحلى الملابس التي جهّزها به أعمامه. . .

حضر رجال القبائل. . .

وحضر أهل مكّة برجالها ونسائها. . .

وكان بنو مخزوم، ومنهم والد أبو جهل، هشام بن المغيرة، بين الحضور، وقد ملأه الغرور والتباهي بابنه. . .

ولما حان وقت النّزال، أخذ أبو جهل يراوغ ويزعق، ويرعد، ويزعق، ويتنافخ. . . لعلّه يلقي الخوف في قلب محمّد. . .

وأظهر محمّد ﷺ على عادته، الحكمة، والتفكير، واستعان بالله، فوثب كوثبة الأسد وانقضّ على أبي جهل، الذي أصبح ألعوبة بين يديه، وصار مضحكةً للقوم، صرع محمّد أبو جهل وسط صيحات الفرح والتشجيع من رجال بني هاشم، ودعائهم إلى الله أن ينصره على هذا الطفل الأخرق. . .

وحاصل القول أن أبا جهل تضعضع أمام قوّة محمد الغالبة القاهرة.

وابتهج رجال بنو هاشم وهنأ بعضهم بعضًا. . . واحتسر رجال بنو مخزوم وغادروا المكان وهم يجرّون أذيال الخيبة والخذلان. . .

هذا ملخّص صورة الصراع الذي تذكره بعض المصادر التاريخية[1]... إضافةً إلى الإشارة إلى صورة أخرىٰ تكشف أيضًا، حسد وعداء أبو جهل لمحمّد ﷺ، وذلك حين فشا في القوم خبر زواج محمّد ﷺ من خديجة بنت خويلد[2]، والخبر يطول ذكره وقد دوّنا تفاصيله في كتاب «الحمزة بن عبد المطلب سيّد الشهداء»، فبإمكان القارئ مراجعته إن رغب الزيادة في التفصيل...

ولعلّ أوضح صورة للصراع بين محمّد ﷺ وأبو جهل، هو ما يرويه الرسول الكريم بنفسه، فقد ورد ذلك في معرض الكلام في كيفية مقتل أبو جهل في معركة بدر، وجاء الموضوع في كتاب السيرة النبويّة لابن هشام، حيث أشار:

«قال ابن إسحٰق: فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من عدوّه، أمر بأبي جهل أن يلتمس في القتلىٰ...»[3]... «فمرّ عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله ﷺ أن يُلتمس في القتلىٰ، وقد قال لهم رسول الله ﷺ - فيما بلغني -: انظروا، إنْ خفي عليكم في القتلىٰ إلى أثر جرحٍ في ركبته، فإني ازدحمت يومًا أنا وهو على مأدبة واحدة لعبد الله بن جدعان، ونحن غلامان، وكنت أشفَّ منه بيسير فدفعته فوقع على ركبتيه، فجحش[4] في إحداهما جحشًا، لم يزل أثره به... قال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه - قال: وقد كان ضبث بيَّ مرّة بمكة، فآذاني، ولكزني... الخ»[5]، هذا فيض من غيض من الشواهد الدالّة على ما كان يستبطنه أبو جهل لمحمّد وللآخرين من كيدٍ وكراهية ويضمر لهم من شرٍّ وحقد... منذ صغره...

وأخذت صفة الأذى بالآخرين، بصورة عامّة، ومحاربة محمّد ﷺ بصورة خاصة، تلازمه إلى آخر رمق من أنفاسه، وسيقف القارئ على حقيقة هذا القول، عندما يتابع فصول الكتاب ويقرأ ما فيها من أخبار وأحداث تكشف وتركّز على هذه النقطة.

(١) ذكر القصة بحذافيرها المؤرخ عبد الله البكري في كتابه «الأنوار في مولد النبيّ»... وقد أودعناها بدورنا في كتاب «الحمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء»، طبع في بيروت، المؤسسة العربية للدراسات ١٩٨٦ م.

(٢) يراجع التفاصيل في كتاب «الأنوار في مولد النبيّ» عبد الله البكري ﷺ.

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٦٣٤.

(٤) حجش: خدش.

(٥) يراجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٦٣٤ - ٦٣٥.

موازنة بين شرف عائلة محمد ﷺ وعائلة أبي جهل

تنتمي عائلة أبو جهل، إلى بني مخزوم، وكانت عائلته تجتمع عندها السيادة على هذا البطن، فقد ورث الوليد بن المغيرة مركز أبيه المغيرة، سيّد بني مخزوم، وانتقلت هذه السيادة بعد ذلك إلى ابن أخيه أبو جهل...[1].

وعلى هذا الأساس، فأبو جهل، وأباه، وجدّه، هم من سادة مخزوم، ويعدّون أنفسهم من أشراف قريش، ولكن هناك شيء لا بدّ من الإشارة إليه، وهو أن موازنة أبو جهل لهذه السيادة كانت خاطئة من الأساس في الحساب أمام سيادة محمّد ﷺ الذي قلّدَهُ الله ليس بشرف الآباء فحسب، بل أضاف إليها تاجًا من الشرف سَمَا على كل أنواع الشرف، وهو شرف النبوّة الواسعة الدائرة والمتعدّدة الإشراقات إلى الآفاق والجهات، المتجاوزة لشرف القبيلة أو المدينة أو أمّة معينة بذاتها...

ولم يقف أبو جهل عند حدود الحسد أمام هذا الشرف العظيم لمحمّد ﷺ، وإنما عارضه وحاربه وعاداه، وزجّ بكل طاقاته وإمكانيّاته لإطفاء نور النبوّة المُضاءة بقناديل العناية الإلـهية، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصَّف: الآية ٨]، وتمّ نوره على الرغم من أنف أبي جهل وأصنافه...

هذا الكلام الطويل سقناه في مجال التطرّق بما يخصّ شرف عائلة أبو جهل من جهة سيادة سلسلة آبائه، أمّا شرف عائلة أبو جهل من جهة الأم، فقد أشارت إليه مجلة العربي الكويتية، بقولها:

... كان أبو جهل العدوّ اللّدود للرسول ﷺ من القريشيّين الذين ممن عرفوا أيضًا بأسماء أمّهاتهم، فقد كان يُعرف باسم ابن الحنظلية، نسبة إلى أسماء بنت مخربة من قبيلة حنظلة، أحد فروع تميم، وكانت أسماء هذه تاجرة عطور مشهورة...[2].

ونسبة أبو جهل إلى أمّه أسماء تثبت أنّ بعض آثار الأمومة كانت ما تزال موجودة في مجتمع مكّة زمن الرسول ﷺ، ومما يزيد في هذا الاعتقاد، أن بعض

---

(١) انظر مجلة العربي ص ٢٢، العدد ٨٣، أكتوبر ١٩٦٥ م، والصادرة في الكويت.
(٢) انظر مجلة العربي ص ٢٠، العدد ٨٣، سنة ١٩٦٥م.

المصادر تذكر أن صحيفة المقاطعة التي نظّمتها قريش ضدّ بني هاشم قد وضعت عند أم الجلاس بنت مخرّبة خالة أبي جهل، في حين أن مصادر أخرى تذهب إلى القول بأن أم الجلاس هي أسماء بنت مخربة نفسها التي كانت تكنى بأم الجلاس. . .[(١)]

وقد أشار الدكتور نبيه عاقل مستدركًا بقوله ومصحّحًا بعض الأخطاء التي التبست لدى قسم من النسّابة والمؤرّخين بالخلط بين أسماء أمّ أبو جهل وبين أسماء بنت أخيها سلمة بن مخربة، فيقول:

«تخلط بعض المصادر بين أسماء بنت مخربة أم أبي جهل وبين ابنة أخيها أسماء بنت سلمة بن مخربة التي كانت زوجة أخي أبي جهل، كما أن كلمة «مخربة» تظهر في بعض النصوص بشكل آخر هو «مَخْربة» وهذا خطأ»[(٢)].

والموازنة بين الشرف العائلي لأبي جهل بالنسبة للشرف العائلي لمحمّد بن عبد الله ﷺ على هذا الأساس، سواء في الجاهلية والإسلام، كنسبة الثرى إلى الثريّا؛ إذ أنّ رجحان الموازنة سيكون إلى جانب عائلة محمد ﷺ الذي تعاقب من أصلاب طاهرة ومن آباء كرام، وتمتدّ أصالتهم إلى جذور ضاربة في أعماق المجد والسُّؤدد والسيادة. . . وبالتالي فإن الرسول محمد ﷺ هو أكرم الناس حسبًا ونسبًا في تاريخ الإنسانية جمعاء. . .

أوصاف أبي جهل

إن خير وصف نطمئن إليه عن أبي جهل، ونزوّد به القارئ، والذي نعتبره في نفس الوقت وثيقة تاريخيّة لا يتسرّب إليها الشكّ، هو ما ذكره العباس بن عبد المطلب ﷺ عمّ النبيّ ﷺ عنهُ، حيث قال: «وكان رجلًا خفيفًا، حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر. . .»[(٣)]، والخبر ورد ضمن فقرة من فقرات وقائع غزوة بدر العظمى. . .

فبناء على ما ورد، فبإمكاننا أن نستنتج أن صورة أبا جهل الداخلية والظاهرية نسيج معقّد، وتركيبة غريبة معروفة العيوب مسبقًا، يلاحظ علاماتها عليه كل من

---

(١) مجلة العربي، ص ٢١، العدد السابق.
(٢) يراجع هامش ص ٢١ من العدد السابق لمجلة العربي.
(٣) راجع السيرة النبوية، المجلد الأول ص ٦٠٩.

يلقاه لأول مرّة... فوجه الإنسان هو مفتاح الحكم الاجتماعي الذي به يعرف ويتميّز به الإنسان... وكان وجه أبو جهل يبدو للناظر إليه لأوّل وهلة بأنّه كان شاذّ الأطوار ذات تموّجات متقلّبة، بشعة الانسجام، وبالتالي فإن كل شيء على وجهه يدعو إلى التقزّز والنفور ويدعو إلى الاستغراب والاستفهام، فلقد كانت فيه العلامات والأخاديد الفاضحة، وعينين متيّقظتين لسببٍ وبلا سبب، ومتحرّكتين يمنةً ويسرة، ولسان يتدلّى كلسان الثعبان، وما ذكره معاصره (العباس) في وصف ما يتعلق بحركاته، وخفّة عقليته، وعن نظره ولسانه... لا يدلّل مطلقًا على توازن شخصيّة هذا الرجل النّكرة بين رجال التاريخ، ولا يؤشر على سلامة تفكيره ورزانته وصفاء طباعه...

موقف أبي جهل من الدعوة الإسلامية

لما بلغ النبيّ محمّد بن عبد الله عليه أفضل الصّلاة والسلام أربعين عامًا أرسله الله للعالمين كافّةً، يأمرهم بترك الأوثان والشِّرك، والإقرار لله بالوحدانية وتجنّب الفواحش ـ ما ظهر منها وما بطن ـ وكان ذلك في رمضان عام ٦١٠ (ب م) وهو معتكف في غار حِرَاء، وأول من صدّقه وشجّعه زوجته السيدة خديجة (وفي ذلك دليل على أن المرأة العربية كان لها الأثر الكبير في الدعوّة الإسلامية)، ثم ابن عمّه عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، ثم صديقه أبو بكر الصدّيق ﷺ، ثم غيرهم من رجالٍ ونساء[١].

ويذكر العلّامة أبي الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي في كتابه أعلام النبوّة[٢] عن دور أبي بكر ﷺ، فيقول: «وجعل أبو بكر يدعو إلى الإسلام من يثق به لأنه كان تاجرًا، ذا خلق معروف، وكان أنسب قريش لقريش وأعلمهم بما كانوا عليه من خير وشرّ، حسن التأليف لهم، وكانوا يكثرون غشيانه، فأسلم على يديه عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمـٰن بن عوف، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له بالإسلام وصلّوا فصاروا مع من تقدم ثمانية أنفر، هم أوّل من أسلم وصلّى، وقيل: إنه أسلم معهم سعيد بن العاص وأبو ذرّ، ثم تتابع الناس في

(١) راجع مختصر تاريخ العرب والإسلام ص ٩٥.
(٢) أعلام النبوة لأبي الحسن الماوردي [٤٥٠ هـ]، طبع بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية سنة ١٩٨١، الطبعة الثانية.

الإسلام ورسول الله ﷺ على استسراره بالدعاء، وإن انتشرت دعوته في قريش. . . »[1].

وقد سجّل حسان بن ثابت الدور العظيم والنشيط لأبي بكر الصدّيق ومساهمته الجليلة في نشر الإسلام، فقد ورد في ذلك:

«وقال الشعبي: سألت ابن عباس: من أوّل الناس إسلامًا؟ (يقصد من الرجال)، فقال: أمَا سمعت قول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجوًا من أخي ثقة | فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البريّة أتقاها وأعدلها | بعد النبيّ وأوفاها بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهده | وأوّل الناس منهم صدق الرُّسُلا»[2]

وقد ظلّت الدعوة الإسلامية سرّية نحو ثلاث سنوات ثم جهر بها[3]، حيث أنزل الله تعالى قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر: الآية ٩٤]، فجهر بالدعاء[4] حينئذٍ، وأخذ يبشّر جميع الناس، فبدأ بأقربائه، ثم أنذر قريش كافّةً وغيرهم من القبائل والجماعات.

(وكان النبيّ عليه الصّلاة والسلام يجتمع هو والصحابة في هذه المدّة في دار الأرقم المخزومي في مكّة سرًّا، يتدارسون القرآن الكريم ويتعبّدون الله تعالى)[3].

واشتدّت أذيّة قريش لمحمد ﷺ وصحابته، وتوالى عنادهم وإصرارهم على مقاومة الدعوة الإسلامية بكلّ ما أوتوا من وسائل. . . وقد كان يتولّى أبو جهل القسط الأكبر في المقاومة والعناد والمعارضة، وكان يحرّض على الرسول الكريم ﷺ شخصيًا للانتقام منه، وسنأتي على تفاصيل أخباره في الصفحات التالية.

مغزى عداوة أبي جهل للرسول الكريم
في رأي بعض علماء السلف

إن لكل نبيّ أو وليّ أو عالم أو مُصلح عدوّ معين، أو بالأحرى أعداء، دَيْدنهم الأذى والإضرار، وما أبو جهل في عداوته للرسول الأكرم ﷺ إلا واحد

---

(١) راجع أعلام النبوّة، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.
(٢) المصدر السابق، ص٢٣٠.
(٣) مختصر تاريخ العرب والإسلام ص ٩٥.
(٤) أعلام النبوة ص ٢٣١.

من هؤلاء الأشرار، بل يعتبر من أشدّ الأشرار حسابًا؛ لأنه وقف ضدّ آخر رسالة سماوية وضدّ آخر نبيّ في الدنيا حيث به خُتمت الرسالات.

«وقد نقل الجلال السيوطي[1] رحمه الله في كتابه (التحدث بالنّعمة) ما صورته: ومما أنعم الله به على أن قام لي عدوًّا يؤذيني ويمزّق في عرضي، ليكون لي أُسوةً بالأنبياء والأولياء، قال رسول الله ﷺ: «أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم العلماء ثم الصالحون»، رواه الحاكم في مستدركه. وأوحى الله تعالَى إلى عيسٰى عليه السلام: «لا يفقد نبي حرمته إلّا في بلده». وروى البيهقي: «إن كعب الأحبار قال لأبي موسى الخولاني: كيف تجد قومك لك؟ قال: مكرّمين مطيعين، قال: ما صدقتني التوراة إذن، وأيم الله، ما كان رجل حليم في قوم قط إلّا بغوا عليه، وحسدوه... وأخرج ابن عساكر مرفوعًا: «أزهد الناس في الأنبياء وأشدّهم عليهم الأقربون، وذلك فيما أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢١٤]. وكان أبو الدرداء[2] يقول: أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه، إن كان في حسبه شيء عيّروه، وإن كان عمل في عمره ذنبًا عيّروه». انتهٰى.

قال الجلال السيوطي رحمه الله: واعلم أنه ما كان كبير في عصر قطّ إلّا كان له عدوّ من السفلة، إذ الأشراف لم تزل تبتلى بالأطراف.

فكان لآدم عليه السلام: إبليس...

وكان لنوح: حامٍ وغيره...

وكان لداود: جالوت وأضرابه...

وكان لسليمان: صخر...

وكان لعيسى في حياته الأولى: بختنصّر، وفي الثانية: الدجّال...

وكان لإبراهيم: النمرود...

وكان لموسَى: فرعون... وهكذا إلى محمّد ﷺ فكان له أبو جهل...

---

(١) جلال الدين السيوطي ت٩١٠ هـ، له (تاريخ الخلفاء) و(المزهر في اللغة) و(تفسير الجلالين)... ورسائل أخرى لا يزال قسم منها مخطوطًا لم يُنشر بعد.

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ج ١ ص ١٢، ١٣، طبع دار المعرفة، بيروت، أُعيد طبعه بالأوفسيت عن الطبعة الأصل لعام ١٣١٧ هـ.

وكان لابن عمر ﷺ عدوّ يعبث به كلما مرّ عليه، ونسبوا عبد الله بن الزبير إلى الرّياء والنفاق في صلاته، فصبّوا على رأسه ماءً حميمًا، فزلع وجهه ورأسه وهو لا يشعر، فلما سلّم من صلاته، فقال: ما شأني! فذكروا له القصة، فقال: حسبنا الله ونِعْم الوكيل، ومكث زمانًا يتألم من رأسه ووجهه، وكان لابن عباس ﷺ نافع بن الأزرق كان يؤذيه أشدّ الأذى، ويقول: إنه يفسّر القرآن بغير علم. وكان لسعد بن أبي وقاص، جهلة من جهّال الكوفة يؤذونه مع أنه مشهود له بالجنّة، وشكوه إلى عمر بن الخطاب، وقالوا: إنّه لا يحسن أن يصلّي. وأمّا الأئمّة المجتهدون، فلا يخفى ما قاساه الإمام أبو حنيفة مع الخلفاء، وما قاساه الإمام مالك واستخفاؤه خمسًا وعشرين سنة لا يخرج لجمعة ولا جماعة، وكذلك ما قاساه الإمام الشافعي من أهل العراق ومن أهل مصر، وكذلك لا يخفى ما قاساه الإمام أحمد بن حنبل من الضرب والحبس، وما قاساه البخاري حين أخرجوه من بخارى إلى خرتنك، وقد نقل الثقات، منهم الشيخ أبو عبد الرحمٰن السلمي وأحمد بن خلكان والشيخ عبد الغفار القوصي وغيرهم، أنهم نفوا أبا يزيد البسطامي سبع مرات من بسطام بواسطة جماعة من علمائها، وشيّعوا ذا النون المصري من مصر إلى بغداد مقيّدًا مغلولًا وسافر معه أهل مصر يشهدون عليه بالزندقة، ورموا سمنون المحب أحد رجال القشيري بالعظائم، وأرشوا امرأة من البغايا فادّعت عليه أنه يأتيها هو وأصحابه، واختفى بسبب ذلك سنة، وأخرجوا سهل بن عبد الله التستريّ من بلده إلى البصرة ونسبوه إلى قبائح وكفر مع إمامته وجلالته، ولم يزل بالبصرة إلى أن مات بها، ورموا أبا سعيد الخزّاز بالعظائم، وأفتى العلماء بكفره بألفاظ وجدوها في كتبه، وشهدوا على الجُنَيْد بالكفر مرارًا حين كان يتكلّم في علم التوحيد على رؤوس الأشهاد، فصار يقرّره في قعر بيته إلى أن مات، وكان من أشدّ المنكرين عليه وعلى رُوَيْم وعلى سمنون وعلى ابن عطاء ومشايخ العراق: ابن دانيال، كان يحطّ عليهم أشدّ الحط، وكان إذا سمع أحدًا يذكرهم تغيّظ وتغيّر لونه، وأخرجوا محمد بن الفضل البلخي من بلخ لكون مذهبه كان مذهب أهل الحديث من إجراء آيات الصفات وأخبارها على ظاهرها بلا تأويل، والإيمان بها على علم الله فيها، ولما أرادوا إخراجه، قال: لا أخرج إلّا أن جعلتم في عنقي حبلًا ومررتم بيَ في أسواق البلد وقلتم هذا مبتدع نريد أن نخرجه من بلدنا، ففعلوا ذلك وأخرجوه فالتفت إليهم، وقال: يا أهل بلخ نزع الله من قلوبكم معرفته، قال الأشياخ: فلم

يخرج بعد دعوته عليهم تلك من بلخ صوفيّ أبدًا، مع أنها كانت أكثر بلاد الله صوفيّة، وأخرجوا الإمام يوسف بن الحسين الرازي، وقام عليه زهّاد الري وصوفيوها، وأخرجوا أبا عثمان المغربي من مكّة مع كثرة مجاهدته وتمام علمه وحاله وضربوه ضربًا مبرحًا، وطافوا به على جمل، فأقام ببغداد إلى أن مات بها، وشهدوا على الشبلي بالكفر مرارًا مع تمام علمه وكثرة مجاهداته، وأدخله أصحابه البيمارستان ليرجع الناس عنه مدة طويلة، وأخرجوا الإمام أبا بكر النابلسي، مع فضله وكثرة علمه، واستقامته في طريقه من الغرب إلى مصر، وشهدوا عليه بالزندقة عند سلطان مصر، فأمر بسلخه منكوسًا، فصار يقرأ القرآن وهم يسلخونه بتدبّر وخشوع حتى قطع قلوب الناس، وكادوا أن يفتتنوا به، وكذلك سلخوا النسيمي بحلب وعملوا له حيلة حين كان يقطعهم بالحجج، وذلك أنهم كتبوا سورة الإخلاص وأرشوا من يخيط النعال وقالوا: هذه ورقة محبّة وقبول فضعها لنا في أطباق النعال، ثم أخذوا ذلك النعل وأهدوه للشيخ من طريق بعيدة فلبسه وهو لا يشعر، ثم طلعوا لنائب حلب وقالوا له: بلغنا من طريق صحيحة أن النسيمي كتب قل هو الله أحد وجعلها في طباق نعله، وإن لم تصدّقنا فأرسل وراءه وانظر ذلك، ففعل، فاستخرجوا الورقة، فسلّم الشيخ لله تعالى ولم يجب على نفسه، وعلم أنه لا بدّ أن يُقتل على تلك الصورة، وأخبرني بعض تلامذة وتلامذته أنه صار ينشد موشحات في التوحيد وهم يسلخونه حتى عمل خمسمائة بيت، وكان ينظر إلى الذي يسلخه ويبتسم، ورموا الشيخ أبا مدين بالزندقة وأخرجوه من بجاية إلى تلمسان، فمات بها، وكذلك أخرجوا الشيخ الشاذلي من الغرب إلى مصر، وشهدوا عليه بالزندقة وسلّمه الله من كيدهم، ورموا الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالكفر وعقدوا له مجلسًا في كلمة قالها في عقيدته، وحرّشوا السلطان عليه ثم حصل له اللطف، ذكره ابن أيمن في رسالته، ورموا الشيخ تاج الدين السبكي بالكفر وشهدوا عليه أنه يقول بإباحة الخمر واللّواط، وأنه يلبس في الليل الغيار والزنار، وأتوا به معلولًا مقيّدًا من الشام إلى مصر، وخرج الشيخ جمال الدين الأسنوي، فتلقّاه من الطريق، وحكم بحقن دمه وأنكروا على سيدي إبراهيم الجعبري وسيدي حسين الجاكي ومنعوهما أن يجلسا على كرسي الوعظ... الخ»[1]. إن تلك المحن المُشار إليها، والتي تعرّض لها

---

(١) راجع ج ١ ص ١٢، ١٣، ١٤ من اليواقيت والجواهر.

الأنبياء لم تزدهم إلّا كمالًا ورقيًا وعلوًا، ولأعدائهم الخزي والشنار والوبال وسوء المقال.

ولقد تبيّن لنا من هذا العرض الذي سجلناه للقارئ، لسلسلة الأعداء الطائشين، وعلى اختلاف أنواعهم وعصورهم، سواء الذين اعترضوا الأنبياء، أو الذين جابهوا العلماء والمصلحين أو غيرهم من رجال الزهد والكمال والعبادة. . . إنّ هؤلاء - في الحقيقة - لا يخلو منهم قطّ عصر من العصور، ولا زمن من الأزمان، وإن الأسباب الخفيّة التي تدفعهم إلى سلوك طريق المعارضة والمعاندة وإلصاق التهم الباطلة، وإطلاق الشتائم، مع أهل الرسالات والكمال والفضل والعلم والمروءة، تعود إلى طغيان عناصر الشرّ والخبث في طوايا أعماقهم الداخلية، ولغلبة عوامل الحسد والغيرة واللُّؤم، وغيرها من الشمائل القذرة في أنفسهم المظلمة، وانعدام موازين المروءة والتعقّل في شخصياتهم، التي كانت مجبولة أساسًا، ومتركّبة على الكذب والدجل والنفاق والشعوذة، وعدم الإقرار بالحق، والفرار من أهل الخير والصلاح، والتخندق ضدّهم ومحاربتهم.

ولقد كان أبو جهل، يمثل بين هؤلاء الأعداء، نموذجًا تاريخيًا في غاية السوء، حيث بذل هو ورهطة من بعض زعماء قريش أقصى ما أوتوا من قابلية في الخبث والحمق والشرّ وارتداء الغرور، لمحاربة النبيّ ﷺ وصحبه الكرام، وتعذيبهم وسبّهم والتحريض عليهم. . . الخ. ولكن النصر المؤزر في النهاية كان لمحمّد ﷺ وصحبه الغرّ الميامين. . .

وكان نصيب أبو جهل وجماعته الخسران المبين والفشل الذريع، حيث أدخلهم التاريخ بعد ذلك، في القائمة السوداء من صفحاته، تلحقهم اللعنة إلى يوم الدّين، وهذا جزاء كل من يحارب الله ورسوله. بينما كان نصيب النبيّ ﷺ وصحبه العظام من صفحات التاريخ هو التمجيد والخلود والاعتزاز، بل والاقتداء بهم، والاعتراف لهم بالفضل الكبير، والمنزلة العالية، والذكر الدائم، والأثر الحيّ الباقي.

محمد ﷺ رافع لواء الحق وأبو جهل رافع لواء الباطل

لم يستند أبو جهل في معارضته لمحمّد ﷺ على أيِّ حجة أو دليل، وكان قلبه خاويًا من جوانب الحق، وقد عمّ عليه ضلال الجاهلية، وامتلأ صدره

بالهواجس والوساوس والشكوك، وانطبعت عقليته بحلقات التعصّب والهوى والخفّة، وطبيعي أن إنسان شاذّ مثل أبو جهل، وبهذه المواصفات الغريبة، هو الباطل بعينه بلا شكّ وبلا أدنى تعليق.

لقد كان الصراع بين محمد ﷺ وأبو جهل، هو الصراع بين الحق الذي كان يمثّله محمد ﷺ في أحلى وأبهى صورها، وبين الباطل الذي كان يمثّلها أبو جهل في أبشع وأقبح صورها.

أجل إنه الصراع بين الخير والشرّ، وبين النور والظلام، فمحمّد ﷺ هو الحقّ وهو الخير وهو النور، وأبو جهل هو الباطل والشر والظلام.

وقد أشار بذلك أحد الأولياء من المتصوفة، وهو الشيخ علي بن العارف بالله سيدي محمد وفا، حيث كان ﷺ يقول:

«لا بدّ لكل إمام حق أن يقابله إمام باطل، فآدم عليه السلام قابله إبليس، ونوح عليه السلام قابله يام وغيره، وإبراهيم قابله نمرود، وموسى عليه السلام قابله فرعون، وداود عليه السلام قابله جالوت وأضرابه، وسليمان عليه السلام قابله صخر، وعيسى عليه السلام قابله في حياته الأولى بختنصّر وفي الثانية الدجّال، وأمّا محمد ﷺ فلم يكن له مقابل حقيقة لإثباته ﷺ بالإحاطة الخفية، كما قال: «واذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣]، فهو حق قذف به على الباطل، فإذا هو زاهق، حتى قال أبو جهل: والله إني لأعلم أنّ محمّدًا صادق، فلم يعدوه مقابلًا فافهم... الخ»[1].

وفي هذا القدر من الكلام كفاية على تفاهة أبي جهل، وعلى دَجَله، وسقمه، وفساد في عقليته، واختلال في معنوياته، وإقرارٌ منه وعلى لسانه بأنه يعرف الحق، ولكنه ينكره ويتجاوزه إلى عكسه، ويقف ضدّ تياره مع سبق الإصرار.

أبو جهل يتحرك في اضطهاد المسلمين

توالت على السابقين الأوائل كثيرًا من الاضطهادات على يد المشركين، ومن ساداتهم المتسلّطين، وكان أبو جهل من أكثرهم وأنشطهم وأسرعهم في اشتداد

(١) راجع الطبقات الكبرى للشعراني ج ٢ ص ٦٥.

الاضطهاد عليهم، وتسفيههم، والتحريض عليهم، فعذّبوهم بالحرق والكيّ والجلد والقتل والتمثيل، فلم يثن كل تلك الأساليب الخائبة من عزمهم، بل صمدوا لها، وأصرّوا على مبادئهم، والتفّوا حول راية محمد ﷺ، ولم يبالوا كذلك بسخرية أبو جهل وقريش وتعليقاتهم اللاذعة لهم، وبذلك ضربوا أروع الأمثلة في الفداء والتضحية والإخلاص لله ورسوله، بل الاستشهاد الرائع حين يتطلّب الأمر ذلك، لأن العقيدة أغلى من الروح، كما نقرأ ذلك في قصة استشهاد سمية «أمّ عمار»، حين اغتالها المجرم أبو جهل، إن سمية الشهيدة في سبيل الله ورسوله، فضّلت الموت ورخصت حياتها من أن ترتدّ عن الإسلام، فرفضت أن تتراجع، ولم تهتمّ بالتعذيب والتسلّط، وضربت سميّة السامية أحسن وأروع صورة للمرأة العربية في التاريخ، في الثبات، والصمود، والإخلاص، بل الشهادة العظمى من أجل إعلاء كلمة الحق.

أبو جهل يمشي مع رجال قريش إلى أبي طالب في شأن الرسول ﷺ

قال ابن إسحـٰق: فلما بادئ رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله تعالى، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه ـ فيما بلغني ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلّا من عصم الله تعالـٰى منهم بالإسلام، وهم قليلون مستخفون، وحدب على رسول الله ﷺ عمّه أبو طالب، ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله، مظهرًا لأمره، لا يردّه عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم[1] من شيء أنكروه عليه، من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمّه أبا طالب قد حدب عليه، وقام دونه، فلم يسلمه لهم، مشـٰى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، عتبة وشيبة: ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب. . . . وأبو سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب فهر. (قال ابن هشام: واسم أبي سفيان صخر).

(١) لا يعتبهم من شيء: أي لا يرضيهم.

قال ابن إسحـٰق: وأبو البختري، واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي، (قال ابن هشام: أبو البختري: العاص بن هشام).

قال ابن إسحـٰق: والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي... وأبو جهل - واسمه عمرو، وكان يكنى أبا الحكم - ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤي... ونُبيه ومنبّه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي... والعاص بن وائل. (قال ابن هشام: العاص بن وائل بن هاشم[1] بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي).

قال ابن إسحـٰق: أو مَنْ مشىٰ منهم [إلى أبي طالب]، فقالوا: يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلّل آبائنا، فإمّا أن تكفّه عنّا، وإمّا أن تخلّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه! فقال لهم أبو طالب قولًا رفيقًا وردَّهم ردًا جميلًا، فانصرفوا عنه»[2].

واستمرّ رسول الله ﷺ في دعوته، ورجعت قريش إلى أبي طالب مرّة ثانية، ولكنهم لم يظفروا بنتجة إلى صالحهم، وذلك لأن أبا طالب قال للرسول هذه المرّة: «اذهب يا ابن أخي، فقُل ما أحببت، والله لا أسلّمك لشيء أبدًا»، والقصّة مشهورة ومعروفة في كل كتب التاريخ.

أبو جهل يُظهِر العداوة للرسول ﷺ

قال ابن إسحـٰق في كتابه «السِّيَر والمغازي»:

«ثم دخل الناس في الإسلام أرسالًا من النساء والرجال حتى فشا ذكر الإسلام وتحدّث به، فلما أسلم هؤلاء النفر[3] وفشا أمرهم بمكّة أعظمت ذلك قريش، وغضبت له، وظهر فيهم لرسول الله ﷺ البغي والحسد، وشخص له منهم رجال فبادوا العداوة، وطلبوا له الخصومة، منهم:

(١) وفي سائر الأصول: هشام.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ٢٦٥.
(٣) إسلام المهاجرون الأوائل.

أبو جهل بن هشام وأصحابه... وأبو لهب، وعبيد بن عبد يغوث، وعمرو بن الطلاطلة، والوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الأسلت، والحضين أو الحضير بن الحارث بن سعيد بن الحجاج، وهو زهير بن أبي أُمَيّة بن المغيرة، والسائب بن صيفي بن عائذ، والأسود بن عبد الأسد، والعاصي بن سعيد، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو العاصي بن هشام، وعقبة بن أبي فقط، وأبو الأصد الهذلي، نطحته أروى[1] فسقط فتقطّع، والحكم بن أبي العاصي، وعديّ بن جبر الثقفي، وزمعة بن الأسود».

ثم يعقب ابن إسحٰق، فيقول: «وكان الذين يؤذونه: أبو لهب، وعقبة بن أبي معيط، والحكم بن أبي العاصي، وعدي بن جبر الثقفي، ورجل آخر»[2].

إلّا أن ابن إسحٰق يقرّر، فيقول: «وكان الذي تنتهي إليه عداوة رسول الله ﷺ، ويجتمع إليه فيها أبو جهل، حسدًا وبغيًا، لما خصّ الله رسوله ﷺ من كرامته»[3] انتهى.

أبو جهل يقتل سُمَيّة (أول شهيدة في الإسلام)

إن دخول الناس في دين محمّد ﷺ أغاظ زعماء قريش الذين أخذوا يتفنّنون بأساليب الاضطهاد والتعذيب لأتباع محمّد ﷺ، وقد قتل أبو جهل سمية؛ إذ ضربها في موضع عفافها، فقد روى لنا اليعقوبي ذلك، فقال:

«وأسلم خلق عظيم وظهر أمرهم، وكثرت عدّتهم، وعاندوا ذوي أرحامهم من المشركين، فأخذت قريش من استضعفت منهم إلى الرجوع عن الإسلام والشتم لرسول الله ﷺ.

فكان ممّن يعذّب في الله عمّار بن ياسر، وياسر أبوه، وسميّة أمّه، حتى قتل أبو جهل سميّة، طعنها في قلبها فماتت، فكانت أوّل شهيدة في الإسلام، وخباب بن الأرتّ وصهيب بن سنان، وأبو فكيهة الأزدي، وعامر بن فهيرة، وبلال بن رباح. وقال خبّاب بن الأرت: يا رسول الله ادعُ لنا، قال: «إنكم لتعجلون، لقد كان الرجل ممّن كان قبلكم يُمشط بأمشاط الحديد، ويُشقّ بالمنشار

(١) أنثى الوعل.
(٢) راجع السير والمغازي لابن إسحٰق ج ٣ ص ١٤٤.
(٣) السِّيَر والمغازي ج ٣ ص ١٤٥.

فلا يردّه ذلك عن دينه، والله ليتمّمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله والذئب على عنزه»، واشتدّ على القوم العذاب ونالهم منه أمرٌ عظيم، فرجع عن الإسلام خمسة نفر، وهم: أبو القيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة...[1]. فروي أنّ فيهم نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: الآية ٢٨] إلى آخر الآية[2].

تعذيب قريش وأبي جهل للمسلمين هو سبب هجرتهم إلى الحبشة

لما رأى النبيّ ﷺ اشتداد أذيّة قريش لبعض المستضعفين من صحابته، أمرهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة تخلّصًا من الشدَّة والعذاب، فهاجر نحو ثلاثة وثمانين رجلًا، وثماني عشر امرأة من رجال المسلمين ونسائهم، وهي الهجرة الأولى[3]. ومن الواضح أن أبا جهل وجماعته كانوا يتصوّرون بأن العذاب سيمنع انتشار الإسلام، وقد وهموا أيّ توهّم، حيث أثبت العكس، فازداد تمسّك المسلمين بدينهم أكثر وأشدّ من ذي قبل.

ولأبي جهل مواقف سيّئة مع المسلمين ونبيّهم الكريم، قبل الهجرة إلى الحبشة، سنذكرها أيضًا في الصفحات القادمة.

قريش وأبي جهل يؤذون الرسول في الصلاة

روى ابن مسعود، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ نصلّي في ظلّ الكعبة، وناسٌ من قريش وأبو جهل قد نحروا جزورًا في ناحية مكّة، فبعثوا بسلاها وطرحوه بين كتفيه وهو ساجد، فجاءت فاطمة فطرحته عنه، فلمّا انصرف قال: «اللّهمّ عليك بقريش وبأبي جهل وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط، قال عبد الله بن مسعود: فلقد رأيتهم قتلى في قليب بدر[4].

أسلوب أبي جهل في التعذيب

ورد في السيرة لابن هشام عن هذا الموضوع، قائلًا: وكان أبو جهل الفاسق، الذي يُغري بهم في رجالٍ من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له

---

(١) بياض في الأصل. (٢) تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني ص ٢٨.
(٣) مختصر تاريخ العرب والمسلمين، ص ٩٦. (٤) أعلام النبوّة ص ١٠٩.

شرفٌ ومنعة، أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خيرٌ منك، لنسفهنّ حلمك، ولنفيّلنّ[1] رأيك، ولنضعن شرفك!! وإن كان تاجرًا قال: والله لنكسرنّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك!! وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به[2].

تشكيك أبي جهل بخبر الإسراء

قال ابن عباس ﷺ، وعائشة ﷺ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لمّا كانت ليلة أُسري به وأصبحت بمكّة، عرفت أن الناس لا يصدّقونني، فقعد ﷺ حزينًا، فمرّ به أبو جهل عدوّ الله، فأتاه فجلس إليه، فقال كالمستهزئ: هل استعذت من شيء! قال: نعم، أسرى بي الله، قال: إلى أين! قال: إلى بيت المقدس، قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا! قال: نعم، قال: أتحدّث قومك بما حدّثتني! قال: نعم، قال: يا معشر بني كعب بن لؤي هلمّوا! فجاؤوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدّث قومك بما حدّثتني! قال: نعم، أسري بي في هذه الليلة... قالوا: إلى أين! قال: إلى بيت المقدس... قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا! قال: نعم، فسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر الصدّيق، فقالوا: هل لك من صاحبك خبر يزعم أنه أُسري به الليلة! قال: أوَ قَدْ!! قالوا: نعم، قال: لقد صدق... قالوا: أتصدّقه! قال: أصدّقه إلى أبعد من ذلك»[3].

أبو جهل يكاتب بعض ملوك العرب في شأن الرسول

رُوي عن حبيب بن مالك: كان ملكًا من ملوك الجاهلية في الشام، وكانت العرب يسمّونه ريحانة قريش، فلما جاء مكتوب أبو جهل إليه لكذا وكذا، ركب حبيب بن مالك ومعه اثنا عشر ألف فارس، ونزل بالأبطح، وهو موضع قريب من مكّة، وخرج أبو جهل إليه وعظماء مكّة بالهدايا من العبيد والحُلَل، فأقعده عن يمينه، وسأله عن محمد ﷺ، فقال: أيّها السيد سَلْ بني هاشم! فقال لهم: ما تقولون في محمّد؟ قالوا: نعرفه من صغره بالأمانة والصدق في القول، فلما بلغ عمره أربعين سنة، جعل يسبّ آلهتنا ويظهر دينًا غير دين آبائنا، فقال حبيب: احضروا محمّدًا، فبعثوا إليه رجلًا، فخرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر

---

(١) لنفيّلن رأيك: أي لنقبّحنه ونخطّئه.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٣٢٠.
(٣) راجع درة الناصحين ص ١٥٠ تأليف عثمان بن الحسن الخوبوي، إسلامبول ١٣٠٨ هـ.

وخديجة ﵂ يبكيان، يقولان: نخاف عليك من سطوة هذا الكافر، أي من قهره، وغلبته، وغضبه!! قال ﵇: لا تخافا عليّ وفوّضا أمري إلى الله. فأقبل أبو بكر الصدّيق [﵁] بحلّة حمراء وعمامة سوداء، فلبسهما رسول الله ﷺ، وخرج حتى وقف بين يدي حبيب وأبو بكر [﵁] عن يمينه وخديجة ﵂ من خلفه، فلمّا رأى النبيّ ﵇، قام الحبيب إكرامًا للنبيّ ﵇، ونصب له كرسيًا من ذهب، وخديجة تدعو وتقول: اللّهمّ انصر محمّدًا، وأوضح حجّته! فلما جلس بين يديه، والنور يتلألأ من وجهه سكت. وتطاولت الأعناق ووقعت الهيبة على الناس، فرفع الحبيب رأسه، وقال: يا محمّد، أنت تعلم أن للأنبياء كلّهم معجزات، ألك معجزة؟ فقال ﵇: ماذا تريد! فقال حبيب: أريد أن تغيب الشمس ويخرج القمر وينزل إلى الأرض وينشقّ نصفين ويدخل تحت إزارك، ويخرج نصفه من كم يمينك، ونصفه من كم شمالك، ثم يجتمعا فوق رأسك، ويشهد لك بالرسالة، ثم يعود إلى السماء قمرًا منيرًا، ثم يغيب وتخرج الشمس بعده وتسير إلى منزلها كأول مرّة!! فقال رسول الله ﷺ: إن فعلت ذلك كلّه أتؤمن بي! قال: نعم بشرط أن تخبرني بما في قلبي، فوثب، أي قام أبو جهل إليه، وقال: أحسنت أيّها السيد لقد قلت وأبلغت، فخرج ﵇ من عنده وصعد إلى جبل أبي قبيس وصلّى ركعتين وبسط يديه يدعو ربّه، فنزل جبرائيل ﵇ ومعه اثنا عشر ألفًا من الملائكة، وبأيديهم رماح، فقال: السلام عليك يا رسول الله، إن الله يقرؤك السلام ويقول حبيبي لا تخف ولا تحزن وأنا معك حيثما كنت، قد ثبت في علمي وجرى في قضائي في الأزل على ما سأل حبيب عنك اليوم، فاذهب إليهم وبلّغ الحجّة وأوضح شأنك وبيّن رسالتك، واعلم أن الله تعالى سخّر لك الشمس والقمر واللّيل والنهار، وإن لحبيب بن مالك بنتًا سطيحة، يعني ساقطة على قفاها، ما لها يدان ولا رجلان، ولا عينان، فأخبره بأن الله تعالى ردّ عليها يديها ورجليها وعينيها، فنزل ﵇ وقد ازداد نورًا وسرورًا، وجبرائيل ﵇ في الهواء، وصُفّت الملائكة في الهواء صفوفًا حتى وقف رسول الله ﵇ عند مقام إبراهيم، وكان ذلك وقت غروب الشمس، فجعلت الشمس تركض ركضًا، أي تسرع حتى غابت، واشتدّت الظلام ثم طلع الفجر بدرًا منيرًا، فلما ارتفع، أشار إليه بأصبعيه فجعل القمر يركض ركضًا حتى نزل إلى الأرض ووقف بين يدي النبيّ ﵇، وهو يرتعد كالسحاب، ثم انشقّ نصفين، ثم دخل تحت ثيابه، وخرج نصفه من كمّه الأيمن، ونصفه من كمّه الأيسر، ثم عاد قمرًا منيرًا، ونادى رافعًا صوته: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّدًا عبده

ورسوله، قد أفلح من صدّقك، وقد خاب من خالفك، ثم عاد إلى السماء قمرًا منيرًا وغاب، ثم عادت الشمس كما كانت أوّل مرة. قال حبيب: بقي لي الشرط، فقال ﷺ: إنّ لك بنتًا سطيحة، وإن الله قد ردَّ عليها جوارحها، فنهض حبيب قائمًا وقال: يا أهل مكّة لا كفر بعد الإيمان، ولا شكّ بعد الإيقان، اعلموا أني أشهد أن لا إلـه إلّا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله، وأسلم معه أصحابه. فقال أبو جهل: يا أيّها السيد، أتؤمن بهذا الساحر إذ رأيت سحره! ثم خرج حبيب إلى الشام مسلمًا ودخل قصره فاستقبلته ابنته قائلة: (أشهد أن لا إلـه إلّا الله وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله)، وقال لها: يا بنتي من أين تعلمين هذه الكلمات! قالت: أتى إليّ في المنام رجل فقال لي: إن أباك قد أسلم، فإن كنت مسلمة فقد رددنا إليك أعضاءك سالمةً، فأسلمت في منامي، وأصبحت كما تراني، فوقع حبيب ساجدًا لله، وشاكرًا لنعمة الإيمان، وازداد يقينًا، ثم حمل حبيب بن مالك على خمسة جمال ذهبًا وفضّة وقماشًا، وأرسلها مع عبيده إلى رسول الله ﷺ، فلما قربوا من مكّة فإذا أبو جهل يصطاد، قال: لمن أنتم؟ قالوا: نحن لحبيب بن مالك نريد رسول الله، فحمل عليهم أبو جهل ليأخذها من أيديهم، فأبَوْا حتى تضاربوا، وقامت الحرب بينهم، فاجتمع أهل مكّة وأعمام النبيّ ﷺ والعبيد يقولون: أهدى حبيب هذا المال إلى محمّد ﷺ، وأبو جهل يقول أهداه إليّ، فقال النبيّ: يا أهل مكّة، أترضون بقولي؟ قالوا: نعم، فقال: نحكم الجمال فلمن تكلّمت يكون له المال، فقال أبو جهل: نؤخّرها إلى الغد، فرضي رسول الله ﷺ، فأتى أبو جهل إلى بيت الأصنام، فبات تلك الليلة عندها فقرّب لها قربانًا، ودعا الأصنام وتضرّع إلى الصباح، فلما أسفر الصباح أقبل أهل مكّة بأجمعهم، وأقبل رسول الله ﷺ وأعمامه، فأقبل أبو جهل ودار حول الجمال يقول: انطقن باللات والعزى ومنات، فلم يزل على هذا حتى هجرت الشمس، أي ارتفعت، فلم يسمع منهنّ شيء، حتى قال أهل مكّة: حسبك يا أبا جهل، فتقدم أنت يا محمد، فأقبل إليهنّ فقال: أيّتها المخلوقة لله تعالـى، انطقي بقدرة الله تعالـى، فقام واحد منها، وقال رافع صوته: يا قوم نحن هدية من حبيب بن مالك إلى محمّد ﷺ، فأخذ زمامها إلى جبل أبي قبيس، فأخرج الذهب والفضّة وجعلها تلاًّ، ثم قال: كوني ترابًا، فصارت كذلك إلى اليوم[1].

---

(١) درّة الناصحين ص ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢.

إنّ خلاصة رموز الرواية المذكورة، في نظرنا، بشخوصها، ووقائعها، وما فيها من أوصاف، تشير إلى اتّصاف أبو جهل باستبطان الغدر والشرّ للرسول ﷺ، وعدم الإيمان به، وإنكار معجزاته الواضحة، وتجاهل رسالته، بالرغم من معرفته لكمال الرسول ﷺ وصدقه وأمانته وصراحته، تمام المعرفة، وأنه أهلٌ للخير والفضيلة والمروءة... الخ.

تدبير أبي جهل الخائب في هلاك الرسول ﷺ

كان أبو جهل دائم التفكير، شاغلًا باله في كل الأوقات واللحظات، للتخلّص من محمّد بأيّة وسيلة، بعد ظهور أمره، فأخذ يخطّط ويدبّر ويحسب مختلف الحسابات لقتله أو الغدر به أو ما شاكل من هذه الأساليب الفاضحة.

فقد ورد في (درة الناصحين) قصة لطيفة تستعرض لنا صورة لئيمة عن أبي جهل للغدر بمحمد ﷺ:

(قال الشيخ أبو حفص عمر ابن حسن في القصة: لما ظهر شأن النبيّ عليه السلام، أخذ أبو جهل في تدبير هلاكه، فجمع رعاياه على أن يحفر بئرًا، فحفر وستر رأسه بالحشيش والتراب الضعيف، وأمر عبيده أن ينظروا، فإذا جاء محمّد ووقع في البئر أن يحثو عليه التراب، فلما انتهى خبر مرضه إلى النبيّ عليه السلام، قام من حسن خلقه، فلما بلغ قريبًا من باب داره جاء جبرائيل عليه السلام فأخبره بذلك ومنعه عن الدخول، فرجع النبيّ عليه السلام، فأخبر أبو جهل بذلك، فقام من فراشه مسرعًا وعدا خلف النبيّ عليه السلام، ليقول له: لِمَ رجعت، ونسي البئر فوقع فيه، فادلوا إليه حبلًا فلم يبلغ إليه، فجمعوا الحبال والأطناب، وكلما ازدادوا حبلًا ازداد سفلًا، فنادى أبو جهل من البئر: امضوا إلى محمّد وائتوني به، فإنه لا يخلّصني أحد دونه! فسألوه الحضور عنده، فحضر إلى رأس البئر، وقال له: إن أخرجتك من هذه البئر أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم، فمدّ يده عليه السلام، وأمسك بيد أبي جهل فأخرجه من البئر، فلما صعد قال: ما أسحرك يا محمد، وهذه من معجزات النبيّ عليه السلام، ولذا قال عليه الصّلاة والسلام: (من حفر بئرًا لأخيه المسلم فقد وقع فيه)[1]...

(١) درة الناصحين ص ٢٨٢.

مجيء أبي جهل مع أشراف قريش إلى أبي طالب

قال الشيخ أبو حفص: إن أبا جهل وأشراف قريش جاؤوا إلى أبي طالب عمّ النبيّ ﷺ، فقالوا: إنّ ابن أخيك هذا أظهر دينًا خلاف ما كنّا عليه، وهو يسبّ آلهتنا ونحن نعفو عنه شرفًا لك، فإن ترك ما جرى عليه من الخلاف، وعاد إلى الوفاق، وإلا لَمْ يبق بيننا إلّا السيف، فقال لهم أبو طالب: اقعدوا حتى أستدعيه وأستخبره وأبصره ما يجيبني، فدعاه فحضر، وكان أبو طالب جالسًا على سريره متّكئًا عليه، فجاء النبيّ ﷺ إلى هؤلاء الرؤساء من قريش حتى بلغ السرير، فصعد، واستند بجنب أبي طالب، فقالوا لأبي طالب: أما رأيته كيف ترك حرمتك، وخطى أعناقنا، وقعد بجنبك على سريرك، فقال: إن كان فيما يقول ويدّعيه صادقًا، فاليوم قعد على سرير، وغدًا يقعد على أعناقكم! فقالوا: إن كان صادقًا إلى دعواه!! فقال له: ليجيء بحجّة قدامك حتى نُقرّه ونصدّقه، فقال أبو طالب: يا ابن أخي ما تقول فيما قالوا؟ قال ﷺ: تمنّوا ما شئتم! وكان في صحن الدار صخرةً، فاجتمعت آراؤهم على أن يخرج من هذه الصخرة شجرة تنشقّ رأسها نصفين يبلغ أحدهن المشرق والآخر المغرب، فاشتغل النبيّ ﷺ بالدعاء، فنزل جبرائيل ﷺ، وقال: إن الله تعالى يقول: منذ خلقتُ هذه الصخرة علمتُ أنهم يطلبون منك بهذه المعجزة وخلقت تلك الشجرة في جوفها، فأشار ﷺ، فانشقّت تلك الصخرة نصفين وخرجت منها تلك الشجرة، وارتفعت حتى بلغت عنان السماء، على حسب ما طلبوا منه، فقالوا: ما أحسن ما جئت به ولكن لا نؤمن بك حتى تردّ الشجرة إلى الصخرة كما كانت، فتفكّر النبيّ ﷺ، فنزل جبرائيل ﷺ وقال: إن الله يقرؤك السلام ويقول: الدعاء منك والإجابة مني، فدعا ﷺ، فرجعت الشجرة إلى حالها، فقاموا من هذه الموضع، فقالوا: ما أسحرك يا محمّد، ما رأينا قطّ مثلك[1].

إن ما يدور في إطار هذه القصة وما سبقها، هو الكشف عن تصميم هؤلاء النفر بمعارضة رسالة محمد ﷺ ومعجزاته، بما فيهم أبو جهل، الذي يشكّل بدوره أحد أبطال القصّة أو الرواية، بل أهمّ ركن فيها، وهذا دليل على ما كان يشحنه أبو جهل لمحمّد ﷺ من حسد وكراهية ولؤم، وحتى القصص الموضوعة

---

(١) درة الناصحين ص ٢٨٣.

بدورها تساهم لإظهار هذه الصفات الخبيثة في طريقة معاملة أبو جهل السيّئة للرسول ﷺ، وبالتالي كشفه على حقيقته الفاضحة.

دور أبي جهل في حصار قريش لرسول الله وخبر الصحيفة[1]

وصل الحدّ بزعماء قريش وأبو جهل التصميم والعزم على قتل رسول الله ﷺ للتخلّص منه، ولكنهم خافوا من جانب بني هاشم، فلجأوا إلى أمر آخر لعلّه فيه منفذًا يعينهم على تحقيق مآربهم، وهو عقد الاتفاق العام بينهم على مقاطعة بني هاشم، بما فيهم رسول الله ﷺ.

فيقول اليعقوبي:

«وهمّت قريش بقتل رسول الله، وأجمع ملأها على ذلك، وبلغ أبا طالب، فقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أُغيَّب في التراب دفينا
ودعوتني وزعمت أنك ناصح ... ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينًا قد علمت بأنه ... من خير أديان البرية دينا

فلمّا علمت قريش أنهم لا يقدرون على قتل رسول الله ﷺ، وأن أبا طالب لا يسلّمه، وسمعت بهذا من قول أبي طالب، كتبت الصحيفة القاطعة الظالمة، ألّا يبايعوا أحدًا من بني هاشم، ولا يناكحوهم ولا يعاملوهم حتى يدفعوا إليهم محمّدًا فيقتلوه، وتعاقدوا على ذلك وتعاهدوا، وختموا على الصحيفة بثمانين خاتمًا، وكان الذي كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، فشلّت يده... ثم حصرت قريش رسول الله ﷺ وأهل بيته من بني هاشم وبني المطّلب ابن عبد مناف في الشّعب الذي يقال له شعب بني هاشم بعد ستّ سنين من مبعثه، فأقام ومعه جميع بني هاشم وبني المطّلب في الشّعب ثلاث سنين، حتى أنفق رسول الله ماله، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة مالها، وصاروا إلى حدّ الضرّ والفاقة، ثم نزل جبريل على رسول الله ﷺ، فقال: إنّ الله بعث الأرضة على صحيفة قريش فأكلت كلّ ما فيها من قطيعة وظلم إلّا المواضع التي

---

(١) انظر السّير والمغازي ج ٣ ص ١٥٤ ـ ١٦٧.

فيها ذكر الله، فخبر رسول الله أبا طالب بذلك، ثم خرج أبو طالب ومعه رسول الله ﷺ وأهل بيته حتى صار إلى الكعبة، فجلس بفنائها وأقبلت قريش من كل أوب، فقالوا: لقد آن لك يا أبا طالب أن تذكر العهد وتشتاق إلى قومك وتدع اللجاج في ابن أخيك! فقال لهم: يا قوم احضروا صحيفتكم، فلعلّنا أن نجد فرجًا وسببًا لصلة الأرحام وترك القطيعة،... وأحضروها وهي بخواتيمهم، فقال: هذه صحيفتكم على العهد لم تنكروها! قالوا: نعم، قال: فهل أحدثتم فيها حدثًا؟ قالوا: اللّهمّ لا، قال: فإن محمّدًا أعلمني عن ربّه أنّه بعث الأرضة فأكلت كلّ ما فيها إلّا ذكر الله، أفرأيتم إن كان صادقًا ماذا تصنعون؟ قالوا: نكفّ ونمسك، قال: فإن كان كاذبًا دفعته إليكم تقتلونه، قالوا: قد أنصفت وأجملت! وفُضّت الصحيفة فإذا الأرضة قد أكلت كلّ ما فيها إلّا مواضع بسم الله، عزّ وجلّ،... فقالوا: ما هذا إلّا سحر، وما كنّا قطّ أجدّ في تكذيبه منّا ساعتنا هذه. وأسلم يومئذٍ خلق من الناس عظيم، وخرج بنو هاشم وبنو المطلب فلم يرجعوا إليه[1]، هذه هي قصة الصحيفة وخبر حصار قريش لرسول الله ﷺ كما رواها اليعقوبي في تاريخه، والذي بيّن فيها ما لاقاه الرسول ﷺ وصحبه وأقرباءه من جهد ومشقّة من أجل إعلاء كلمة الحقّ، دون المبالاة بما يصنعه أبو جهل وبقيّة رؤساء قريش من عراقيل وخطط مانعة ضدّهم.

أمّا تسليط الضوء على أدوار أبو جهل الوضيعة في هذه المقاطعة الظالمة لمحمّد ﷺ وصحبه الكرام، فنقتبسه من كتاب «السّيَر والمغازي» لابن إسحٰق، ولا بدّ والحالة هذه أن نمرّ على خبر الصحيفة برواية إسحٰق، ثم الدخول في التفاصيل، فقد ورد:

«نا أحمد، نا يونس عن ابن إسحٰق قال: فلما مضىٰ رسول الله ﷺ على الذي بُعِث به، وقامت بنو هاشم، وبنو المطلب دونه، وأبَوْا أن يسلّموه وهم من خلافه على مثل ما قومهم عليه، إلّا أنهم أنفوا أن يستذلّوا ويسلّموا أخاهم لمن فارقه من قومه، فلما فعلت ذلك بنو هاشم، وبنو المطّلب، وعرفت قريش أنه لا سبيل إلى محمّد ﷺ معهم، اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني المطلب ألّا يناكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعونهم ولا يبتاعون منهم، فكتبوا صحيفة في ذلك، وكتب في الصحيفة عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن

(١) راجع تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني ص ٣١ ـ ٣٢.

عبد الدار، وعلّقوها بالكعبة، ثم عدوا على من أسلم فأوثقوهم، وآذوهم، واشتدّ البلاء عليهم، وعَظُمت الفتنة فيهم وزلزلوا زلزالًا شديدًا، فخرج أبو لهب، عدوّ الله، يظاهر عليهم قريش، وقال: قد نصرت اللات والعزّى يا معشر قريش، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المَسَد: الآية ١] إلى آخرها».

«نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: وقالت صفية بنت عبد المطلب:

ألا مَن مبلّغ عني قريشًا … ففيم الأمر فينا والإمار
لنا الأمر المقدم قد علمتم … ولم توقد لنا بالغدر نار
مجازيل العطا إذا وهبنا … وأيسار إذا ابتغى اليسار
وكل مناقب الخير فينا … وبعض الأمر منقصه وعار
فلا والعاديات[1] غداة جمع … بأيديها إذا سطع الغبار
لنصطبرنّ لأمر الله حتى … يبيّن ربنا أين القرار

وقال أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذات نأيها … لؤيًا وخصا من لؤي بن كعب
ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّدًا … نبيًا كموسى خطّ في أول الكتبِ
وأن عليه في العبادة محبّة … ولا خير فيمن خصّه الله بالخب
وأن الذي أضفتم في كتابكم … لكم كائنًا نحسًا كراغبة السقب
أفيقوا أفيقوا قبل أن تحفر الثرىٰ … ويصبح من لم يجن ذنبًا كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الغواة وتقطعوا … أياصرنا بعد المودّة والقرب
وتستجلبوا حربًا عوانًا وربما … أمر على من ذاقه حلب الحرب
ولسنا وربّ البيت نسلم أحمدا … على الحال من عضّ الزمان ولا كرب
أليس أبونا هاشم شدّ أزره … وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
ولسنا نملّ الحرب حتى تملّنا … ولا نتشكى ما ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفاظ والنهى … إذا طار أرواح الكماة من الرعب

---

(١) وفي نسخة: العارات.

وقال أبو طالب:

ألا أبــلغــا لــؤيًــا رســالــة ... بـحقّ وما تـغـنـي رسالـة مـرسـل
بني عمّنا الأدنين تيمًا نخصّهم ... وأخوتنا من عبد شمس ونوفل
أظاهـرتـم قـومًـا علـينـا ولايـة ... وأمـر غـوي مـن غـواه وجـهـل
يـقـولـون إن قـد قـتـلـنـا مـحـمّـدًا ... أقـرّت نـواصـي هـاشـم بـالـتـذلّل
كذبتم وربّ الهدي[1] تدمى نحورها ... بـمـكّـة والـركـن الـعـتـيـق الـمـقـبـل
تناولونه أو تعطلون لقتله صوارم ... تـفـري كـل عـظـم ومـفـصـل
وتـدعـو بـويـلٍ أنـتـم إن ظـلـمـتـم ... مـقـابـلـه فـي يـوم أغـرّ مـحـجـل
فمهلًا ولما تنجح الحرب بكرها ... ويـأتـي تـمـامًـا أو بـآخـر مـعـجـل
وأنـا مـتـى مـا نـمـرهـا بـسـيـوفـنـا ... تجلجل[2] وتعرك من نشا بكلكل
ويـعـلـو ربـيـع الأبـطـحـيـن مـحـمـد ... على ربوةٍ من رأس عنقاء عيكل[3]
ويـأوي إلـيـهـا هـاشـم إن هـاشـمًـا ... عـرانـيـن كـعـب آخـر بـعـد أوّل
فـإن كـنـتـم تـرجـون قـتـل مـحـمـد ... فـرومـوا بـمـا جـمـعـتـم نـقـل يَـذْبَـل
فـإنـا سـنـمـنـعـه بـكـل طـمـرة[4] ... وذي مـيـعـة نـهـد الـمـراكـل هـيـكـل
وكـل رديـنـي طـمـى كـعـوبـه ... وعضب[5] كما ماضي الغمامة مفصل
بـأيـمـان شـمّ مـن ذوابـة هـاشـم ... مغاوير بالأبطال في كل محفل

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: «فلما سمعت قريش بذلك، ورأوا منه الجدّ وأيِسُوا منه، فأبدوا لبني عبد المطّلب الجفاء، فانطلق بهم أبو طالب فقاموا بين أستار الكعبة، فدعوا الله على ظلم قومهم لهم، وفي قطيعتهم أرحامهم، واجتماعهم على محاربتهم، وبتأوّلهم سفك دمائهم، فقال أبو طالب: اللّهمّ إن أبىٰ قومنا إلّا النصر علينا، فعجّل نصرنا وحِلْ بينهم وبين قتل ابن أخي، ثم أقبل إلى جمع قريش وهم ينظرون إليه وإلى أصحابه، فقال أبو طالب: ندعو بربّ هذا

---

(١) الهدي: ما يهدى إلى البيت الحرام من النعم لتنحر.
(٢) وفي نسخة: تخلخل.
(٣) العنقاء: طائر أسطوري، والعيكل: ظهر الكثيب أو العظيم من الرمال.
(٤) الطحرة: الفرس الجواد. (٥) العضب: الحسام القاطع.

البيت على القاطع المنتهك للمحارم، والله لتنتهن عن الذين تريدون، أو لينزلنّ الله بكم في قطيعتنا بعض الذي تكرهون، فأجابوه: إنكم يا بني عبد المطّلب لا صلح بيننا وبينكم ولا رحم إلّا على قتل هذا الصبي السفيه.

ثم عمد أبو طالب، فأدخل الشعب ابن أخيه وبني أبيه ومن اتّبعهم من بين مؤمن دخل لنصرة الله ونصرة رسول الله ﷺ، ومن بين مشرك يحمي، فدخلوا شعبهم، وهو شعب في ناحية من مكّة، فلما قَدِم عمرو ـ عمرو بن العاص ـ وعبد الله بن أبي ربيعة إلى قريش، وأخبروهم بالذي قال للنجاشي لمحمد ﷺ وأصحابه، اشتدّ وجدهم، وآذوا النبيّ وأصحابه أذىً شديدًا وضربوهم في كل طريق، وحصروهم في شعبهم وقطعوا عنهم المادة من الأسواق، فلم يدعو أحدًا من الناس يدخل عليهم طعامًا ولا شيئًا مما يرفق بهم، وكانوا يخرجون من الشعب إلى الموسم، وكانت قريش تبادرهم إلى الأسواق، فيشترونها ويغلّونها عليهم، ونادى منادي الوليد بن المغيرة في قريش: أيّما رجل وجدتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه.

نا يونس عن عيسى بن عبد الله التميمي عن الربيع بن أنس، قال: نزلت في الوليد بن المغيرة: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القَلَم: الآية ١٣]، قال: فاحش مع ذلك لئيم.

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق في حديثه عن الوليد: فمن رأيتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه، وحولوا بينهم وبينه، ومن لم يكن عنده نقد فليشترِ وعليّ النقد، ففعلوا ذلك ثلاث سنين حتى بلغ القوم الجهد الشديد، وحتى سمعوا أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب، وكان المشركون يكرهون ما فيه بنو هاشم من البلاء، حتى كره عامّة قريش ما أصاب بني هاشم، وأظهروا لكراهيتهم لصحيفتهم القاطعة الظالمة الذي تعاهدوا فيها على محمد ﷺ ورهطه، وحتى أراد رجالٌ منهم أن يبرءوا منها، وكان أبو طالب يخاف أن يغتالوا رسول الله ﷺ ليلًا أو سرًا، فكان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه أو رقد بعثه أبو طالب عن[1] فراشه وجعله بينه وبين بنيه خشية أن يقتلوه، وتصبح قريش فيسمعوا من الليل أصوات صبيان بني هاشم الذين في الشعب يتضاغون من الجوع، فإذا

(١) وفي نسخة: على.

أصبحوا جلسوا عند الكعبة فيسأل بعضهم بعضًا، فيقول الرجل لصاحبه: كيف بات أهلك البارحة؟ فيقول: بخير، فيقول: لكن إخوانكم هؤلاء الذين في الشّعب بات صبيانهم يتضاغون من الجوع حتى أصبحوا، فمنهم من يعجبه ما يلقى محمد ﷺ ورهطه، ومنهم من يكره ذلك، فقال أبو طالب، وهو يذكر ما طلبوا من محمّد ﷺ وما حشدوهم في كل موسم يمنعونهم أن يبتاعوا بعض ما يصلحهم، وذكر في الشعر:

ألا من لَهَمٍ آخر الليل معتم ... طواني وأخرى النجم لم يتقحم
طواني وقد نامت عيونٌ كثيرةٌ ... وسائر أخرى ساهر لم ينوم[1]
لأحلام أقوام أرادوا محمّدًا ... بسوءٍ ومن لا يتقي الظلم يُظلم
سعوا سفهًا واقتادوا سوء ... رأيهم على قائلٍ من رأيهم غير محكم
رجا أمور لم ينالوا نظامها ... وإن حشدوا في كل نفرٍ وموسم
يرجون أن نسخا بقتل محمّد ... ولم تختضب سمر العوالي من الدَّم
يرجون منا خطّة[2] دون نيلها ... ضراب وطعن بالوشيج المقوّم
كذبتم وبيت الله لا تقتلونه ... جماجم تلقى بالحطيم وزمزم
وتقطع أرحام وتنسى[3] حليلة ... حليلها ونغشًا محرّمًا بعد محرّم
وينهض قوم في الدروع إليكم ... يذبون عن أحسابهم كل مجرم

«نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق: فأقامت قريش على ذلك من أمرهم في بني هاشم وبني المطّلب سنتين أو ثلاثًا، حتى جهد القوم جهدًا شديدًا لا يصل إليهم شيء إلا سوءًا، أو مستخفًا ممن أراد صلتهم من قريش، فبلغني أن حكيم بن حزام خرج يومًا ومعه إنسان يحمل طعامًا إلى عمّته خديجة ابنة خويلد، وهي تحت لواء رسول الله ﷺ، ومعه في الشعب، إذ لقيه أبو جهل، فقال: تذهب بالطعام إلى بني هاشم! والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك عند قريش! فقال له أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد: تمنعه أن يرسل إلى عمّته بطعام كان لها عنده، فأبىٰ أبو جهل أن يدعه، فقام إليه أبو البختري بساق بعير فشجّه ووطئه وطئًا شديدًا، وحمزة بن عبد المطلب قريبًا يرى ذلك، وهم يكرهون

---

(١) وفي نسخة: تنوم.
(٢) وفي نسخة: ساخطة.
(٣) وفي نسخة: وتسبي.

أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم، فقال أبو البختري بن هاشم في ذلك:

ذق يا أبا جهل لقيت غمًّا   كذلك الجهل يكون نمّا
سوف ترى عودي إن ألما   كذلك اللوم يعود ذمّا
تعلم أنّا نفرج المهما   ونمنع الأبلج أن يَطما

«نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: ثم إنّ الله عزّ وجلّ برحمته أرسل على صحيفة قريش التي كتبوا فيها تظاهرهم على بني هاشم الأرضة، فلم تدع فيها اسم هو لله عزّ وجلّ إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، فأخبر الله عزّ وجلّ بذلك رسول الله ﷺ، فأخبر أبا طالب، فقال أبو طالب: يا ابن أخي من حدّثك هذا، وليس يدخل إلينا أحد ولا تخرج أنت إلى أحد، ولست في نفسي من أهل الكذب!! فقال له رسول الله ﷺ: أخبرني ربّي هذا، فقال له عمّه: إن ربّك لحق، وأنا أشهد أنك صادق، فجمع أبو طالب رهطه ولم يخبرهم بما أخبره به رسول الله ﷺ كراهية أن يفشوا ذلك الخبر، فيبلغ المشركين، فيحتالوا للصحيفة الخبث والمكر، فانطلق أبو طالب برهطه حتى دخلوا المسجد، والمشركون من قريش في ظلّ الكعبة، فلما أبصروه تباشروا به، وظنّوا أن الحصر والبلاء حملهم على أن يدفعوا إليهم رسول الله ﷺ فيقتلوه، فلما انتهى إليهم أبو طالب ورهطه رحّبوا بهم، وقالوا: قد آن لك أن تطيب نفسك عن قتل رجل، في قتله صلاحكم وجماعتكم، وفي حياته فرقتكم وفسادكم! فقال أبو طالب: قد جئتكم في أمرٍ لعلّه يكون فيه صلاحٌ وجماعة، فاقبلوا ذلك منّا، هلمّوا إلى صحيفتكم التي فيها تظاهركم علينا، فجاؤوا بها، ولا يشكّون إلّا أنهم سيدفعون رسول الله ﷺ إليهم إذا نشروها، فلما جاءوا بصحيفتهم، قال أبو طالب: صحيفتكم بيني وبينكم، وإن ابن أخي قد خبرني ـ ولم يكذبني ـ أن الله عزّ وجلّ قد بعث على صحيفتكم الأرضة، فلم تدع لله فيها اسمًا إلّا أكلته وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، فإن كان كاذبًا فلكم عليّ أن أدفعه إليكم تقتلونه، وإن كان صادقًا فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ فأخذ عليهم المواثيق، وأخذوا عليه، فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، وكانوا هم بالغدر أولى منهم، واستشر أبو طالب وأصحابه، وقالوا: أيُّنا أولى بالسحر والقطيعة والبهتان؟ فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وهشام بن عمرو، أخو عامر بن لؤي بن حارثة، فقالوا: نحن براء من

هذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نمالىء أحدًا في فساد أنفسنا وأشرافنا، وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش، فخرج أقوام من شعبهم وقد أصابهم المهد الشديد[1]، فقال أبو طالب في ذلك من أمر محمد ﷺ وما أرادوا من قتله:

تطاول ليلي بهمٍّ وصبٍّ ... ودمع كسح للسقاء السرب
للعب قصي بأحلامها ... وهل يرجع الحلم بعد اللعب
ونفي قصي بني هاشم ... كنفي الطهاةِ لطاف الحطب
وقول لأحمد أنت أمره ... خلوف الحديث ضعيف النسب
وإن كان أحمد قد جاءهم ... بحقٍّ ولم يأتهم بالكذب
على أن إخوتنا وازروا ... بني هاشم وبني المطّلب
هما أَخَوَانِ كعظم اليمين ... أمرّ علينا كعقد الكرب
فيا لقصيّ ألم تخبروا بما ... قد مضى من شؤون العرب
فلا تمسكن بأيديكم ... بعد الأنوف بعجب الذنب
علام علامَ تلافيتم ... بأمر مُزاح وحلم عزب
ورمتم بأحمد ما رمتم ... على الأصرات وقرب النسب
فأنى وما حج من راكبٍ ... لكعبة مكّة ذات الحجب
تنالون أحمدًا وتصطلوا ... طبّات الرماح وحدّ القضب
وتغترفوا بين أبياتكم ... صدور العوالي وحبل عُصب
تراهن من بين صافي السبيب ... قصير الحزام طويل اللبب
وجرداء كالطير سمحوجة ... طواها المقانع بعد الحلب
عليها صناديد من هاشم ... هم الأنجبون مع المنتجب

---

(١) ورد في هامش ج ٣ ص ١٦٢ التعليق الآتي على هذه النقطة: يفهم القارئ أن الحصار قد انتهى بهذه الحادثة، لكن ابن إسحٰق يتابع الحديث موحيًا بأن الحصار قد استمرّ، ومن فحص بقية الخبر يبدو أن هذه البقية تشكل متن رواية جديدة، وعلى هذا نرى بأن ابن إسحٰق كان يدمج الروايات، انتهى.

وقال أبو طالب في شأن الصحيفة حين رأى قومه لا يتناهون، وقد رأوا فيها العلم من العلم ما رأوا:

ألا من لهم آخر الليل منصب ... وشعب العصا من قومك المتشعّب
وحرب أبينا من لؤي بن غالب ... متى ما تزاحمها الصحيفة تحرب
إذا ما مشير قام فيها بخطةٍ ... الذؤابة ذنبًا وليس بمذنب
وما ذنب من يدعو إلى البرّ والتُّقى ... ولم يستطع أن يرأب الشعب يأرب
وقد جربوا فيما مضى غبّ أمرهم ... وما عالم أمرًا كمن لم يجرب
وقد كان في أمر الصحيفة عبرةً ... متى ما يخبر غائب القوم يعجب
محى الله منها كفرهم وعقوقهم ... وما نقموا من باطل الحق معرب
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلًا ... ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب
وأمسى ابن عبد الله فينا مصدقًا ... على سخط من قومنا غير معقب
فلا تحسبوا يا مسلمين محمّدًا ... لذي عربة منّا ولا متغرب
ستمنعه منا يدٌ هاشمية ... مركبها في الناس خير مركب

فلما باداهم أبو طالب بالعداوة، وباداهم بالحرب، عدت قريش على من أسلم منهم فأوثقوه وآذوه واشتدّ البلاء عليهم، وعَظُمت الفتنة فيهم، وزلزلوا زلزالًا شديدًا، وعدت بنو جمح على عثمان بن مظعون، وفرّ أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم إلى أبي طالب ليمنعه، وكان خاله، فجاءت بنو مخزوم ليأخذوه، فمنعهم، فقالوا: يا أبا طالب منعتنا ابن أخيك، أتمنع منّا ابن أخينا؟ فقال أبو طالب: أمنع ابن أختي مما أمنع ابن أخي، فقال أبو لهب ـ ولم يتكلّم بكلام خير قط، ليس يومئذٍ ـ: صدق أبو طالب لا يسلّمه إليكم، فطمع فيه أبو طالب حين سمع منه ما سمع، ورجا نصره، والقيام معه، فقال شعرًا استجلبه بذلك:

وإن امرءًا أبو عتيبة عمّه ... لفي روضة من أن يسأم المظالما
أقول له وأين مني نصيحتي ... أبا معتب ثبت سوادك قائما
ولا تقبلنّ الدهر ما عشت خطة ... تنسب بها لما[1] هبطت المواسما

(١) في حاشية الأصل: أيما، وفي ابن هشام ـ الروض: ٢/ ١٢١ (إما).

وحارب فإن الحرب نصف ولن ترىٰ أخا الحرب يعطي الضَّيم إلا مسالما
وولي سبيل العجز غيرك منهم فإنك لن تلحق على العجز لازما

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: ثم إنه قام في نقض الصحيفة، التي تكاتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب نفرٌ من قريش، ولم يبل أحد فيها بلاء أحسن بلاء من هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وذلك أنه كان ابن نضلة بن هشام بن عبد مناف لأمّه، وكان عمر ونضلة أخوين لأمّ، وكان هشام لبني هاشم واصلًا، وكان ذا شرف في قومه، وكان فيما بلغني يأتي بني المغيرة وبني هاشم وبني المطلب في الشّعب ليلًا، قد أوقر حملًا طعامًا، حتى إذا أقبله[1] في الشعب حلّ خطامه من رأسه ثم ضرب جنبه، فدخل الشعب عليهم، ويأتي به قد أوقره برًّا أو بزًّا[2]، فيفعل به مثل ذلك.

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت أمّه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال لزهير: قد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وإخوانك حيث قد علمت لا يباعون ولا يُباع[3] منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم، ولا يأمنون ولا يؤمن عليهم، أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك فما أصنع أنا رجل واحد؟ قال: فقال: قد وجدت ثانيًا، قال: ومن هو؟ قال: أنا أقوم معك، فقال له زهير: أبغنا ثالثًا! قال: وذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مطعم قد رضيت أن تهلك بطن من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافقٌ عليه، أمَا والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنّهم إليهم سراعًا منكم، فقال: ويحك فما أصنع إنما أنا رجل واحد؟! فقال: قد وجدت ثانيًا، قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال: فابغنا ثالثًا، قال: قد فعلت، قال: ومن هو؟ قال: زهير بن أبي أميّة، قال: فابغنا رابعًا يتكلّم معنا، قال: فذهب إلى أبي البختري بن هشام فذكر قرابتهم وحقّهم، فقال: هل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، المطعم بن عدي، وزهير بن أبي أميّة، فقال:

---

(١) وفي نسخة: أقبل به.
(٢) كذا في الأصل، وعند ابن هشام، ولعل الأصح أن يكون تمرًا.
(٣) وفي نسخة: يبتاع.

ابغنا خامسًا، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلّمه، وذكر له قرابتهم وحقّهم، فقال له زمعة: هل معك على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ فقال: نعم، ثم سمّى له القوم، فتواعد عند خطم الجحون ليلًا بأعلى مكّة، فاجتمعوا هناك وأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، فقال زهير: أنا أبدأ فأكون أوّلكم.

فلما أصبحوا غدوا على أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أميّة في حلّة له فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكّة أنأكل الطعام ونشرب الشراب، ونلبس الثياب، وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى لا يباعون ولا يُباع[1] منهم، ولا ينكحون ولا يُنكح إليهم، والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا، حتى تشقّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة!!

فقال أبو جهل: كذبت والله ـ وهو في ناحية المسجد ـ لا تشقّ هذه الصحيفة!!

فقال زمعة بن الأسود: بل أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حين كُتبت!!

فقال أبو البختري: صدق زمعة بن الأسود، لا نرضى بما كتب فيها ولا نعرفه.

فقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله عزّ وجلّ منها ومما كُتِب فيها.

وقال هشام بن عمرو مثل ما قالوا في نقضها وردّها...

فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل تشوّر فيه ـ يعني بغير هذا المكان ـ وأبو طالب جالس في ناحية المسجد يرى ما يصنع القوم، ثم إن المطعم بن عدي قام إلى الصحيفة فشقّها فوجد الأرضة قد أكلها[2] إلّا باسمك اللّهمّ، وكان الذي كتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار فشلّت يده فيما يزعمون، والله أعلم.

فلما مزقت وبطل ما فيها، قال أبو طالب في ذلك مما كان في أمر أولئك النفر في نقضها يمدحهم:

ألَا هل أتى الأعداء رأفة ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود

---

(١) وفي نسخة أخرى: يبتاع.

(٢) وفي نسخة: قد أكلتها.

فيخبرهم أن الصحيفة مُزِّقت وأن كل ما لم يرضه الله مفسد
تداعى لها إفكٌ وسحر مجمع ولم يلف سحرًا آخر الدهر يصعد
تداعى لها من ليس فيها بقربة فطائرها في وسطها يتردّد
ألم تكُ حقًّا وقعة صيلمية ليقطع فيها ساعد ومقلّد
ويظعن أهل ماكثون فيهربوا فرائصهم من خشية الموت ترعد[1]

أبو جهل وزعماء قريش يكيدون للمهاجرين في الحبشة

يستشفّ من الأخبار التاريخية المتعلقة بموضوع هجرة المسلمين إلى الحبشة، أن زعماء قريش [بما فيهم أبو جهل بالتأكيد] انزعجوا غاية الانزعاج من خبر استقرار المهاجرين في الحبشة، ومعرفتهم باحترام النجاشي لوفادتهم وإكرامهم، وخوفًا من مغبّة هذا الأمر الصعب على زعماء قريش، حاولوا إيقاع الأذى بالمسلمين وهم في ديار الهجرة، وتغيير قلب النجاشي عليهم، وقد أرسلوا إلى هناك من يقوم بهذه المهمة، ولكن هذه المهمة فشلت وفضحت نفسها بنفسها، فقد أشار كتاب «السِّيَر والمغازي» عن الموضوع، فورد فيه ما نصّه:

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: وقد كان عمارة بن الوليد بن المغيرة وعمرو بن العاص بعد مبعث رسول الله ﷺ، ومشي قريش بعُمارة إلى أبي طالب، قد خرجا تاجرين إلى أرض الحبشة، وكانت لقريش ملجأ ووجهًا، وهما على شركهما، وكلاهما كان شاعرًا غازيًا فاتكًا، وكان عمارة رجلًا جميلًا وسيمًا، يفتن النساء، صاحب محادثة، فركب البحر، ومع عمرو امرأته حتى إذا سار في البحر لياليًا أصابا من خمر معهما، فلما انتشى عمارة بن الوليد قال لامرأة عمرو: قبّليني، فقال عمرو: قبّلي ابن عمك، فقبَّلته، فألقاها عمارة بن الوليد فجعل يريدها عن نفسه، فامتنعت منه ثم إن عمرًا قعد على منجاف[2] السفينة يبول فدفعه عمارة في البحر، فلما وقع فيه سبح حتى أخذ بمنجاف السفينة، فقال له عمارة: أمَا والله لو عرفت يا عمرو إنك تسبح ما طرحتك، ولكن كنت أظنك لا تحسن

(١) انظر: الروض ٢/ ١٢٤، فرواية ابن هشام تتفاوت مع هذه طولًا ومعنىً.
(٢) قيل: بأن المنجاف: هو سكان السفينة أي ذنبها الذي تعدل به. انظر: النهاية لابن الأثير: ٤/ ٣٦٣، ٥/ ٢٢ وانظر مادة نجف في لسان العرب.

السباحة، فلما قال ذلك عمارة لعمرو ضغن عليه عمرو في نفسه، وعرف أنه قد أراد قتله، ومضيا في وجههما حتى قدما أرض الحبشة، كتب عمرو إلى أبيه العاصي بن وائل أن أخلعني وتبرّأ من جريرتي إلى بني المغيرة وجميع بني مخزوم، وخشي على أبيه أن يتبع بجريرته، فلما قدم الكتاب على العاصي مشىٰ إلى رجال من بني مخزوم، ورجال من بني المغيرة، فقال: إن هذين الرجلين قد خرجا حيث علمتم، وكلاهما فاتك صاحب شرّ غير مأمونين على أنفسهما، ولا أدري ما يكون، إني أتبرّأ إليكم من عمرو وجريرته، فقد خلعته، فقالت له عند ذلك بنو المغيرة ورجال من بني مخزوم، وأنت تخاف عمرًا على عمارة ونحن قد خلعنا عمارة وتبرّأنا إليك من جريرته، فخلّ بين الرجلين، فقال: قد فعلت، فخلعوهما وتبرّأ كل واحد من صاحبهم، ومما جرّ عليهم. . .

فلما اطمأنا لم يلبث عمارة أن دبّ لامرأة النجاشي، وكان رجلًا جميلًا وسيمًا، فأدخلته فاختلف إليها، وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يحدّث عمراً بما كان من أمره، فجعل عمرو يقول: ما أصدّقك إنك قدرت على هذا، شأن المرأة أرفع من هذا!! فلمّا أكثر عليه عمارة، وكان عمرو قد صدّقه وعرف أنه قد دخل عليها، ورأى من هيئته[1] وما يصنع به والذهاب إذا أمسى وبيتوته عنه حتى يأتي من السحر ما عرف به في ذلك، وكانا في منزلٍ واحد، ولكنه كان يريد أن يأتيه بشيء لا يستطيع دفعه، إن هو رفع شأنه إلى النجاشي، فقال له في بعض ما يذكر له من أمرها: إن كنت صادقاً أنك بلغت منها ما تقول، فقل لها فلتدهنك من دهن النجاشي الذي لا يدّهن به غيره، فإني أعرفه، وائتني منه بشيء حتى أصدّقك بما تقول، قال: فجاءني في بعض ما يدخل عليها، فدهنته وأعطته منه شيئًا في قارورة، فلمّا شمّه عمرو عرفه، وقال له عند ذلك: أشهد أنك قد صدقت، ولقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد من العرب مثله، امرأة الملك، ما سمعنا مثل هذا، وكانوا أهل جاهلية، وكان ذلك في أنفسهم فصلًا لمن أصابه وقدر عليه، ثم إنه سكت عنه حتى إذا اطمأنّ دخل عمرو على النجاشي فقال: أيّها الملك معي سفيه من سفهاء قريش، وقد خشيت أن يعزى عندك أمره، وقد أردت أن أرفع إليك شأنه ولم أعلمك ذلك حتى استثبتّ أنه قد دخل على بعض نسائك فأكثر، وهذا دهنك قد أعطته وادّهن به، فلما شمّ النجاشي الدهن، قال: صدقت هذا دهني

(١) وفي نسخة أخرى: هيبته.

الذي لا يكون إلا عند نسائي، ثم دُعي بعمارة بن الوليد، ودعا بالسواحر فجرّدنه من ثيابه ثم أمرهنّ فنفخن في إحليله، ثم خلّى سبيله فخرج هارباً في الوحش، فلم يزل بأرض الحبشة حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، فخرج إليه رجال من بني المغيرة، منهم عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة، وكان اسم عبد الله قبل أن يُسلم بُجير، فلما أسلم سمّاه رسول الله ﷺ عبد الله، فرصده بأرض الحبشة بماء كان يرده مع الوحش، فذكروا أنه أقبل في حُمرٍ من حُمر الوحش يرد معها، فلما وجد ريح الإنس هرب حتى أجهده العطش، فورد فشرب حتى إذا امتلأ خرجوا في طلبه، قال عبد الله بن أبي ربيعة: فسبقت إليه فالتزمته، فجعل يقول: أي بجير أرسلني فإني أموت إن أمسكتني! قال عبد الله: فضبطته فمات في يدي مكانه، فواريته ثم انصرفنا، وكان شَعْره فيما يزعمون قد غطّى كل شيء منه، فقال عمرو، وهو يذكر ما صنع به وما أراد من امرأته:

تعلم عُمار من شرّ شيمة	لمثلك أن يدعا ابن عم لكائن ما
أإن كنت ذا بردين أحوى مُرحلا	فلست ترأى لابن عمك محرما
إذا المرء لم يترك طعامًا يحبه	ولم ينه قلبًا غاويًا حيث يمّما
قضى وطرأ منها يسيرًا فأصبحت	إذا ذكرت أمثاله تملأ الفما
أصبحت من الأمر الدقيق جليله	وعيشًا إذا لاقيت من قد تلوما
ألا فارفع عن مطامع خشية	وعالج أمر المجد لا يتندّما
فليس الفتى ولو نَمَتْ عروقه	بذي كرم إلا بأن يتكرّما(١)

حمزة يُعلن إسلامه ويعاقب أبا جهل

كان الإسلام يغطّ في أعمق أعماق حمزة ﷺ، الذي امتنع الإسلام به بعدئذٍ، وكان ينتظر، أي الإسلام، في ضميره، الفرصة القاطعة للكشف والإبانة والظهور والإعلان، وقد فعل حمزة ذلك في إحدى لحظات الحسم والعزم والغضب لله ورسوله ﷺ، وقصة ذلك مبسوطة في موضوع إسلامه وضربه لأبي جهل على هامته بالقوس، بعدما بلغه بأنه آذى وشتم محمّد ﷺ.

(١) راجع السير والمغازي لابن إسحٰق ج ٣ ص ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠... ولهذا الخبر روايات عدّة في بعض الكتب التاريخية الأخرىٰ، منها على سبيل المثال ما ورد في الأغاني وفي أنساب الأشراف، وغيرهما...

فقد ورد عن هذا الصدد في كتاب «السِّير والمغازي»، وتحت موضوع (إسلام حمزة بن عبد المطلب ﷺ) ما فيه التفصيل الوافي[1]:

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: فحدّثني رجل من أسلم، وكان واعية، أن أبا جهل اعترض رسول الله ﷺ عند الصَّفا، فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف له، فلم يكلّمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جدعان التيمي في مسكنٍ لها فوق الصَّفا تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى نادٍ لقريش عند الكعبة، فجلس معهم، ولم يلبث حمزة أن أقبل متوشّحًا قوسه، راجعًا من قنص له، وكان إذا فعل ذلك لا يمرّ على نادٍ من قريش إلّا وقف وسلّم وتحدّث معهم، وكان أعزّ قريش وأشدَّها شكيمة، وكان يومئذ مشركًا على دين قومه، فلما مرّ بالمولاة وقد قام رسول الله ﷺ فرجع إلى بيته، فقالت له: أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك من أبي الحكم آنفًا قبيل، وجده ها هنا فآذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلّمه محمد، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله عزّ وجلّ به من كرامته، فخرج سريعًا لا يقف على أحد، كما كان يصنع عندما يريد الطواف بالبيت، معدًّا لأبي جهل أن يقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم، فأقبل نحوه حتى قام من رأسه، رفع القوس وضربه بها ضربة شجّه بها شجّة منكرة، وقامت رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه، فقالوا: ما تراك يا حمزة إلّا قد صبأت؟ فقال حمزة: وما يمنعني منه وقد استبان لي منه ذلك، وأنا أشهد أنه رسول الله، وأن الذي يقول حق، فوالله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله لقد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا، وتمّ حمزة على إسلامه، وعلى ما بايع رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عُزَّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه، فقال في ذلك شعرًا ضرب أبا جهل وأسلم:

ذُقْ يا أبا جهل بما عسيت ... من أمرك الظالم إذ[2] مشيت

---

(١) انظر السير والمغازي ج ٣ ص ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، وكذلك انظر الموضوع في السيرة النبوية لابن هشام أيضًا.

(٢) وفي نسخة: إذا.

ستسعط الرغم بما أتيت ... تؤذي رسول الله إذ نهيت
عن أمرك الظالم إذ عتيت ... ولو كنت ترجو الله ما شقيت
ولا تركت الحق إذ دُعيت ... ولا هويت بعدما هويت
تؤذي رسول الله قد غويت ... ما كنت حيًّا بعدما غدرت
فحتى تذوق الخزي قد لقيت ... فقد شفيت النفس وأشفيت

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: ثم رجع حمزة إلى بيته فأتاه الشيطان، فقال: أنت سيّد قريش اتّبعت هذا الصابئ، وتركت دين آبائك! للموت خيرٌ لك ممّا صنعت، فأقبل على حمزة بثّه، فقال: ما صنعت اللّهمّ إن كان رشدًا، فاجعل تصديقه في قلبي، وإلّا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجًا، فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان وتزيينه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إني قد وقعت في أمرٍ لا أعرف المخرج منه وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو، أرشدًا هو أم غيّ شديدة؟ فحدّثني حديثًا فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدّثني، فأقبل رسول الله ﷺ فذكره ووعظه وخوّفه وبشّره، قال: فألقى الله عزّ وجلّ في نفسه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ، فقال: أشهد أنك صادق، شهادة الصدق العارف، فأظهر يا ابن أخي دينك، فوالله ما أحبّ أن لي ما أظلّته السماء، وأني على ديني الأوّل، فكان حمزة ممن أعزّ الله به الدين.

نا أحمد: نا يونس عن ابن أسحٰق قال: وقال حمزة بن عبد المطلب:

حمدت الله حين هدى فؤادي ... إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من ربٍّ عزيز ... خبيرٌ بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا ... تحدّر مع ذي اللُّبِّ الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها ... بآيات مبينات الحروف
وأحمد مصطفى فينا مطاع ... فلا تغشوه بالقول العنيف
فلا والله نسلّمه لقوم ... ولما نقضي فيهم بالسيوف
ونترك منهم قتلى بقاع ... عليها الورد كالورد العكوف
وقد خبرت ما صنعته ثقيف ... به فجزى القبائل من ثقيف

إلـه الـنـاس شـرّ جـزاء قـوم ولا أسقاهم صوب الخريف[1]

ورود اسم أبي جهل في قصة إسلام عمر بن الخطاب ﷺ

كان الإسلام غيبًا في ضمير عمر بن الخطاب يتحيّن فرصة الظهور على مسرح الإيمان، ومختصر ما نريد قوله هنا هو استعراض قصة إسلام عمر بن الخطاب ﷺ، وكيف أن الرسول ﷺ رجا من الله أن يهدي أحد العمرين إلى الإسلام، عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام ـ أبا جهل ـ وذلك ليتقوّى بأيّهما كان الإسلام، وشاءت الإرادة الإلـهية في استجابتها لدعاء الرسول ﷺ أن يكون عمر بن الخطاب ﷺ هو المرشح لهذه المسؤولية التاريخية التي تمنّاها على الله رسوله الكريم ﷺ.

ولا بدّ والحالة هذه أن ندوّن موضوع إسلام عمر بن الخطاب ﷺ للانتقال بعد ذلك إلى الخطوات المرتقبة.

فقد ورد في هذا الصدد بالتفصيل في كتاب «السِّير والمغازي» ما نصّه:

نا أحمد: نا يونس عن محمد بن إسحـٰق قال: كان إسلام عمر بن الخطاب بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة.

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحـٰق قال: حدّثني عبد الرحمـٰن بن الحارث عن عبد العزيز بن عبد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمّه ليلى، قالت: كان عمر بن الخطاب ﷺ من أشدّ الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيّأنا للخروج إلى أرض الحبشة، جاءني عمر بن الخطاب وأنا على بعيري نريد أن نتوجّه، فقال: أين يا أمّ عبد الله؟ فقلت له: آذيتمونا في ديننا، فنذهب إلى أرض الله عزّ وجلّ حيث لا نُؤذَى في عبادة الله، فقال: صحبكم الله، فذهب، ثم جاءني زوجي عامر بن ربيعة، فأخبرته بما رأيت من رقّة عمر، فقال: أترجين يسلم؟ فقلت: نعم، فقال: والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب.

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحـٰق قال: ثم أن قريشًا بعثت عمر بن الخطاب ـ وهو يومئذ مشرك في طلب رسول الله ﷺ[2] ـ ورسول الله ﷺ في دارِ

---

(١) انظر الروض الآنف: ٢/٤٩.

(٢) وأعتقد وأنا متأكد أن لأبي جهل كان دور كبير وضلع مشترك مع المعارضين من قريش في دفع وتحريض عمر بن الخطاب على الرسول ﷺ قبل إسلامه.

في أصل الصَّفا، ولقيه النحام وهو نعيم بن عبد بن أسد، أخو بني عدي بن كعب، قد أسلم قبل ذلك، وعمر متقلّدٌ سيفه، فقال: يا عمر أين تراك تعمد؟ فقال: أعمد إلى محمّد هذا الذي سفَّه أحلام قريش، وسفَّه آلهتها، وخالف جماعتها، فقال له النحام: والله لبئست الممشى مشيت يا عمر! ولقد فرّطت وأردت هلكة بني عدي بن كعب، أوَ تراك تنفلت من بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمّدًا - ﷺ -؟! فتحاوروا حتى ارتفعت أصواتهما، فقال له عمر: إني لأظنك قد صبأت، ولو أعلم ذلك لبدأت بك، فلما رأى النحام أنه غير منتهٍ، قال: فإني أخبرك أن أهلك وأهل ختنك قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه من ضلالتك، فلما سمع عمر تلك المقالة يقولها، قال: فأيُّهم؟ قال: ختنك وابن عمك وأختك، فانطلق عمر حتى أتى أخته.

وكان رسول الله ﷺ إذا أتته الطائفة من أصحابه من ذوي الحاجة نظر إلى أولي السعة، فيقول: عندك فلان فليكن إليك، فوافق ذلك ابن عمّ عمر وختنه زوج أخته سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، فدفع إليه رسول الله ﷺ خباب بن الأرتّ، مولى ثابت ابن أمّ أنمار حليف بني زهرة، وقد أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طـه: الآيات ١ - ٣]، وكان رسول الله ﷺ دعا ليلة الخميس، فقال: اللّهمّ أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي الحكم بن هشام، فقال ابن عمّ عمرو وأخته: نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لعمر، فكانت...

فأقبل عمر حتى انتهى إلى باب أخته ليغير عليها ما بلغه من إسلامهما، فإذا خباب بن الأرتّ عند أخت عمر يدرس عليها طـه، ويدرس عليها: إذا الشمس كوّرت... وكان المشركون يدعون الدراسة الهينمة، فدخل عمر، فلمّا أبصرته أخته عرفت الشرّ في وجهه، فخبّأت الصحيفة، وراغ خباب فدخل البيت، فقال عمر لأخته: ما هذه الهينمة في بيتك؟ قالت: ما عدا حديثًا نتحدّث به بيننا، فعذلها وحلف ألا يخرج حتى تبيّن شأنها، فقال له زوجها سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل: إنك لا تستطيع أن تجمع الناس على هواك يا عمر، وإن كان الحق سواه، فبطش به عمر فوطئه وطئًا شديدًا وهو غضبان، فقامت إليه أخته تحجره عن زوجها فنفحها عمر بيده فشجّها، فلما رأت الدم قالت: هل تسمع يا عمر، أرأيت كل شيء بلغك عني مما يذكر من تركي آلهتك وكفري باللات والعزّى، فهو حقّ، أشهد أن لا إلـه إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّدًا عبده ورسوله، فائتمر

أمرك، واقضِ ما أنت قاض، فلما رأى ذلك عمر سقط في يديه، فقال عمر لأخته: أرأيت ما كنت تدرسين أعطيك موثقًا من الله لا أمحوها حتى أردَّها إليك، ولا أرتبك فيها، فلما رأت ذلك أخته، ورأت حرصه على الكتاب رجت أن تكون دعوة رسول الله ﷺ له، فقالت: إنك نجس ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة: الآية ٧٩]، ولست آمنك على ذلك، فاغتسل غسلك من الجنابة وأعطني موثقًا تطمئن إليه نفسي، ففعل عمر، فدفعت إليه الصحيفة، وكان عمر يقرأ الكتاب فقرأ «طه» حتى إذا بلغ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: الآيات ١ ـ ١٦]، وقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ حتى بلغ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ [التكوير: الآيات ١ ـ ١٤]، فأسلم عند ذلك عمر، فقال لأخته وختنه: كيف الإسلام؟ قالا: تشهد ألّا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمّدًا عبده ورسوله، وتخلع الأنداد، وتكفر باللات والعزّى، ففعل ذلك عمر، وخرج خباب، وكان في البيت داخلًا فكبّر خباب وقال: أبشر يا عمر بكرامة الله، فإن رسول الله ﷺ قد دعا لك أن يعزّ الله الإسلام بك، قال عمر: فدلّوني على المنزل الذي فيه رسول الله ﷺ، فقال له خباب بن الأرت: أنا أخبرك، فأخبره أنه في الدار التي في أصل الصَّفا، فأقبل عمر، وهو حريض على أن يلقى رسول الله ﷺ، وقد بلغ رسول الله ﷺ أن عمر يطلبه ليقتله ولم يبلغه إسلامه، فلما انتهى عمر إلى الدار استفتح، فلما رأى أصحاب رسول الله ﷺ عمر متقلّدًا بالسيف، أشفقوا منه، فلما رأى رسول الله ﷺ وَجِل القوم، قال: افتحوا له، فإن كان الله عزّ وجلّ يريد بعمر خيرًا اتّبع الإسلام وصدّق الرسول، وإن كان يريد غير ذلك لم قتله علينا هيّنًا، فابتدره رجال من أصحاب رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يوحى إليه، فخرج رسول الله ﷺ حين سمع صوت عمر، وليس عليه رداء، حتى أخذ بمجمع قميص عمر ورداءه، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أراك منتهياً يا عمر حتى ينزل الله بك من الرجز ما أنزل بالوليد بن المغيرة»، ثم قال: «اللّهمّ أهدِ عمر»، فضحك عمر، فقال: يا نبيّ الله أشهد ألا إلٰه إلّا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فكبّر أهل الإسلام تكبيرة واحدة سمعها مَن وراء الدار، والمسلمون يومئذ بضعةٌ وأربعون رجلًا وإحدى عشرة امرأة.

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: قال عمر حين أسلم:

الحمد لله ذي المن الذي وجبت　　له علينا أيادي ما لها غير

وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا　　صدق الحديث نبي عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى　　ربي عشية قالوا قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل　　بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربّها ذا العرش جاهدة　　والدّمع من عينيها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذي تدعوه خالقها　　فكاد[1] يسبقني من عبرة درر
فقلت أشهد أن الله خالقنا　　وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبيّ صدق أتى بالحق من ثقة　　وافى الأمانة ما في عوده خور

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: قال عمر عند ذلك: والله لنحن بالإسلام أحق أن ننادي[2] منّا بالكفر، فليظهرن لمكّة دين الله، فإن أراد قومنا بغيًا علينا ناجزناهم، وإن قومنا أنصفونا قبلنا منهم، فخرج عمر وأصحابه، فجلسوا في المسجد، فلمّا رأت قريش إسلام عمر سقط في أيديهم.

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: حدثني نافع عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب قال: أيّ أهل مكة أنقل للحديث؟ قالوا: جميل بن معمر الجمحي، فخرج عمر، وخرجت وراء أبي وأنا غليم أعقل كلما رأيت، حتى أتاه، فقال: يا جميل هل علمت أني أسلمت! فوالله ما راجعه الكلام حتى قام يجرّ رداءه، وخرج عمر معه، وأنا مع أبي، حتى إذا قام على باب مسجد الكعبة صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش إن عمر قد صبأ، فقال عمر: كذبت ولكني أسلمت، فبادروه فقاتلهم وقاتلوه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وبلح[3] فجلس وعرشوا على رأسه قيامًا، وهو يقول: اصنعوا ما بدا لكم فأقسم بالله لو قد كنّا ثلاثمائة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم، فبينا هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلّة حبرة وقميص قومسي[4]، فقال: مه! فقالوا: خيرًا، عمر بن الخطاب صبا، فقال: فمه؟! رجل اختار لنفسه دينًا، أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟! ـ عن الرجل ـ فوالله لكأنما كان ثوب كشف عنه،

(١) وفي نسخة: فعاد.　　(٢) وفي نسخة: أن يُنادىٰ.
(٣) أي: انقطع من الإعياء، فلم يقدر على التحرّك.
(٤) الحبرة: ثوب يماني من قطف أو كتان مخطط، وقميص قومسي لعلة نسبه إلى قومس التي قال عنها ياقوت بأنها كورة كبيرة تشتمل على مزارع في طبرستان.

فلما قدمنا المدينة قلت: يا أبه من الرجل صاحب الحلة الذي صرف القوم عنك؟ قال: ذاك العاص بن وائل السهمي.

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: حدّثني المنكدر أن أعرابيًا من بني الدئل قال حيث بلغه أمر رسول الله ﷺ، وظهوره واختلاف الناس بها، قال: فما فعل الأصلع الطوال الأعسر، مع أي الحزبين هو، فوالله ليملأنها غدًا خيرًا أو شرًا، يعني عمر بن الخطاب.

نا يونس عن النضر أبي عمر عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «اللّهمّ أيِّد الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب»، فأصبح عمر فغدا على رسول الله ﷺ، فأسلم، ثم خرج فصلّىٰ في المسجد ظاهرًا.

نا يونس عن عبد الرحمٰن بن عبد الله عن القاسم بن عبد الله بن مسعود أنّه قال: كان إسلام عمر بن الخطاب فتحًا، وهجرته نصرًا، وإمارته رحمة، وما استطعنا أن نصلّي ظاهرين عند الكعبة حتى أسلم عمر رحمه الله[1].

أجل لقد حقّق عمر بن الخطاب خدمات وإنجازات ومسؤوليات مهمّة منذ ساعة إسلامه إلى نهاية حياته، وحمل أمانة الله ورسوله بصورة نموذجية في مختلف مواقفه، ولهذا نرىٰ السرّ الواضح في استجابة الله لدعاء الرسول ﷺ أن يكون نور الإسلام من نصيب قلب عمر بن الخطاب بدل أبو جهل عمرو بن هشام، لأن الثاني لا فائدة منه، وليس بذلك الرجل الذي يُرجى منه خيرًا عاجلًا أو آجلًا...

فارتفعت درجات عمر بن الخطاب بالإسلام ساميةً عالية، وانحطّت درجات عمرو بن هشام بالكفر إلى الهاوية وبئس المصير.

ودخل عمر بن الخطاب التاريخ من أوسع أبوابه...

بينما كان نصيب عمرو بن هشام من جزاء التاريخ، هو لعنه ورميه في مزابل الشر والإشارة إليه بالتحقير والتصغير... وبناء على ذلك، فإن عمر بن الخطاب يستحق منّا ومن التاريخ التكريم الجليل، والتأريخ له بكل تقدير، ونجعل اسمه في لوحة الخالدين... وذلك لأن الله أعزّ بعمر بن الخطاب الإسلام، بدعوى من رسوله الكريم ﷺ...

---

(١) السير والمغازي ج٣ ص١٨١ ـ ١٨٥.

ومن طريف ما نحب أن نذكره قبل الانتقال إلى موضوع آخر: أن عمر بعد إسلامه تذكر أيّ أهل مكة أشد لرسول الله عداوة: سيأتيه ويخبره بأنه أسلم، فتذكر أبو جهل حتى يغيظه، وقال في نفسه: قلت أبو جهل - وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة - قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، قال: فخرج إليّ أبو جهل، فقال: مرحبًا وأهلًا بابن أختي، ما جاء بك؟ قال: جئتك لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمّد، وصدّقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبّحك الله، وقبّح ما جئت به ﷺ»[1].

اجتماع قريش وفيهم أبو جهل في الحطيم

ورد الخبر في «إعلام النبوة» للماوردي، حيث قال:

(ومن أعلامه) ﷺ: أن قريشًا اجتمعوا في الحطيم فخطبهم عتبة بن ربيعة فقال: إن هذا ابن عبد المطلب قد نغّص علينا عيشنا، وفرّق جماعتنا، وبدّد شملنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، وكان في القوم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وشيبة بن ربيعة، والنضر بن الحٰرث، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، وأمية وأبي ابنا خلف في جماعة من صناديد قريش، فقال له: قل ما شئت فإنا نطيعك، قال: سأقوم فأكلمه فإن هو رجع عن كلامه وعمّا يدعو إليه وإلّا رأينا فيه رأينا، فقالوا له: شأنك يا أبا عبد شمس، فقام فتقدم إلى النبيّ ﷺ وهو جالس وحده، فقال: أنعم صباحًا يا محمّد، قال: يا عبد شمس إن الله قد أبدلنا بهذا السلام تحية أهل الجنّة، قال: يا ابن أخي إني جئتك من عند صناديد قريش لأعرض عليك أمورهم إن أنت قبلتها فلك الحظ فيها ولنا الفسحة، ثم قال: يا ابن عبد المطلب إنك دعوت العرب إلى أمرٍ ما يعرفونه فاقبل مني ما أقول لك... قال: قل، قال: إن كان ما تدعو إليه أمرًا تريد به امرأة حسناء فنحن نزوّجك، فقال: لا قوّة إلّا بالله، ثم قال له: وإن كان ما تتكلّم به تريد مالًا أعطيناك من الأموال حتى تكون أغنى رجل في قريش، فإن ذلك أهون علينا من تشتيت كلمتنا وتفريق جماعتنا، وإن كان ما تدعو إليه جنونًا داويناك، كما تداوي قيس بن ثعلبة مجنونهم، فسكت النبيّ ﷺ، فقال: يا محمّد ما تقول وبِمَ أرجع إلى قريش؟ فقال النبيّ ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص٣٥٠.

ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾، حتى بلغ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فُصّلَت: الآيات ١ ـ ١٣]! قال عتبة: فلما تكلّم بهذا الكلام، فكأن الكعبة مالت حتى خفت أن تمس رأسي من أعجازها، وقام فزعًا يجرّ ردائه، فرجع إلى قريش، وهو ينتفض انتفاض العصفور، وقام النبيّ ﷺ يصلّي، فقالت قريش: لقد ذهبت من عندنا نشيطًا ورجعت فزعًا مرعوبًا، فما وراءك؟! قال: ويحكم دعوني، إنه كلّمني بكلام لا أدري منه شيئًا ولقد رعدت عليّ الرعدة حتى خفت على نفسي وقلت الصاعقة قد أخذتني، فندموا على ذلك...

(قال ابن عرفة): الصاعقة اسم للعذاب على أيّ حالٍ كان، وإنما أهلكت عاد بالريح وثمود بالرجف، فسمّى الله تعالى ذلك صاعقة... (قال الأزهري): الصاعقة صوت الرعد الشديد الذي يصعق منه الإنسان أي يُغشى عليه...[1].

أبو جهل يحاول قتل الرسول ﷺ ويفشل

ورد في الباب من كتاب إعلام النبوة وتحت موضوع (في معجزات عصمته ﷺ):

أظهر الله تعالى لرسوله ﷺ من إعلام نبوّته بعد ثبوتها بمعجز القرآن واستغنائه عما سواه من البرهان ما جعله زيادة استبصار يحجّ بها من قلّت فطنته ويذعن لها من ضعف بصيرته، ليكون إعجاز القرآن مدركًا بالخواطر الثاقبة تفكّرًا واستبدالًا، وإعجاز العيان معلومًا ببداية الحواس احتياطًا وإظهارًا، فيكون البليد مقهورًا بوهمه وعيانه، واللبيب محجوبًا بفهمه وبيانه، لأن لكل فريق من الناس طريقًا هي عليهم أقرب ولهم أجذب، فكان ما جمع انقياد الفرق أوضح سبيلًا وأعمّ دليلًا[2]. ثم يعقب الماوردي فيقول: (فمن معجزاته): ـ عصمته من أعدائه وهم الجمّ الغفير والعدد الكثير وهم على أتمّ حنق عليه وأشد طلب لنفسه، وهو بينهم مسترسل قاهر ولهم مخالط ومكاثر، ترمقه أبصارهم شذرًا وترتعد عنه أيديهم ذعرًا، وقد هاجر عنه أصحابه حذرًا حتى استكمل مدّته فيهم ثلاث عشر سنة، ثم خرج عنهم سليمًا لم يكلم في نفس ولا جسد وما كان ذاك إلا بعصمة إلـهية وعده

(١) إعلام النبوّة ص ٧٩، ٨٠، ٨١.
(٢) أعلام النبوّة ص ٧٦.

الله تعالى بها، فحققها حيث يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: الآية ٦٧] فعصمه منهم[١].

ثم يعقب الماوردي فيضرب مثلًا على ما قال، ويستعرض في فصل من كتابه الآنف الذكر «إعلام النبوة» اجتماع قريش وفيهم أبو جهل، وكيف أن الله سلّم رسوله من أذاهم، فيقول في هذا الصدد:

«... وإن قريشًا اجتمعت في دار الندوة، وكان فيهم النضر بن الحارث بن كنانة، وكان زعيم القوم وساعده عبد الله بن الزبعري، وكان شاعر القوم، فحضّهم على قتل محمد ﷺ، وقال لهم: الموت خير لكم من الحياة، فقال بعضهم: كيف نصنع؟!!

فقال أبو جهل: هل محمد إلّا رجل واحد، وهل بنو هاشم إلا قبيلة من قبائل قريش، فليس فيكم من يزهد في الحياة فيقتل محمد أو يريح قومه!! وأطرق مليًا... فقالوا: من فعل هذا، ساد... فقال أبو جهل: ما محمد بأقوى من رجل منّا وإني أقوم إليه فأشدغ رأسه بحجر، فإن قتلت أرحت قومي، وإن بقيت فذاك الذي أوثر... فخرجوا على ذلك... فلما اجتمعوا في الحطيم، خرج عليهم رسول الله ﷺ فقالوا: قد جاء، فتقدم من الركن فقام يصلّي، فنظروا إليه يطيل الركوع والسجود، فقال أبو جهل: فإني أقوم فأريحكم منه!! فأخذ مهراسًا عظيمًا ودنا من رسول الله ﷺ، وهو ساجد لا يلتفت إليه ولا يهابه، وهو يراه، فلما دنا منه، ارتعد وأرسل الحجر على رجله، فرجع وقد شدخت أصابعه وهو يرتعد، وقد دوخت أوداجه ورسول الله ﷺ ساجد، فقال أبو جهل لأصحابه: خذوني إليكم، فالتزموه وقد غشي عليه ساعة، فلما أفاق قال له أصحابه: ما الذي أصابك!! قال: لما دنوت منه أقبل عليّ من رأسه فحل فاغر فاه، فحمل عليّ أسنانه فلم أتمالك وإني أرى محمدًا محجوبًا، فقال له بعض أصحابه: يا أبا الحكم رغبت وأحببت الحياة ورجعت... قال: ما تغروني عن نفسي، قال النضر بن الحارث: فإن رجع غدًا فأنا له... قالوا له: يا أبا سهم لئن فعلت هذا لتسودن، فلما كان من الغد اجتمعوا في الحطيم منتظرين رسول الله ﷺ، فلما أشرف عليهم قاموا بأجمعهم فواثبوه فأخذ حفنة من تراب وقال: شاهت الوجوه، وقال: حمر لا

(١) أعلام النبوّة ص ٧٦ (الباب الثامن: في معجزات عصمته ﷺ).

يبصرون، فتفرّقوا عنه، وهذا دفع إلٰهي وثق به من الله تعالىٰ، فصيّر عليه حتى وقاه لله وكان من أقوى شاهد على صدقه[1].

أبو جهل يذهب ويستمع إلى الرسول ﷺ ليلًا وهو في بيته

لعبت الوساوس بأبي جهل حدًّا كبيرًا، وأعماه الحسد، من رسول الله ﷺ، فذهب ذات ليلة وتوجه إلى دار محمد ﷺ ليستمع إليه، ماذا يفعل وماذا يقرأ، وظلّ ملازمًا لبيته حتى مطلع الفجر، ولم يدرِ أبو جهل بأن بعض أصحابه، كانوا جالسين في موضع حول الدار ولانتظار نفس النتيجة. . .

وقد أفادنا بذلك ابن إسحٰق في كتابه «السِّير والمغازي» إذ عرض لنا القصة تحت عنوان (من عذّب في الله بمكّة من المؤمنين)، فقد ورد:

أنا الشيخ أبو الحسين أحمد بن محمد بن النقور البزاز قراءة عليه وأنا أسمع، قال: أنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمٰن المخلص قال: قرئ على أبي الحسين رضوان بن أحمد وأنا أسمع قال: نا أبو عمرو أحمد بن عبد الجبار العطاردي قال: نا يونس بن بكير عن ابن إسحٰق قال: نا الزهري قال: حدّثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن الشريف خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلّي بالليل في بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسًا ليستمع فيه، وكلّا لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يسمعون له حتى إذا أصبحوا أو طلع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا[2]، وقال بعضهم لبعض: لا تعودون لو رآكم بعض سفائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثلما قالوا أوّل مرة، ثم انصرفوا، فلما كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرّقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريف أخذ عصًا ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: حدّثني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟! فقال: يا أبا ثعلبة والله سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وأشياء ما أعرف معناها ولا ما يُراد بها،

---

(١) أعلام النبوّة ص ٧٦، ٧٧، ٧٨.

(٢) وفي نسخة: فتلاقوا.

فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت له[1]، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم! ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا[2] على الرُّكَب وكنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى تدرك هذه!! والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدّقه!!! فقام عنه الأخنس بن شريف[3].

أبو جهل يمتقع لونه من رؤية محمد ﷺ بباب داره

ورد في كتاب «السِّير والمغازي»:

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: حدّثني عبد الملك بن أبي سفيان الثقفي قال: قدم رجل من إراش بإبلٍ له مكّة، فابتاعها منه أبو جهل بن هشام فمطله[4] بأثمانها، وأقبل الأراشي حتى وقف على نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في ناحية المسجد، فقال: يا معشر قريش مَنْ رجل يؤدّيني على أبي الحكم بن هشام، فإني غريب ابن سبيل، وقد غلبني على حقي، وأنا غريب ابن سبيل؟ فقال أهل المجلس: ترى ذلك الرجل - وهم يهزؤون به، إلى رسول الله ﷺ لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة - إذهبْ إليه فهو يؤدّيك عليه، فأقبل الأراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا عبد الله، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حقٍّ لي قبله، وأنا غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم، عن رجل يؤدني عليه، يأخذ لي حقي منه، فأشاروا لي إليك، فخُذ لي حقّي منه، رحمك الله!!

فقال الرسول ﷺ: انطلق إليه، وقام معه، فلما رأوه قام معه، قالوا لرجلٍ ممّن معهم: إتبعه فانظر ماذا يصنع[5]، فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه، فضرب عليه بابه!!!

فقال: مَنْ هذا؟

فقال: محمد، فاخرج إليّ!

---

(١) وفي نسخة: به. (٢) وفي نسخة: تحاذينا.
(٣) راجع السير والمغازي ج ٤ ص ١٨٩، ١٩٠. (٤) وفي نسخة: فماطله.
(٥) وفي رواية: ماذا يقول.

فخرج إليه وما في وجهه رائحة، قد امتقع لونه...

فقال له: أعْطِ هذا الرجل حقّه!

قال: نعم، لا يبرح حتى أعطيه الذي له...

فدخل، فخرج إليه بحقّه، فدفعه إليه، ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للأراشي: الحق بشأنك، فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيرًا، فقد أخذ الذي لي، وجاء الرجل الذي بعثوا معه، فقالوا له: ويحك ماذا رأيت؟! فقال: عجبًا من العجب[1]، والله إلا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه، فقال: أعطِ هذا الرجل حقّه، قال: نعم لا يبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فأخرج إليه حقّه فأعطاه إيّاه، ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فقالوا له: ويلك ما لك؟ فوالله ما رأينا مثل ما صنعت؟! قال: ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فمُلِئت رعبًا، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسي لفحل من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحلٍ قط، والله لو أبيت لأكلني[2].

إن هذه القصة تعبّر عن شجاعة محمد ﷺ المتناهية وعن موقفه النبيل في الوقوف إلى جانب الضعيف المظلوم لأخذ حقّه من الظالم المتبجّح بنفسه كأبي جهل، حيث أن وقوف الرسول ﷺ على باب داره مع الرجل، هو صولة الحق بعينه، ولن تمنع أبو جهل في هذه الحالة داره، لأنه على الباطل، والباطل لا يستطيع الثبات أمام الحق في ساعة الحسم... لذلك رأينا انهيار أبو جهل منذ اللحظة الأولى، بل وارتعاد فرائصه من رؤية الرسول ﷺ على باب داره، فأرجع حق الرجل بعد أن أمر الرسول ﷺ بذلك دون أن يحرّك شفتيه.

قيام أبي جهل والمشركين بمخاصمة الرسول ﷺ وتهديده

لقد سجّل قلم التاريخ، على أبي جهل، صور وملاحظات سيّئة من المواقف الخائبة ضدّ الرسول ﷺ وصحبه الكرام، وكتب التأريخ تشهد عليه بذلك، وتشير إلى دوره القذر الذي لعبه مع المشركين لاعتراض سبيل الرسالة المحمّدية، خاتم الرسالات الإلـهية ووريثها قاطبةً وأكملها...

---

(١) في الروض: ٢/١٣٣ ـ ١٣٤ «ما هو إلا».

(٢) راجع السير والمغازي ج ٤ ص ١٩٥، ١٩٦.

وفيما يلي لقطات من بعض تلك الصور المعادية، ننقلها بدورنا للقارئ، من كتاب «السِّير والمغازي»؛ إذْ ورد فيه في هذا الصدد ما نصّه:

نا أحمد، نا يونس عن ابن إسحٰق قال: حدّثني شيخ من أهل مكّة قديم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس، أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث أخا بني عبد الدار، وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن الأسود، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية، وأمية بن خلف، والعاصي بن وائل، ونبيه ومنبه ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا، أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد وكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا، وهو يظنّ أن قد بدأ لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصًا يحبّ رشدهم ويعزّ عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنّا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، ولقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفّهت الأحلام وشتمت الآلهة، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلّا جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا سوّدناك علينا، وإن كنت تريد به مُلْكًا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك به رئى[1] تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمعون التابع من الجن رئى ـ فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطبّ لك حتى نبرّئك منه، أو نعذر فيك، فقال لهم رسول الله ﷺ: لا أدري ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا المُلك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوا عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، أو كما قال رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر الروض: ٢/٤٩.

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منّا ما عرضنا عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادًا ولا أقلّ ماء، ولا أشد عيشًا منّا، فسَلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال، التي قد ضيّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليجري فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا مَنْ مضىٰ مِنْ آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا فيهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخًا صدوقًا، نسلهم عما تقول أحقٌّ هو أم باطل! فإن صنعت لنا ما سألناك وصدّقوك، صدّقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولًا كما تقول، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بُعثت، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوا مني فهو حظّكم من الدنيا والآخرة، وأن تردّوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

فقالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخُذ لنفسك، فسَلْ ربك أن يبعث معك ملكًا يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسَلْه فليجعل لنا جنانًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضّة يغنيك بها عمّا نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، وحتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا يسل ربه هذا، ولا بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلّا أن تفعل، فقال رسول الله ﷺ: ذلك إليه إن شاء الله فعل ذلك بكم، قالوا: يا محمد، فأعلم ربّك أنا سنجلس معك ونسألك عمّا سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمٰن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمٰن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منّا حتى تهلك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهنّ بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلًا، فلما قالوا له ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمّته، ابن عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمّد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل، ثم أن تعجل لهم بعض ما تخوّفهم به

من العذاب، فوالله لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلّمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم نأتي معك بصكٍّ منشور ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول، وأيم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدّقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ حزينًا إلى أهله، آسفًا لما فاته مما كان فيه يطمع من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إيّاه، فلما قام عنهم رسول الله ﷺ، قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمّدًا قد أبا إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غدًا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت[1] به رأسه، فاسلموني عند ذلك وامنعوني[2] فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدوا، وكان رسول الله ﷺ بمكّة وقبلته إلى الشام، وكان إذا صلّى صلّى بين الركنين الأسود واليماني، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلّي وقد غدت قريش، فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع متهيّبًا منتقعًا قد تغيّر لونه مرعوبًا وقد يبست يده على حجره حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، ولما دنوت منه عرض منه لي دونه فحل من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهَمَّ بأن يأكلني.

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: فذكرني أن رسول الله ﷺ قال: ذلك جبريل لو دنا لأخذه.

نا يونس قال: ثم رجع الحديث إلى الأول، قال: فلما قال له ذلك أبو جهل قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، فقال: يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أشلتم له نبله بعد[3]، لقد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر، لا والله ما هو

---

(١) فضخه: كسره، ولا يكون إلّا في شيء أجوف.

(٢) كذا في الأصل، ولعلّ الصواب «أو امنعوني» كما جاء في ابن هشام، الروض ٢/٣٨.

(٣) وجاء عند ابن هشام، الروض ٢/٣٨ «نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد».

بساحر، قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، ولا والله ما هو بكاهن، وقد رأينا الكَهَنة وحالهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، ولا والله ما هو بشاعر، ولقد روينا الشعر وأصنافه كلّها هزجه ورجزه وقريضه، وقلتم: بمجنون، ولا والله ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش انظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمرٌ عظيم.

وكان النضر من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك فارس، وأحاديث رستم وأسفندباذ، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلسًا يذكر فيه بالله ويحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة(1) الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم يقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلّموا فأنا أحدّثكم أحسن من حديثه، ثم يحدّثهم(2) عن ملوك فارس ورستم وأسفندباذ، ثم يقول: بماذا محمد أحسن مني.

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: حدّثني رجل من أهل مكّة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: أنزل الله في النضر ثماني آيات، قول الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المطففين: الآية ١٣]، وكل ما ذكر فيه الأساطير من القرآن(3).

فلما قال النضر ذلك بعثوه(4) وبعثوا معه ابن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وأخبروهم ببعض قوله، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة، فقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث يأمركم بهنّ فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروّا فيه رأيكم [يعني اعملوا

(١) وفي نسخة: نعمة.
(٢) وفي نسخة: فيحدثهم، وعن رستم واسقدباذ، انظر الروض: ٢/ ٥٢ ـ ٥٣.
(٣) انظر: سور: الأنعام: ٢٥، الأنفال: ٣١، النحل: ٢٤، المؤمنون: ٨٣، الفرقان: ٥، النمل: ٦٨، الأحقاف: ١٧، القلم: ١٥.
(٤) يعني: زعماء قريش بما فيهم أبو جهل أيضًا.

فيه رأيكم]، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنه كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان بناؤه، وسلوه عن الروح ما هو، فإن أخبركم بذلك فهو نبيّ فاتبعوه، وإن لم يخبركم فهو رجل متقوّل فاصنعوا في أمركم ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكّة على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمّد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عمّا أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم عمّا سألتم عنه غدًا، ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشر ليلة لا يحدث الله تعالى إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام حتى أرجف أهل مكّة، وقالوا: وعدنا محمّد غدًا واليوم خمس عشرة وقد أصبحنا فيها لا يخبرنا شيءٍ مما سألناه عنه، حتى حزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما تكلّم به أهل مكّة، ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إيّاه على حزنه وخبر ما سألوه عنه من أمر الفِتْية، والرجل الطوّاف، يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

أخبرنا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: فبلغني أن رسول الله ﷺ افتتح السورة، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف: الآية ١]، يعني محمّدًا إنك رسول منّي، تحقيقًا لما سألوه عنه من نبوّته ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: الآيتان ١، ٢] أي معتدلًا لا اختلاف فيه ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: الآية ٢]، قال: عاجل عقوبة في الدنيا وعذابه في الآخرة من عند ربك الذي بعثك رسولًا[1].

لقد كان هدفنا من حشد ما يتعلق بخبر النضر بن الحارث في موضوع عداوة أبي جهل لمحمد ﷺ، هو ما تكشفه لنا النصوص التاريخية بنفسها من حقائق واضحة عن الموضوع، وهو أن أبو جهل لما فشل في قتل محمد ﷺ وشدخه بالحجارة، ولم يستطع أن ينجز هذه المهمة، وهذه المسؤولية، كما تعهدها هو على نفسه وبإقرارٍ منه أقام زعماء قريش ورجالهم، بما فيهم النضر بن الحارث،

(١) انظر السير والمغازي ج ٤ ص ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣.

بحثوا حينذاك وسيلة أخرى لمحاربة محمد ﷺ، وهو التحريف على الرسول، من خارج مكّة، ومقابلته بالأفكار الدينية من أهل الكتاب، فوجدوا في يهود المدينة ضالّتهم، واتّفقوا أن النضر بن الحارث الذي كان يبثّ الأفكار والأساطير والقصص الفارسية كمحاولات منه لمقابلة مبادئ الرسول، خير من يُعتمد عليه وينفّذ هذه المهمة، فوقع الأمر عليه، وأرسلوه ومعه رجل آخر إلى المدينة، ومن الطبيعي أن أبو جهل كان أحد أبرز أطراف هذا الحوار، وكان له ضلع بهذا التكليف المشؤوم، وهو اختيار النضر بن الحارث، الرجل الذي يتولّى مسؤولية الاتصال بأحبار اليهود للتخريب على الدعوة الإسلامية.

ومن المحقق أن تفشل نتائج هذه السفارة المسخة لأنها منطلقة من رؤوس فارغة من التعقّل السليم، وسلامة النظر، وصدور مليئة بالأحقاد والضغائن والكراهية، وقد غفلوا أيّما تغفل أن الرسالة المحمدية مؤيّدة بقوة العناية الإلـهية وألطافه عزّ وجلّ، وأن قوّة هذه العناية ستكسح أمامها جميع المؤامرات، وجميع صور المقاومة، بما في ذلك محاولات أبي جهل الفاشلة، أو الأساطير الفارسية التي كان يروّجها النضر بن الحارث ضدّ هذه الرسالة العظيمة، أو اتصال قريش باليهود الذين حرّفوا حقائق كتابهم السماوي وكذبوا على الله. . .

عتبة بن ربيعة يجلس ويتفاوض مع محمد ﷺ وأبو طالب يمدحه ويرد على أبي جهل

يتكرّر اسم عتبة بن ربيعة في الروايات، عن محاولاته المستمرة والمتلاحقة للاتصال بمحمّد ﷺ، وتتكرّر صور الروايات كذلك التي تخصّ موضوع إلحاحه ورجائه من محمد ﷺ أن يهجر دينه الجديد، والكفّ عن الهجوم على الرموز القديمة للمفاهيم الجاهلية المتوارثة عن الآباء والأجداد التي هي الأصنام والأوثان وغيرها. . .

ومن الجدير بالذكر، أن عتبة كان لا يتصرّف بحركة في هذا الشأن مع محمد ﷺ، إلّا وأن يخبر ويشاور الملأ من قريش وبضمنهم أبو جهل، وفي السطور التالية التي سننقلها، فيها الكثير من الوضوح والإبانة والإفصاح عن هذه الحقيقة التاريخية.

فقد ورد في كتاب «السِّير والمغازي» عن هذا الموضوع ما نصه:

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: حدثني يزيد بن زياد مولى بني هاشم عن محمد بن كعب قال: حُدّثت أن عتبة بن ربيعة كان سيّدًا حليمًا قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكلّمه أمورًا لعلّه أن يقبل بعضها، فنعطه أيّها شاء ويكفّ عنّا، وذلك حين أسلم حمزة بن عبد المطلب، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقُمْ فكلّمه، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منّا حيث قد علمت من السطة[1] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلّك أن تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، فقال: يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالًا جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تريد شرفًا شرّفناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملّكناك، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه ولا تستطيع أن تردّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، ولعل هذا الذي تأتي به شعر جاش به صدرك، فإنكم لعمري يا بني عبد المطلب، تقدرون منه على ما لا يقدر عليه أحد، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال رسول الله ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاستمع مني، قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [فُصّلَت: الآيات ١ - ٣]، فمضى رسول الله يقرأها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت له، وألقى بيده خلف ظهره، معتمدًا عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد فيها، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما

(١) السطة هنا: علوّ المكانة والنسب.

وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي، إني والله قد سمعت قولًا ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلّوا بين هذا الرجل وبيني ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وأن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به، فقالوا: سَحَرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال: هذا رأي لكم فاصنعوا ما بدا لكم. [ثم ورد في الكتاب بعد ذلك]:

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكّة حتى كثر في الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من الناس، فقال أبو طالب يمدح عتبة بن ربيعة حين ردّ على أبي جهل، فقال: ما تنكر أن يكون محمّدًا؟!

عجبت لحام يا ابن شيبة ... وأحلام أقوام لديك سخاف
يقولون شايع من أراد محمد ... بسوءٍ وقم في أمره بخلاف
فلا تركبن الدهر مني ظلامة ... وأنت امرؤ من خير عبد مناف
ولا تتركنّه ما حييت لمطمع ... وكن رجلًا ذا نجدة وعفاف
تدور العدى عن دورة هاشمية ... ألا فهم في الناس خير آلاف
فإن له قربًا لديك قريبة ... وليس بذي حلف ولا بمضاف
ولكن من هاشم في صميمها ... إلى أبحر فوق البحور صواف
وزاحم جميع الناس فيه وكن له ... ظهيرًا على الأعداء غير مجاف
فإن غضبت فيه قريش فقل لهم ... بني عمنا ما قومكم بضعاف
فما بالكم تغشون منا ظلامة ... وما بال أحلام هناك خفاف
وما قومنا بالقوم يغشون ظلمنا ... وما نحن فيما ساءهم بخفاف
ولكنّا أهل الحفاظ والنّهى ... وعزّ ببطحاء الحطيم مواف[1]

(١) السير والمغازي ج ٤ ص ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ويمكن مراجعة الأبيات في تاريخ اليعقوبي كذلك ج ٢.

الرسول يدعو قريش وأبا جهل لإطاعته

كان الرسول ﷺ يعرض دائمًا الدين الإسلامي على قريش عامّة، وزعمائهم خاصّةً، بما فيهم أبو جهل كما سنرى، وكان يشرح لهم مبادئ الإسلام السمحة وأفكاره النيّرة، وذلك من أجل كسبهم، ويسهل عليهم تقبّل دعوته الكريمة... فمنهم من كان يستمع إليه ويلقى قوله بالترحاب والقبول الحسن، ومنهم من لم يستمع إليه ولم يصغ له بأذنيه، ورفض قبول الإسلام، وبالتالي خسر خسرانًا مبينًا، ولعمري لقد كان أبو جهل النموذج الأسوأ من الرافضين للدعوة المحمّدية الرشيدة، وخسر الدنيا والآخرة، لأنه حارب الله ورسوله...

فقد ورد في هذا الصدد:

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر قريش اتبعوني وأطيعوا أمري، فإنه الهدى ودين الحق يعزكم ويمنعكم من الناس ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: الآية ١٢]، فقالت قريش: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: الآية ٥٧]، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ إلى قوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: الآية ٥٧].

نا يونس بن عمرو عن العيزار بن حريث قال: كان رسول الله ﷺ يقول: اللّهمّ إني أدعو قريشًا لتملك بتلك برًّا وبحرًا، وقد جعلوا طعامي كطعام الحجلة، يا معشر قريش أطيعوني يطأ الناس أعقابكم إلى يوم القيامة!!

قال أبو جهل: والله لئن بايعناك يا بن أخي لا تبايعك مضر ولا ربيعة...

قال: بلى والله طوعًا وكرهًا، وفارس والروم[١].

الرسول الكريم يلتقي بأبي جهل وجهًا لوجه ويعرض عليه الإسلام

جاء في كتاب «السير والمغازي» عن هذا الخبر ما نصّه:

نا يونس عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن المغيرة بن شعبة قال: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ إني أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض

---

(١) راجع السير والمغازي ج ٤ ص ٢٠٩.

أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم هلمّ إلى الله وإلى رسوله، إني أدعوك إلى الله! فقال أبو جهل: يا محمد، هل أنت منتهٍ عن سبِّ آلهتنا، هل تريد إلا أن تشهد أنْ قد بلّغت، فنحن نشهد أنْ قد بلّغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقاً ما تبعتك، فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم! قالوا: فينا الندوة! قلنا: نعم! قالوا: فينا اللواء، قلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم! ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الرُّكب قالوا: منّا نبيّ فلا والله لا أفعل(١).

شعر لعمر أو أبو طالب في أبي جهل

عن كتاب السِّير والمغازي:

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: وقد قال عمر بن الخطاب فيما يزعمون بعد إسلامه يذكر ما رأت قريش من العبرة فيما كان أبو جهل همَّ به من رسول الله ﷺ، وقائل يقول قالها أبو طالب، فالله أعلم بمن قالها:

أفيقوا بني غالب وانتهوا ... عن البغي في بعض ذا المنطق
وإلا فإني إذًا خائف ... بوائق في داركم تلتقي
تكون لغابركم عبرة ... وربّ المغارب والمشرق
كما ذاق من كان من قبلكم ... ثمود وعاد فمن ذا بقي
غداة أتاهم بها صرصراً ... وناقة ذي العرش إذ تستقي
فحلّ عليهم بها سخطة من الله ... في ضربة الأزرقِ
غداة يعض بعرقوبها حسام ... من الهند ذو رونق
وأعجب من ذاك من أمركم ... عجائب في الحجر الملصق
بكفّ الذي قام من حينه ... إلى الصابر الصادق المتّقي
فأيبسه الله في كفّه ... على رغم ذا الخائن(٢) الأحمق
أحيمق مخزومكم(٣) إذ غوى ... بغي الغواة ولم يصدق

(١) السير والمغازي ج ٤ ص ٢١٠.
(٢) جاء في الحاشية: الجائر.
(٣) إشارة إلى أبي جهل.

أبو جهل فرعون هذه الأمة

عن كتاب السِّيَر والمغازي:

نا يونس عن المبارك بن فضالة عن الحسن[1] أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمّة فرعون، فإن فرعون هذه الأمّة أبو جهل» [راجع المصدر المذكور ج ٤ ص ٢١٠].

أبو جهل الشجرة الملعونة في القرآن

وعن كتاب السِّيَر والمغازي كذلك:

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحٰق قال: حدّثني حكيم بن حكيم عن عباد بن حُنيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه تلا ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ قال: يقول المذمومة، نزلت في أجهل بن هشام. [راجع المصدر المذكور ج ٤ ص ٢١٠].

ذكر ما أنزل الله تعالىٰ في أبي جهل وما هَمّ به

ورد في السيرة النبوية لابن هشام:

وأنزل عليه، فيما قال أبو جهل بن هشام، وما همَّ به: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [العلق الآيات: ٩ - ١٩][2].

---

(١) ترجم له صاحب طبقات المفسّرين، في الجزء الأول من كتابه، [تصنيف الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي المتوفى سنة ٩٤٥ هـ] هو أبو سعيد «مولى زيد بن ثابت، وقيل: مولى جميل بن قطبة، وقيل غير ذلك، وأبو يسار [والد حسن] بالتحتانية من سبي ميسان، أعتقه الربيع بن النضر، ولد الحسن في زمن عمر، وشهد الدار وهو ابن أربع عشر سنة، وروى عن عمران بن حصين، وأبي موسى، وابن عباس، وجندب وخلق. وعنه ابن عون ويونس وأمم، وكان إمامًا كبير الشأن، رفيع الذكر في العلم والعمل وهو رأس الطبقة الثالثة، أخرج له الجماعات ومات في رجب سنة عشر ومائة له: «التفسير» رواه عنه جماعة، و«كتابه إلى عبد الملك بن مروان في الرد على القدرية» [انظر ج ١ ص ١٥٠ ـ ١٥١ من المصدر المذكور، طبع دار الكتب العلمية، بيروت]، له ترجمة في تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٧١، حلية الأولياء ٢/ ١٣١، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٣٥٤.

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٣١١.

ويبدو أن هذه الآية الكريمة نزلت بعد أن همّ أبو جهل بإلقاء الحجر على الرسول ﷺ وهو يسجد لله. وفي السِّيَر والمغازي، قال ابن إسحٰق: «كان رسول الله ﷺ يصلّي فلما سجد جاءه أبو جهل فوطئ عنقه، فأنزل الله فيه الآية...»[1].

تهكّم أبي جهل بالرسول ﷺ وتنفير الناس عنه

ذكر ابن هشام ما نصه في هذا الموضوع:

... «فقال أبو جهل يومًا وهو يهزأ برسول الله ﷺ، وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد إنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار، ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددًا وكثرة، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجلٍ منهم؟ فأنزل الله تعالى عليه ذلك من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: الآية ٣١] إلى آخر القصة، فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلّي يتفرّقون عنه، ويأبون أن يستمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي، استرق السمع دونهم فرقًا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية أذاهم فلم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته، فظنّ الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئًا من قراءته وسمع هو شيئًا دونهم أصاخ له يستمع منه[2].

(وعن سبب نزول الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ ... الخ﴾ [الإسراء: الآية ١١٠])، قال ابن إسحٰق:

حدّثني داود بن الحصين، مولى عمرو بن عثمان، أنّ عكرمة مولى ابن عباس حدّثهم أن عبد الله بن عباس ﷺ حدّثهم: إنما أنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ١١٠] من أجل أولـٰئك النفر، [يعني أبو جهل ورهطه]، يقول: لا تجهر بصلاتك فيتفرّقوا عنك، ولا تخافت بها فلا يسمعها من يحبّ أن يسمعها ممّن يسترقّ ذلك دونهم لعلّه يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به[3].

---

(١) السير والمغازي لابن إسحٰق ج ٤ ص ٢٣٠.

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٣١٣، ٣١٤.

(٣) المصدر السابق، المجلد الثاني ص ٣١٣.

أبو جهل وذكر شجرة الزقوم في القرآن الكريم

ذكر ابن هشام في السيرة النبوية تحت موضوع (أبو جهل، وما أنزل الله فيه)، فقال:

. . . وأبو جهل بن هشام، لما ذكر الله عزّ وجلّ شجرة الزقوم، تخويفًا بها لهم، قال: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوّفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة[1] يثرب بالزبد، والله لئن استمكنّا منها لنتزقمنّها[2] تزقّمًا، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: الآيات ٤٣ - ٤٦]، أي: ليس كما يقول.

قال ابن هشام: المهل: كل شيء أذبته، من نحاس أو رصاص أو ما أشبه ذلك فيما أخبرني أبو عبيدة[3].

ويقال: إن المهل: صديد الجسد[4].

ذلّ أبي جهل للرسول ﷺ

ومن كرامات الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ، أن الله كان يذلّ له أبو جهل كلما رآه، (قال ابن إسحٰق: وقد كان عدوّ الله أبو جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله ﷺ وبُغضه إياه، وشدّته عليه، يذلّه الله له إذ رآه. . .)[5].

محاولة أبي جهل الخافقة في ردّ وفد النصارى عن الإسلام

نقل لنا صاحب السيرة النبوية ابن هشام، عن أمر هؤلاء النصارى الذين قدموا على رسول الله ﷺ ليبايعوه ويعلنوا إسلامهم على يديه، وذلك لما لمسوا في الإسلام من الوحدانية وفضائل المكارم والحثّ على الخير، فقال:

«قال ابن إسحٰق: ثم قدم على رسول الله ﷺ، وهو بمكّة عشرون رجلًا، أو قريبٌ من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في

---

(١) العجوة: ضرب من التمر. (٢) تزعم: ابتلع.

(٣) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٣٦٢، ٣٦٣.

(٤) راجع كذلك السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٣٦٣.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٣٨٨.

المسجد، فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عمّا أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عزّ وجلّ، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله[1]، وآمنوا به وصدّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا اعترضهم أبو جهل ابن هشام في نفرٍ من قريش، فقالوا لهم: خيّبكم الله مِن ركب!! بعثكم مَنْ وراءكم مِنْ أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده، حتى فارقتكم دينكم وصدّقتموه بما قال، ما نعلم ركبًا أحمق منكم، أو كما قالوا. فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خيرًا»[2]، أي بقصرها عن بلوغ الخير، يقال: ما ألوت أن أفعله كذا وكذا أي ما قصّرت[3]. وقد ذهبت مساعي أبو جهل الخائبة سدىً مع أدراج الرياح في اعتراضه لهؤلاء المؤمنين الأبرار.

نزول ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠] في أبي جهل وأصحابه

ذكر ابن هشام تحت موضوع (مقالة الوليد وصحبه، ونزول هذه الآية)، قال ابن إسحـٰق: ومرّ رسول الله ﷺ - فيما بلغني - بالوليد بن المغيرة، وأميّة بن خلف، وبأبي جهل بن هشام، فهمزوه، واستهزءوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله تعالـى عليه في ذلك من أمرهم: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: الآية ١٠][4].

أبو جهل والمشركون من أشراف قريش عند أبي طالب لما ثقل به المرض

(قال ابن إسحـٰق: ولمّا اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشًا ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إنّ حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش

(١) وفي نسخة: «ثم استجابوا له».
(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٣٩١، ٣٩٢.
(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول الصفحة ٣٩٢.
(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٣٩٥، ٣٩٦.

كلّها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه، وليعطه منّا، والله ما نأمن أن يبتزونا[1] أمرنا.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني العباس بن عبد الله بن معبد (بن عباس) عن بعض أهله، عن ابن عباس، قال: مشوا إلى أبي طالب فكلّموه، وهم أشراف قومه: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأُميّة بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، في رجالٍ من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنك منّا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوّفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منّا، وخذ لنا منه، ليكفّ عنا، ونكفّ عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال: يا بن أخي، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «نعم[2]، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم».

فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات!!

قال: تقولون: لا إلـٰه إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه...

قال: فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمّد أن تجعل الآلهة إلـٰهًا واحدًا، إن أمرك لعجب!!

قال: ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه...

قال: ثمّ تفرّقوا...)[3].

يلاحظ مما سبق أن أبا جهل، قد فوّت على نفسه، وعلى زملائه الفرصة الأخيرة التي أُتيحت لهم، والتي كان بالإمكان اغتنامها، وإعلان الإيمان من خلالها على يدي الرسول ﷺ، فيما لو رجعوا إلى العقل والضمير والمنطق الصائب، ولكن بصائرهم عميت عن الحق كعادتهم، فضيّعوا على أنفسهم هذه الفرصة الأخيرة، وبقوا على الشرك والكفر والضلال. وهيهات أن تتوافر لهم مثل هذه الفرصة كرّةً أخرى... وحتى لو توفّرت لهم ذلك فلن يغيّروا موقفهم أبدًا...

---

(١) ابتزّ أمره: سلبه إياه وغلبه عليه. (٢) وفي نسخة أخرى: يا عم.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٤١٧.

ذكر أبي جهل في هجرة عامر ابن ربيعة
وهجرة بني جحش إلى المدينة

كان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش، من بني مخزوم، أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم[(١)].

قال ابن إسحـٰق:

(ثم كان أوّل من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة: عامر ابن ربيعة، حليف بني عدي بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عُبيد بن عدي بن كعب، ثم عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مُرّة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، حليف بني أُمية بن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش، وهو أبو أحمد ـ وكان أبو أحمد رجلًا ضرير البصر، وكان يطوف مكّة، أعلاها وأسفلها، بغير قائد، وكان شاعرًا، وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان، وكانت أُمّه أُميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، فغُلّقت دار بني جحش هجرة، فمرّ بها عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة، وهي دار أبان بن عثمان اليوم التي بالرَّدم[(٢)]، وهم مُصعدون إلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابًا[(٣)] ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفّس الصعداء، ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها ... يومًا ستدركها النكباء والحُوب

(قال ابن هشام: وهذا البيت لأبي دُاود في قصيدة له. والحُوب: التوجّع، وهو في موضع آخر: الحاجة، ويقال الحوب: الإثم).

قال ابن إسحـٰق: ثم قال عتبة بن ربيعة: أصبحت دار بني جحش خلاءً من أهلها!!

فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من قُلّ بنِ قلّ.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٤٦٨.

(٢) الردم: موضع بمكة. (٣) اليباب: القفر.

قال ابن هشام: القُلّ: الواحد، قال لبيد بن ربيعة:

كـل بـنـي حـرّة مـصـيـرهـم قُـلّ وإن أكـثـرت مـن الـعـدد

قال ابن إسحٰق: ثم قال: هذا عمل ابن أخي هذا، فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وقطع بيننا!!

فكان منزل أبي سلمة بن عبد الأسد، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأخيه أبي أحمد بن جحش، على مبشر بن عبد المنذر بن زنير بقُباء في بني عمرو بن عون، ثم قدم المهاجرون أرسالًا[(١)]، أي جماعة إثر جماعة.

تغرير أبي جهل والحارث بن ربيعة بعياش بن أبي ربيعة

وهذه لقطة تاريخية سوداء، أخرى، لأبي جهل، تصوّره لنا فيها، في غاية اللُّؤم والغدر، وهو يضع العراقيل المانعة أمام رجال الهجرة، فقد ذكر لنا مؤرّخ السيرة النبوية لابن هشام ذلك وتحت موضوع (هجرة عمر وقصة عياش)، فورد في كتابه ما يلي:

(قال ابن إسحٰق: ثم خرج عمر بن الخطاب، وعيّاش بن أبي ربيعة المخزومي حتى قدما المدينة، فحدّثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتّعدتُ، لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب[(٢)] من أضاة[(٣)] بني غفار فوق سَرِف[(٤)]، وقلنا: أيّنا لم يصبح عندها فقد حُبِس فليمضِ صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحُبس عنّا هشام، وفُتِنَ فافتتن، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُباء، وخرج أبو جهل، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمّهما وأخاهما لأمّهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكّة، فكلّماه وقالا: إنّ أمك قد نذرت

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الثاني ص ٤٧١، ٤٧٢.

(٢) قال أبو ذر: «التناضب» يقال: هو اسم موضع، ومن رواه بالكسر، فهو جمع تنضب وهو شجر، واحدته تنضبة، وقيّده الوقشي. «التناضب» بكسر الضاد، كما ذكرنا.

(٣) أضاة بني غفار: على عشرة أميال من مكة.

(٤) سرف: موضع على ستة أميال من مكة (راجع شرح السيرة لأبي ذر، ومعجم البلدان، ومعجم ما استعجم للبكري).

أن لا يمسّ رأسها مُشط حتى تراك، فرقّ لها، فقلت له: يا عيّاش، إنه والله أن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمّك القملُ لامتشطت، ولو قد اشتدّ عليها حرّ مكة لاستظلّت. قال: فقال: أبرّمتم أمّي، ولي هنالك مال فآخذه، قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالًا، فلك نصفُ مالي ولا تذهب معهما، قال: فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أمّا قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، فانْجُ عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتي هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخا ليتحوّل عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكّة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني به بعض آل عيّاش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا مكّة دخلا به نهارًا موثقًا، ثم قالا: يا أهل مكّة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني نافع، عن عبد الله بن عمر، عن عمر في حديثه، قال: فكنّا نقول: ما الله بقابلٍ ممن افتتن صَرْفًا، ولا عدلًا، ولا توبة، قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاءٍ أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم... فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: الآيات ٥٣ - ٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاصي، قال: فقال هشام بن العاصي: فلمّا أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى[1]، أُصعد بها فيه وأصوّب ولا أفهمها، حتى قلت: اللّهمّ فهّمنيها، قال:

---

(١) ذو طوى (مقصورًا) موضع بأسفل مكّة.

فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أُنزلت فينا، وفيما كنّا نقول في أنفسنا ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة.

قال ابن هشام: فحدّثني من أثق به: أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: مَنْ لي بعيّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكّة، فقدمها مستخفيًا، فلقي امرأة تحمل طعامًا، فقال لها: أين تريدين يا أمَة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين - تعنيهما - فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيتٍ لا سقف له، فلما أمسى تسوّر عليهما، ثم أخذ مَرْوة[1] فوضعها تحت قيديهما ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه: «ذو المروة» لذلك، ثم حملهما على بعيره، وساق بهما، فعثر فدميت أصبعُه، فقال:

هـل أنـتِ إلا أصـبـعٌ دميـتِ وفـي سـبـيـل الله مـا لـقـيـتِ

ثم قَدِمَ بهما على رسول الله ﷺ المدينَة[2].

اجتماع أبي جهل وزعماء قريش في دار كندة لمنع هجرة الرسول ﷺ من مكّة إلى المدينة

قال ابن إسحٰق: لما رأى كفار قريش هجرة الصحابة وعرفوا أنه صار له ﷺ أصحاب من غيرهم فحذروا خروجه، وعرفوا أنه أجمع لحربهم، فاجتمعوا في دار الندوة[3] وهي دار قصي بن كلاب، وسمّيت بذلك لاجتماع الندى فيها يتشاورون، وكانت قريش لا تقضي أمرًا إلّا فيها ولا يدخلون فيها غير قريش إلى

---

(١) المروة: الحجر.

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الثاني ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦.

(٣) (وقد اجتمع فيها أشراف قريش: من بني عبد شمس: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، ومن بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل، ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن حارث بن كلدة، ومن بني أسد عبد العزى: أبو البختري ابن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام، ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام، ومن بني سهم: نُبيه ومنبه ابنا الحجّاج، ومن بني جُمَح: أمية بن خلف، ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يُعدّ من قريش). راجع سيرة ابن هشام، المجلد الأول ص ٤٨١.

أن يبلغ أربعين سنة بخلاف القرشي، وقد أدخلوا أبا جهل واجتمعوا يوم السبت، ولذا ورد يوم السبت مكر وخديعة، ومعهم إبليس في صورة شيخ نجدي، وذلك أنه وقف على باب الدار في هيئة شيخ جليل عليه بت، قيل: كساء غليظ أو طيلسان من خزّ، فقالوا: من الشيخ! فقال: من نجد، سمع بالذي قعدتم له فحضر ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم رأيًا ونصحًا!! قالوا: ادخل، فدخل فتشاوروا في أمر النبيّ ﷺ وكانوا مائة رجل، وقيل: كانوا خمسة عشر رجلًا، فقال أبو البحتري المقتول كافرًا ببدر، احبسوه في الحديد، واغلقوا عليه بابًا ثم تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله!!

فقال النجدي: ما هذا برأي والله لو حبستموه في الحديد ليخرجنّ من أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبتوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكابروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا برأي، فانظروا في غيره!!

فقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو العامري: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فلا نبالي إلى أين ذهب... فقال النجدي لعنه الله: ما هذا برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحلّ على حيّ من العرب، فيغلب بذلك عليهم من قوله حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم إليكم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أدبروا فيه رأيًا غير هذا!!

فقال أبو جهل: والله إنّ لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتًى شابًا جلدًا نسيبًا وسيطًا ثم يعطى كل فتًى منهم سيفًا صارمًا ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربةً رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، ويتفرّق دمه في القبائل فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فتعقله لهم...

فقال النجديّ لعنه الله: القول ما قال، لا أرى غيره...

فأجمع رأيهم على قتله، وتفرّقوا على ذلك، ثم أتى جبريل النبيّ ﷺ، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه!! فلما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه، حتى ينام، فيثبوا عليه، فأمر ﷺ عليًا فنام مكانه، وغطّي ببردةٍ له ﷺ أخضر كان يشهد به الجمعة والعيدين بعد ذلك عند فعلهما، فكان أوّل من شرى نفسه في الله ووفى بها رسول الله ﷺ، وفي ذلك

يقول ﷺ (شعر)[1]:

وقيت بنفسي خير من وطئ الثرى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول إلـه خاف أن يمكروا به ... فنجّاه ذو الطول الإلـه من المكر
وبات رسول الله في الغار آمنًا ... موقى وفي حفظ الإلـه وفي ستر
وبتّ أراعيهم وما يتهمونني ... وقد وطنت نفسي عن القتل والأسر

ثم خرج ﷺ من الباب عليهم، وقد أخذ الله على أبصارهم، فلم يره أحد منهم، ونثر على رؤوسهم كلهم ترابًا كان في يده وهو يتلو قوله: ﴿يسٓ ①﴾ [يس: الآية ١] إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: الآية ٩]. . . انصرف حيث أراد، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هٰهنا!! قالوا: محمد! قال: خيّبكم الله، والله خرج عليكم، ما ترك منكم رجلًا إلّا وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، فما ترون ما بكم!! فوضع كل يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلّعون فيرون عليًا على الفراش، متسجّيًا ببُرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده، فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليّ من الفراش، فقالوا: لقد صدقنا الذي كان حدّثنا، وفي هذا نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ. . .﴾ [الأنفال: الآية ٣٠]. . . الآية.

«شعر»:

لا تجزعن فبعد العسر تيسير ... وكل شيء له وقت وتقدير
وللمقدّر في أحوالنا نظر ... وفوق تدبيرنا لله تدبير

ثم أذِنَ الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ في الهجرة، فقال ابن عباس بقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ⑧⓪﴾ [الإسراء: الآية ٨٠]، وأمره جبريل أن يستصحب أبا بكر ﷺ.

(وروى) الحاكم عن عليّ ﷺ أن النبيّ ﷺ قال لجبريل: من يهاجر معي!! قال: أبو بكر الصديق. . . وأخبر عليًا بمخرجه وأمر بأن يتخلّف بعده حتى يؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، قالت عائشة ﷺ: فبينما نحن جلوس يومًا

(١) الأبيات موجودة في الديوان المنسوب للإمام عليّ ﷺ كذلك، [في قافية الراء].

في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، أي أول الزوال، وهو أشدّ ما يكون من حرارة النهار، (وروى) الطبراني في حديث أسماء: كان النبيّ يأتينا بمكّة كل يوم مرتين بكرةً وعشيّة، فلما كان يوم من ذلك، جاءنا في الظهيرة، فقلت: يا أبتِ هذا رسول الله ﷺ متقنّعًا، أي مغطّيًا رأسه في ساعة لم يكن يأتينا فيها!! قال أبو بكر ﷺ: فدى له أبي وأمّي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلّا أمر، قالت عائشة ﷺ: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له أبو بكر، فدخل فتنحّى أبو بكر عن سريره، وجلس عليه رسول الله ﷺ، فقال لأبي بكر: أخرج من عندك!! فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، يعني عائشة وأسماء... وفي رواية: فقال أبو بكر: لا عين عليك إنما هم ابنتاي، فقال ﷺ: فإنه قد أُذن لي في الخروج،... فقال أبو بكر: الصُحبة بأبي أنت وأمّي يا رسول الله!! قال ﷺ: نعم... قالت عائشة ﷺ: فرأيت أبو بكر يبكي وما كنت أحسب أحدًا يبكي من الفرح، فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين... قال ﷺ: لا بل بالثمن... وفي رواية، فقال: بثمنها إن شئت... وإنما أخذها بالثمن لتكون هجرته ﷺ إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام في استكماله فضل الهجرة إلى الله تعالى... فقالت عائشة: فجهزناهما أحثّ، أي أسرع الجهاز، وفي رواية: أحبّ الجهاز، ووضعنا لهم سفرة، أي زاد، في جراب... زاد الواقدي: أنه كان في السفرة شاة مطبوخة... قالت: فقطعت أسماء قطعة من نطاقها، فربطت بها على فم الجراب، فبذلك سمّيت ذات النطاقين، تثنية نطاق بكسر النون: ما يشدّ به الوسط... قالت عائشة ﷺ: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار ثور فسكنا فيه ثلاث ليال، وهو جبل بمكّة، نزله ثور بن عبد مناة فنسب له... (وروى): أنهما خرجا من خوخة، أي باب صغير لأبي بكر في ظهر بيته ليلًا إلى الغار... ورُوي: أن أبا جهل لقيهما، فأعمى الله بصره عنهما حتى مضيا... قالت أسماء بنت أبي بكر: وخرج أبو بكر بماله خمسة آلاف درهم، ولما فقدت قريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكّة أعلاها وأسفلها وبعثوا القافة، جمع قائف، وهو الذي يعرف الأثر في كل وجه، فوجد الذي ذهب جهة ثور أثره هناك فلم يزل يتبعه حتى انقطع الأثر، لما انتهى إلى ثور، شقّ على قريش خروجه، وجزعوا لذلك، وجعلوا مائة ناقة لمن ردّه، وروى القاضي عياض أنه ﷺ ناداه ثبير: اهبط عني، فإني أخاف أن تُقتل على ظهري فأعذّب، فناداه حراء: إليّ يا رسول الله، ورُوي: أنه لما دخل الغار وأبو بكر معه أنبت الله على بابه الراءة، وهي شجرة معروفة بأُم

غيلان، فحجبت عن الغار أعين الكفّار، وأن الله عزّ وجلّ أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيّتين فوقفتا على وجه الغار، فعششتا على بابه، وأن ذلك مما صدّ المشركين عنه، وأن حمام الحرم من نسل تلك الحمامتين جزاءً وفاقًا لما حصل بهما الحماية جوزيا بالنسل وحمايته في الحرم فلا يُتعرّض له...

ثم أقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وهواويهم وسيوفهم، فجعل بعضهم ينظر في الغار، فرأى حمامتين وحشيّتين بفم الغار فرجع إلى أصحابه، فقالوا: ما لك! فقال: رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد، فسمع النبيّ ﷺ ما قال، فعلم أن الله قد درأ عنه... وقال آخر: ادخلوا الغار!! فقال أُمية بن خلف: وما أربكم!! أي حاجتكم إلى الغار!! إنّ فيه لعنكبوتًا أقدم من ميلاد محمد، لو دخل لكسر البيض وتفسّخ العنكبوت، وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود، فتأمّل كيف أظلّت الشجرة المطلوب، وأضلّت الطالب، وجاءت عنكبوت فسدّت باب الطلب، وحاكت وجه المكان، فحاكت ثوب نسجها حتى عُمي على القائف الطلب، ولقد حصل لها بذلك الشرف، وما أحسن قول ابن النقيب:

ودود القزّ إن نسجت حريرًا يجمل لبسه في كل شي
فإن العنكبوت أجلّ منها بما نسجت على رأس النبيّ

(وروى) الشيخان عن أنس، قال: فحدّثني أبو بكر قال: قلت للنبيّ ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا!! فقال له رسول الله ﷺ: «ما ظنّك باثنين الله ثالثهما»... وذكر له ﷺ: لو جاؤونا من هاهنا، لذهبنا من هٰهنا... فنظر الصدّيق ﷺ إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر اتّصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه... وعن الحسن البصري بلاغًا: أن أبا بكر ليلة انطلق معه ﷺ إلى الغار، وكان يمشي بين يديه ساعة، ومن خلفه ساعة، فسأله فقال: اذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الرصد فأمشي أمامك... فقال: لو كان شيء أحببت أن تُقتل دوني!! قال: والذي بعثك بالحق!! فلما انتهيا إلى الغار، قال: مكانك يا رسول الله حتى استبرئ لك الغار، فاستبرأ، فجعل يلتمس بيده، فكلّما رأى جحرًا قطع من ثوبه، وألقمه الجحر، حتى فعل ذلك بثوبه أجمع، فبقي جحر، فوضع عقبه عليه لئلا يخرج ما يؤذي رسول الله ﷺ، فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجر أبي بكر ونام فلُدغ أبو بكر في رجله ولم

يتحرك لئلّا يوقظ المصطفى ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: ما لك يا أبا بكر؟ قال: لُدغت فداك أبي وأمّي، فتفل عليه رسول الله ﷺ، فذهب ما يجده، ولقد أحسن حسان بن ثابت ﷺ حيث قال:

وثاني اثنين في الغار المنيف ... وقد طاف العدوّ به إذ صاعد الجبلا

وكان حبّ رسول الله قد علموا ... من الخلائق لم يعدل به بدلا

وكان خروجه ﷺ من مكّة يوم الخميس، وخرج من الغار ليلة الاثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليالٍ، وذلك من أول ربيع الأول ودخل المدينة يوم الجمعة اثنتي عشر ليلة خلت منه[١]...

وهكذا وقفت الألطاف الإلـهية مع النبيّ محمد ﷺ ورفيقه في الهجرة أبو بكر ﷺ، ووصلا بعد ذلك بسلام وأمان إلى المدينة المنوّرة، وخيّب الله مساعي زعماء الشرك وأحبط خططهم الخائبة، وعلى رأسهم أبو جهل أحيمق بني مخزوم.

لقد لاحظنا مما سبق أن القوم دخلوا في جدل ونقاش حول إيجاد طريقة معيّنة لمنع الرسول ﷺ من هجرته المباركة، لأن في ذلك خطورة أيّما خطورة على تراثهم وتقاليدهم ومراكزهم، وكل منهم أدلى برأيه في اجتماعهم المنحوس تحت سقف دار الندوة، دار الشرك والضلال، وحاروا... وأخيراً أجمعوا رأيهم المظلم على رأي أبو جهل وحماقته مضافًا إليهم رأي الشيخ النجدي إبليس، في الاتفاق القاضي على قتل النبيّ ﷺ جماعيًا والتخلّص منه وتفريق دمه بين القبائل والبطون... هذا هو الرأي الذي رسمته لهم أفكار أبو جهل المريضة، حيث اقترحها عليهم، ومضوا به بصورة عميائية، ولما جاء وقت تنفيذ هذه العملية الغادرة، خابت مساعيهم، لما وجدوا أن الرسول ﷺ غير موجود بشخصه في المكان المعيّن الذي كانوا يرصدونه به... فأظلمت الدنيا في عيني أبو جهل وبقية المشركين وفقدوا عقولهم، وترى القوم سكارى وما هم بسكارى، وسعوا في كل جهةٍ وصوب إلى الكشف عن حقيقة مكان الرسول الذي اختبأ به، وذلك للظفر به، بأسرع وقت، وقبل فوات الأوان، وقبل وصوله إلى المدينة...

(١) راجع مكاشفة القلوب ص٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٦، وكذلك السيرة النبوية لابن هشام والسير والمغازي لابن إسحٰق ومختلف كتب السِّيَر.

فذهب أبو جهل وهو كالمجنون مسرعًا إلى دار أبي بكر الصدّيق، ليتحرّى حقيقة الخبر بنفسه، فطرق الباب، وخرجت أسماء بنت أبي بكر وسألها عن والدها فأجابت بأنها لا تعلم، فلطمها أبو جهل وضربها ضربةً مؤلمة إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على حقده العميق والجرح النفسي البليغ الذي أُصيب به من الأعماق، وتدلّ أيضًا على جبن أبو جهل وضحالة نشأته وتربيته وأخلاقه، لأنه ليس من مقاييس الرجولة العربية في عرب قريش ومكّة والقبائل، القيام بضرب النساء، كالحالة الشاذّة التي اقترفها أبو بكر بحقّ فتاة كريمة، أعزل، وأمام دارها، وليس لها معين. . . إذْ في ذلك خروج عن التقاليد العربية وقيم الفروسية المتوارثة التي تضمن للمرأة احترامها وتقديرها في مختلف الظروف، وفي ظلّ أنواع الحالات والحوادث. . .

ينقل لنا ابن إسحٰق، في موضوع ضرب أبو جهل لأسماء، فيقول:

. . . «فحُدِّثْتُ عن أسماء بنت أبي بكر أنّها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشًا خبيثًا، فلطم خدّي لطمةً طرح منها قرطي»[(١)]، انتهى كلام السيدة أسماء، وعلى القارئ أن يتصوّر قوة الضربة الموجعة التي كالها لهذه الفتاة الصامدة المجاهدة.

ركوب سُراقة أثر الرسول ﷺ ولوم أبي جهل له

قال ابن إسحٰق: وحدّثني أن عبد الرحمٰن بن مالك بن جُعشم حدّثهُ عن أبيه، عن عمّه سُراقة بن مالك بن جعشم[(٢)]، قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكّة مهاجرًا إلى المدينة، جعلت قريش فيه مئة ناقة لمن ردَّه عليهم، قال: فبينا أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجلٌ منّا، حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مرّوا عليّ آنفًا، إني لأراهم محمّدًا وأصحابه، قال: فأومأت إليه بعيني، ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي، فقيّد لي إلى بطن الوادي، وأمرت

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص٤٨٧.

(٢) وينتهي نسب سراقة إلى بني مدلج، وهم بنو مدلج بن مرة بن تيم بن عبد مناف بن كنانة (راجع المقتضب، والمعارف، والاستيعاب، والروض).

بسلاحي، فأخرج لي من دبر حجرتي، ثم أخذت قداحي التي استقسم بها، ثم انطلقت فلبست لامتي[١]، ثم أخرجت قداحي، فاستعسمت بها، فخرج السهم الذي أكره «لا يضره»[٢]، قال: فأبيت إلا أن أتبعه، قال: فركبت في أثره، فبينا فرسي يشتدّ بي، عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره «لا يضره»، قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعها دخان كالإعصار[٣]، قال: فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنع مني، وأنه ظاهر، قال: فناديت القوم، فقلت: أنا سُراقة بن جُعْشم، انظروني أكلّمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ: قل له: وما تبتغي؟ قال: فقال ذلك أبو بكر، قال: قلت: تكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينك، قال: اكتب له يا أبا بكر، قال: فكتب لي كتابًا في عظم، أو في رقعة، أو في خزفة، ثم ألقاه إليّ، فأخذته، فجعلته في كنانتي، ثم رجعت، فسكت فلم أذكر شيئًا ممّا كان حتى إذا كان فتح مكّة على رسول الله ﷺ، وفرغ من حنين والطائف، خرجت ومعي الكتاب لألقاه فلقيته بالجعرانة[٤]، قال: فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار، قال: فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك، إليك، ماذا تريد؟ قال: فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله لكأني أنظر إلى ساقه في غرزه[٥]، كأنها جُمّارة، قال: فرفعت يدي بالكتاب، ثم قلت: يا رسول الله، هذا كتابك لي، أنا سراقة بن جعشم، قال: فقال رسول الله ﷺ: يوم وفاء وبرّ، اُدْنُهْ. قال: فدنوت منه، فأسلمت. ثم تذكرت شيئًا أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أني قلت: يا رسول الله، الضالّة من الإبل تغشى حياضي، وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال: نعم، في كل ذات كبد حرّي أجر. قال: ثم رجعت إلى قومي، فسُقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي[٦].

(١) اللامة: الدرع والسلاح.
(٢) لا يضرّه: أي السهم المكتوب فيه هذه الكلمة.
(٣) الإعصار: ريح معها غبار.
(٤) الجِعرانة (بكسر أوّله، وقيل: بكسر عينه، وتشديد رائه): ماء بين الطائف ومكّة، وهي إلى مكّة أقرب (راجع معجم البلدان).
(٥) الغرز للرحل: بمنزلة الركاب للسرج.
(٦) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الثاني ص٤٨٩ ـ ٤٩٨.

هذه قصة سراقة التي دعتنا الضرورة أن نكتبها لنبيّن للقارئ فيما بعد شيئًا يتعلق بأبي جهل فيها، وهو أن سُراقة لما رجع إلى قومه في المرة الأولى قبل أن يفتح الله على الرسول ﷺ مكّة ويفرغ من حنين والطائف، فيحكى في هذه الفترة، وقبل إسلام سُراقة، أن أبا جهل لَامَ سراقة حين رجع بلا شيء، فقال سُراقة:

أبا حكم، والله لو كنت شاهدًا ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمّدًا ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه
عليك بكفّ القوم عنه فإنني ... أرى أمره يومًا ستبدو معالمه
بأمرٍ يودّ الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طرًّا يسالمه

ملاحم بين علي ﷺ وأبي جهل بعد هجرة الرسول ﷺ

أمر الرسول ﷺ عليًا ﷺ أن يبيت على سريره ليلة الهجرة المقرّرة مع أبي بكر الصدّيق ﷺ، وقد أوعز إليه أن يستخلف عنه في مكّة، ويتريّث عن اللحاق بهم بالمدينة والهجرة إليها، وذلك لكي يقوم بإرجاع الأمانات والودائع إلى أهلها في مكّة، والتي كانت مستأمنة عند النبيّ ﷺ قبل هجرته إلى المدينة... فقام الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه بالواجب المكلّف به خير قيام في نيابته عن الرسول ﷺ المذكورة...

ومما يجدر بنا الإشارة إليه في هذا الصدد، ومن ثمّ تسجيله في الكتاب، هو ما دار بين عليّ ﷺ وأبو جهل لعنه الله من مناوشات وصراعات، حيث استغل أبو جهل الفرصة بعد غياب محمد عن ساحة مكّة لتركيز الانتقام من نائبه عليّ بن أبي طالب وتوجيه سهام الحقد والإزعاج والغدر ضدّه، وتفريغ جميع شحنات حسده وخبثه على محمّد ﷺ والإسلام في صورة عليّ بن أبي طالب، الذي ظلّ على عهده لرسول الله ﷺ يناضل ويكافح وحده بالميدان دون خوف أو ملل... إلى أن نصره الله على أبي جهل وبطانته، وارتحل عن مكّة إلى المدينة مهاجرًا لله ورسوله، وسلك طريقه إلى النبيّ ﷺ وصحابته، وقلبه مليء بالإيمان والثقة واليقين وطاعة الله ورسوله ﷺ، تاركًا وراءه أبو جهل في غيّه وضلاله وخبثه وكفره، وقد غلبه الغيظ وأحرق كبده الحزن والألم، من نجاح الدعوة المحمّدية الهادية.

ولتوثيق كلامنا عن الصراع بين عليّ ﷺ وأبو جهل، نستشهد بالروايات التاريخية التالية، لنستنتج منها الحقائق الأساسية التي أشرنا إليها من خلال تحليلنا للحالات التي أكّدنا عليها عن الموضوع.

ولنذكر أيضًا أن أبا جهل كان ينظر إلى عليّ منذ صغره نظرة مليئة بالخوف والوجس، والحذر من بطشه وصولته، فما جاء في هذا الصدد كما ورد في كتاب «مولد بطل الإسلام»:

قال الراوي: وكان عليّ ﷺ يومئذٍ غلامًا حدثًا صغير السنّ، وكان يصرع الرجل الشديد ويأخذ البطل العظيم يمراق بطنه ويجلد به الأرض، وكان يخرج مع النبيّ ﷺ إلى الأبطح فيأخذ من رأس جبل أبي قبيس حجرًا عظيمًا على يد واحدة، ويأتي به في الأبطح ويضعه في أوساط قريش وينادي: يا معاشر قريش إني قد أتيت بهذه الصخرة من رأس هذا الجبل فردّوه إلى مكانه، فلم يقدروا أن يحرّكوه، فقال أبو جهل لعنه الله: يا معاشر قريش وحقّ اللات والعزّى والهبل الأعلى لئن بلغ هذا الغلام، يعني عليّ ﷺ مبالغ الرجال ليظهرنّ عليكم منه الأهوال، وليتلقنّ الصغار قبل الكبار، وليجدن الفرسان والأبطال، فإني أرى الفروسية تلوح وتظهر له في محاليق عينيه والشجاعة تنطق عن شمائله، فإن صفى لكم فزتم بمولاته، وإن عاد لكم هلكتم من عداوته...

ثم أنشأ شعرًا:

إنــي لأعــلم والأيــام تــظــهــره	والأمر يظهر ما يخفى من النكر
إني أرى في الوغى ريح بكم نزلت	هـبـوبـهـا لائـح في سـائـر الـبـشـر
مَن كان في كنف منّا تسالمه	ومـن يـعـاديـهـا تـرمـيـه بـالـشـرر
فاخمدوا نارها من قبل شملها	وأفـلـقـوا هـامـة بـالـصـارم الـذكـر
يا أهل مكّة إن الريح عندكم	هذا الغلام الذي قد حلّ في البشر
كـونـوا عـلى حذرٍ مـنـه فإنّ لـه	بأسًا سيظهره في البدء والحضر

قال: فتعجّبت قريش من مقالة أبي جهل لعنه الله، وقالوا له: ما عسى أن يفعل بنا هذا الغلام وقد ربّيناه في حجورنا وحملته نساؤنا بين ظهورنا!!

فقال أبو جهل: سوف تعلمون من فعله فيكم. . .وكان متوقّعًا منه البلاء!!
فقال أبو جهل: أوَليس هذا عليّ بن أبي طالب[1]؟!!

قال الراوي: فلمّا عزم رسول الله ﷺ على الهجرة إلى يثرب، وكان اسمه عند قريش الصادق الأمين، وكان منزّهًا عندهم من الخيانة والكذب، وكانوا يتحاكمون عنده فيحكم فيهم بالحقّ، وصارت الناس تودعه أموالهم وتأتيه بذخائرهم، وكان (من)[2] تقدّم من البادية والتجارة من الحاضرة، فيسألون أهل مكّة عن من يُعرف بالودائع!! فقيل لهم: عليكم بالصادق الأمين محمّد بن عبد الله ﷺ، فإنه صاحب الودائع مبارك مأمون، وذلك شأنه الصدق والأمانة عندهم إلى أن ارتضاه الله للرسالة وهو على مرتبة عالية عند قريش وما هم من الاختلاف في دينه، فما أن أُرسل وبعثه الله بالرسالة كذّبوه وأرادوا قتله، في تلك الليلة أمره الله تعالى بالهجرة إلى طيبة، فلما عزم النبيّ ﷺ (مع صاحبه أبو بكر ﷺ) على التغييب في الغار، دعا بعليّ بن أبي طالب ﷺ وضمّه إلى صدره وقال له (كلام) منه: . . .وإني سائر إلى يثرب ومخلفك ورائي على نسائي وأولادي وأهل بيتي لتقوم فيهم مقامي، وهذه ودائع قريش والعرب من الحاضرة والبادية، فاحفظها واعلم أن كل وديعة مكتوب عليها اسم صاحبها واسم أبيه ووزنها كذا وكذا، فإذا أنا خرجت وعلمت أني وصلت يثرب وشاع خروجي في قبائل قريش، فإنهم يأتون ليطلبوا ودائعهم، واعطِ كل ذي حقّ حقّه، ثم تأهّب للحوق بي، فإني سأبعث إليك إن شاء الله تعالى بكتابي عند رسولي، وعليك بِقُرَّة عيني فاطمة الزهراء، فقد علمتَ كرامتها عندي، فهي وديعتي عندك، وأزواجي، فاستوصِ بهم خيرًا، وآتني بالفواطم، وهي فاطمة ابنتي وفاطمة أمّك، وفاطمة بنت الزبير، وفاطمة بنت عبد المطلب، فإنك من طينتي، وأنا من طينتك، وقد خلقت أنا وأنت من واحد، ثم عانقه وودّعه، وخرج إلى الغار وهو غار حِراء وقت ظلمة العشاء ـ وكان بصحبته أبو بكر الصدّيق ﷺ ابن أبي قماقة ـ [ثاني انين إذ هما في الغار]، قال: فجاءت قريش وأحاطوا ببيته ليقتلوه، فأخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب وقرأ عليها: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾

(١) راجع مولد بطل الإسلام ص٧٥، ٧٦، ٧٧.
(٢) زيادة يقتضيها النص، ليست موجودة في الأصل.

[يٓس: الآية ٩]، ورماهم بها ومضى من بين أيديهم فلم يروه، وسار هو وصاحبه أبو بكر ﷺ [في طريقهما إلى غار حراء]...

قال الراوي: ثم أقبل إلى فراش النبيّ ﷺ مائة ألف فارس وسيوفهم مجذوبة، ثم إنهم أشرفوا على البيت فرأوا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه نائمًا وهمّوا أن يقذفوه بالحجارة، ولم يشكّوا إلا أن النبيّ ﷺ في فراشه، فلما برق الفجر، خافوا الفضيحة من بني هاشم، فهجموا عليه بالسيوف ليقتلوه، وكانت مكّة يومئذٍ بغير أبواب، فلما رأى عليّ ﷺ برق سيوفهم... صاح عليهم صيحة عظيمة وصرخ في وجوههم، وقال: إلى أين يا بني الأنذال هلمّوا إليّ أجرعكم كؤوس المنايا!! فانهزموا من بين يديه يدقّ بعضهم بعضًا (ومن ضمنهم أبو جهل)، وهم يقولون: يا ابن أبي طالب ما أتينا لحربك ولا لقتالك، وساروا من وقتهم وساعتهم يطلبون النبيّ ﷺ.

وفي حديثٍ آخر: إن النبيّ ﷺ بقي هو وصاحبه «أبو بكر ﷺ» ثلاثة أيام، فلما كان في الليلة الرابعة ذهب عليّ ﷺ إلى الغار، فلما رآه النبيّ ﷺ ابتهج فقال له: أهلًا وسهلًا بالأخ الوفي، ثم أمره بأداء دينه وأمانته وأمره أن ينادي في الأبطح ليلًا ونهارًا: ألَا ومن كان له عند رسول الله ﷺ أمانة فليأتِ أنا أعطيه إياها... ثم قال: يا عليّ: أدّ أمانتي على رؤوس الأشهاد لعلّهم يشهدون، وأمره أن يوطي رواحل للفواطم ويأتي بهنّ، ومن يهاجر معه من بني هاشم، ثم قال: يا عليّ هاجر بعد قدوم كتابي عليك ثم اعتنقا وافترقا... محمّد يؤمّ المدينة وعليّ يؤمّ مكّة، ثم إنّ عليًا ﷺ أنشأ يقول شعرًا:

وقيت بنفسي خير من وطأ الثرى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
محمّد لما خاف أن يمكروا به ... فوقاه ربّي ذي الجلال من المكر
وبتّ أراعيهم متى يأسرونني ... وقد وطنت نفسي للقتل والأمر
وبات رسول الله في الغار آمنًا ... هناك وفي حفظ الإلـه وفي ستر
أقام ثلاثًا ثم زمت قلائصًا ... على البعد يطوين المهامة والفقر

وقيل: لما وصل النبيّ ﷺ إلى طيبة، قال: ما أشتهي أن أدخل المدينة حتى يقدم عليّ بن أبي طالب، قال ابن اليقظان: ثم إن النبيّ ﷺ كتب إلى ابن عمّه كتابًا يأمره بالتوجّه إليه، قال: فلما علمت قريش أن النبيّ ﷺ قد نجا سالمًا ووصل المدينة، ماجَ الناس، واجتمعت الرجال والنساء زُمرًا زُمرًا، من كل جانب

ومكان، واجتمعت قريش في الأبطح وكل من كان له عند رسول الله ﷺ وديعة، ولم يكن له شيء، ثم قام عقبة بن أبي معيط ونادى بأعلى صوته: يا معاشر قريش أترضون بما فعله فيكم ابن كبشة يتيم أبي طالب وإساءته إليكم مرة بعد أخرى، فأحلف باللات والعزّى والهبل الأعلى أنه قد أعمكم بالعار والشنار، ولعب بعقولكم حتى أذلّ ساداتكم وأزالكم عن ما مضى عليه آباؤكم على السداد والرشاد، ولم يرضَ بذلك منكم حتى سلمتم إليه أموالكم وأودعتموه ذخائركم وسمّيتموه الصادق الأمين حتى وطأ أعناقكم وخرج من بين أظهركم، فأين أمائنكم وأمانته!! وأين صدقه فيما أودعتموه إياه!! أفٌ لكم من سادة وتعسًا لكم من قادة، فلا لأنفسكم غضبتم ولا لآلهتكم نصرتم، وقد أثار محمّد ما قلبي كامنًا ثم إنه قهقه ضاحكًا وأنشأ لعنه الله يقول:

بُعْدًا وسحقًا لقد ضلّت عقولكم ... وبان حكمكم للسيّد السند
قد بان جهلكم مع كذب صاحبكم ... تبًا لكم فأبشروا بالويل والكمد
إنّ الأمين مضى بالمال يفرقه ... لعصبة تأتكم بالخيل والعدد
فسِحره عن قليل سوف يشملكم ... فأين ملجأكم من صولة الأسد

قال: فلمّا سمع عليّ كرّم الله وجهه انقضّ عليه كانقضاض النجم من السماء، وهجم عليه، وهو كان جالسًا مع عمّه العباس ﷺ، وانتضى سيفه من غمده، وقال له: يا بن الأرجاس بمثل هذا، الكلاب تتكلّم في رسول الله!! أتقايس محمّدًا بنفسك ثم تقايس عبد المطلب حاكم البلد من البدو والحضر وقاضي العرب، بأبيكم شرّ الأمم، وإنما أنت علجٌ من علوج اللّئام، ومحمد ﷺ مطهّر من الأدناس والرذائل، وقد ظهرت له الآيات وبانت منه المعجزات، فمن عادانا ندم، ومن والانا سَلم، إنْ كان رسول الله ﷺ خرج!! خرج في طاعة الله تعالى، وأما أنا أخوه وابن عمّه والمخلوق من طينته وخليفته على أُمّته وفي ذرّيته وأمانته، فأدفع لكم ما أودعتموه محمد ﷺ، فإنها أقلّ وأذلّ وأحقر وأصغر من جناح بعوضة، أتظن يا أبا معيط أن محمّدًا يرغب في ودائعكم وأماناتكم، هيهات هيهات، وإن الله تعالى قد أعطاه كنوز الأرض درًّا وجوهرًا وذهبًا فما كبرت في عينيه، بل كان في آخرته أشوق وفي أمامه أرغب وأنت صاغرًا مخزيًا، ثم إن علي ﷺ أنشأ بهذه الأبيات:

ما زال جمعكم في حندس عكر ... وفي بحار طمت مخضرّة الزبد

حتى أتاكم رسول الله مبتدرًا — أضحت مصابيحه في سائر البلد
يدعوكم مرشدًا في قوله شفقًا — يا قوم، فاعتصموا بالواحد الأحد
فهو الأمين أمين الله خالقنا — وأصدق الخلق في قرب وفي بُعد
إن كان قد غاب إيجابًا لخالقه — أنا خليفته في الأهل والولد
سأفعل الآن في مرضاة سيدنا — فعل الكرام وفعل السادة النُّجد
يا ابن العلوج لقد عاينت ذاكركم — ما أن يرى مثله في الناس من أحد
خير الأنام وخير الخلق كلهم — وخير من حملت أنثى إلى الأبد
عليه ربّي صلّى كلما سجمت — ورقا وما غرّدت في سائر البلاد

ثم إنّ عليًا ـ كرّم الله وجهه ـ نادى: يا معاشر قريش، يا بني مخزوم، يا بني زهرة، يا بني لؤي، يا بني الحارث، يا بني غالب، يا بني النضر، يا بني عبد مناف، يا أهل الحرم: من كان له عند رسول الله ﷺ وديعة فأنا الضامن بها!!... ثم وثب عمّه العباس وصاح صيحة عظيمة أزعجت كل من كان في الحرم، وكان العباس جهوري الصوت، ثم قال: أرضيتم يا بني هاشم لابن أبي معيط بما تكلّم في ابن أخيكم وأعزّ الخلق عليكم! أليس هو عارٌ عليكم! أما أن تتعصبوا لابن أخيكم لأقتلن نفسي!! فوثب إليه سادات بني هاشم، وأقبل حمزة والزبير وجميع بني عبد المطلب وأبناء العباس... وأولاد أبو طالب، جعفر وعقيل، وعليّ كرّم الله وجهه، انتضوا سيوفهم من أغمادها ونادوا: يا آل غالب!!! فلما رأت قريش ذلك مثل أبي سفيان وأبي جهل وعتبة وابن ربيعة أدركهم الجزع، ثم قالت بني هاشم: اليوم نبيدكم يا معاشر قريش!! فالتجأوا إلى العباس وطلبوا منه العفو، فعفا عنهم، ثم أقبل (عليّ بن أبي طالب ﷺ) إلى حجرة رسول الله ﷺ فبسط فيها الأنطاع وأخرج الودائع، فصبّها على الأنطاع وأذن للناس في الدخول، فأقبل كل من كان له وديعة يأخذها، وكل وديعة عليها اسم صاحبها ووصفه ووزنها، فيدفعها (عليّ كرّم الله وجهه) إلى صاحبها، فأقبل جميع الناس يأخذون ودائعهم، فأخذ جميع أهل مكّة ودائعهم وبقيت ودائع كثيرة لقوم كانوا في البادية، فخرج الناس وَهُمْ لعليٍّ كرّم الله وجهه شاكرون، ولمحمّد ﷺ ذاكرون، وهم يقولون: أنتم بيت الفضل والعفاف، والشرف والإنصاف، ومطعمون الأضياف، أنتم من سلالة عبد مناف... قال: فلما سمع أبو جهل شُكر الناس لرسول الله ﷺ ولعليّ كرّم الله وجهه مُلِئ غيظًا وحنقًا وهو

يقول: هذا أمرٌ عظيم، وعليّ ينادي كل يوم وليلة: ألَا ومَن له عند رسول الله ﷺ وديعة فليأتي إليّ أدفعها إليه. . .

قال الراوي: فبينما عليّ كرّم الله وجهه كذلك وهو يدفع الودائع إذْ ورد عليه كتاب رسول الله ﷺ يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

(من محمّد بن عبد الله إلى. . عليّ بن أبي طالب: أمّا بعد، . . .

فقد عظم عليّ فراقك وإني لأجد شخصك متمثل بين عيني، وقد عرض عليّ القريب والبعيد فلم أجد عوضًا عندي يبلغ درجتك، وقد شكوت إلى الله تعالى وحشتي منك ومن ابنتي فاطمة الزهراء، فإذا قرأت كتابي هذا فاشدد عليك درعك وخذ سيفك وعليك في طريقك بالحذر، فقد وعدني ربّي بأن يخرجك نهارًا جهارًا مؤيّدًا منصورًا متوّجًا محبورًا فلا تخف من أعدائك، فإن الله تعالى يأويك وينصرك على أعدائك، ولا تترك أحدًا من النساء واسأل أصحابي من كان يريد منهم الهجرة فخذهم معك، واعلم بأني قد خلفت مع ابنتي فاطمة الزهراء دنانير فاشترِ بها أباعر وجهازًا، وليكن معك زيد بن حارثة يعينك على أمرك ويقوم بحوائجك، وأسرع إليّ فإني مشتاق إليك وإلى لقائك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، والسلام على ابنتي فاطمة الزهراء وأهل بيتي والمؤمنين والمؤمنات ورحمة الله وبركاته، وحسبي الله ونِعْم الوكيل).

فلما قرأ الكتاب عليٌّ كرّم الله وجهه تهلّل وجهه فرحًا وسرورًا وخرّ لله ساجدًا، وقال: لربّي الحمد والشكر على ما أعطاني، ثم أقبل على رسول الله ﷺ[1]، وهو العلي بن ورقا، وقال له: كيف خلفت رسول الله ﷺ؟ قال: خلفته في هناء وأكرم حباء. . .

ثم إنّ عليًا كرّم الله وجهه مضى بكتاب رسول الله ﷺ إلى أهله، وقال لهم: إنّ رسول الله ﷺ يبلغكم السلام. . . فقالت سودة بنت زمعة زوجة رسول الله ﷺ، وكذلك زوجاته: لا أعدمنا الله رؤياه ولا رؤياك يا أبا الحسن،

(١) أي الشخص المذكور آنفًا في الأصل الذي أرسله رسول الله ﷺ إلى عليّ (ﷺ) من المدينة إلى مكّة.

فأهلاً وسهلاً بك. . . منّا السلام عليه وعليك يا أبا الحسن، وله منّا الحبا فلا أعدمنا الله وجه رسول الله ﷺ، وليت أرواحنا فداه وأموالنا وقيناه فقد اشتقنا إلى وجهه ﷺ وحسن كلامه وخفقات أجنحة الملائكة على رأسه فلا أنسانا الله تعالى ما أولانا، فنعم الأخ أنت وقيته بنفسك وأنت عنده صفوة الأبرار وخير الأخيار، فلا فرّق الله بينكما أبدًا، فجزاهنّ عليّ كرّم الله وجهه خيرًا، ثم أنّه أتى إلى عمّه العباس، وكان ذلك في آخر الليل، فقرع عليه الباب، فقام عبده ينظر مَنْ بالباب، فإذا هو الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه فأعلم مولاهُ العباس، فقام العباس مسرعًا بنفسه وفتح له الباب، وقال له: أدخل، فدخل عليّ كرّم الله وجهه مسرعًا وجلس هو والعباس، فقال له: هل لك يا بن أخي من حاجة! فأملي الأرض خيلاً ورجالاً، فقال له: هديت وكفيت يا عمّ، ولكن هذا كتاب رسول الله ﷺ يأمرني فيه بالهجرة إليه والقدوم عليه بأهله وحرمه، ثم قرأ عليه كتاب رسول الله ﷺ، فلمّا سمع العباس منه ذلك أطرق رأسه حائرًا ما يدري ما يقول، فقال له عليّ كرّم الله وجهه: ما تردّ على الجواب يا عمّ!! فقال له: يا ابن أخي إنّ الذي ذكره محمّدًا ﷺ أمر صعب، وهو معروف بالصدق، وقوله الحقّ، وقد رأيته وقد خرج مختفيًا وقد طلبته قريش أشدّ الطلب، وبذلوا في طلبه الجدّ، فلم ينجو إلّا بالجهد، فتلك الحسرة في قلوبهم تتوقّد وهو يأمرك بالخروج بأهله وحرمه نهارًا، وما الذي عزمت عليه! أنت تريد أن تخرج بحرمه نهارًا جهارًا، فإني لم أرَ لك في ذلك صلاحًا!!

فقال له عليٌّ: وما الذي تشيرُ به عليَّ يا عمّ؟!!

فقال له: أشير عليك أن تخرج إلى خُزاعة وتدعوهم إلى نصرتك والمسير معك وجميع قومك. . .

فتبسّم الإمام عليّ كرّم الله وجهه حتى أضاءت مكّة وما حولها، وقال: يا عمّ إنّ لي معينًا وناصرًا وحافظًا أقوى من الذي ذكرت وغيرهم، وقد قال حبيبي رسول الله ﷺ بأن الله تعالى ناصرك وحافظك ومعينك، فلا حاجة لي في غير الله تعالى، فوالله يا عمّ إنّ لي مدبرًا قد وعدني وهو لا يخلف الميعاد، ثم قال كرّم الله وجهه شعرًا:

إنّ المنيّة حتفها متوقّع   لا تجزعنّ وجد في الترحيل
إنّ ابن آمنة الكريم محمّدًا   رجل صدوق قال من جبريل

رُحْ بالركاب ولا تخف من عائق فـالله يـوردهـم إلـى الـتـنـكـيـلِ
إنـي بـربـي واثـقٌ وبـأحـمـد خيـر الـبـريَّـة خصّ بـالـتـنـزيـل
صـلّى عـلـيـه ربّـي فـي الـورى أيـضًـا وفـي الـتـوراة والإنـجـيـل

فقال له العباس ﷺ: إنك لجسور يا ابن أخي، فافعل ما بدا لك. . . قال: وكان عليّ كرّم الله وجهه قد مرّ بدار أبي سفيان، فنظر إليه أبو سفيان وولده حنظلة، وهو ذاهب إلى عمّه العباس ﷺ، فقال أبو سفيان إلى ابنه حنظلة: يا بنيّ وحق اللّات والعزّى والهبل الأعلى وما هو إلا كتاب ورد من محمد بن عبد الله ﷺ في رقعة يريدُ يوقعها في قريش، ولا شكّ أن محمّدًا ﷺ يريد حربنا في أماكننا وقد بعث إلى ابن عمّه عليّ كرّم الله وجهه بأن يسير إليه بعشيرته، وكأنّي بمحمّد ﷺ وقد أقبل إلينا بخيله ورجاله وهذا عليّ قد أتى إلى عمّه العباس ﷺ في هذه الساعة، وما كفى محمد ما صنع بنا حتى أنه يريد حربنا في أماكننا؟!!

فقال له ابنه حنظلة: يا أبتِ، أتأذن لي أن أفتك بعليّ بن أبي طالب في هذه الساعة، حتى يضعف محمدًا؟!

فقال له: يا بني هذا الغلام قد بانت شجاعته في الليلة التي خرج فيها محمّد ﷺ وقد هجمت عليه الأسود والصناديد من قريش. . . وقد طلبوه أشدّ الطلب، فلمّا وصلوا إليه، حمل عليهم حملة الليث وزعق عليهم زعقة تقطع الأكباد، فظننّا أنّ السماء وقعت على الأرض فولّينا هاربين يدقّ بعضنا بعضًا، ولكن الأمر غير ذلك، اعلم أن عبدكَ مهلع معروف بالشجاعة، فهو له كفوٌ كريم، لأنه عظيم القامة، شديد القوّة، يعد في الحرب لألف فارس، فما عليّ في يده إلا كالفرخ في مخالب الصقر، أبرزهُ إليه فإنه يصرم عمره، ويبتر أجله. . .

فقال: نِعْم الرأي ما رأيت يا أبتِ. . . ثم أنه دعا بعبده مهلع، وإنما سُمّي مهلع، لأنه يفزع من رآه، وكان يأكل اللقمة الواحدة [التي][1] تكفي عشرين رجلًا، ويحمل الجمل على عاتقه، وإذا برز بين الصفين ولّت عليه الأبطال يمينًا وشمالًا، وأقبل عليه مولاه حنظلة، وقال له: ما تقول في عتقك وألف مثقال من

(١) ما بين المعقوفتين زيادة ليست في الأصل.

الذهب الأحمر وألف ناقة من الإبل، وتقتل عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه!!.

فقال مهلع: يا مولاي كيف أصل إليه وهو سيف بني هاشم، والله لقد رأيت الفرسان والجبابرة وبارزت الشجعان والأكاسرة فما هِبْتُ أحدًا مثل هيبتي لهذا الغلام، وإني أرى الشجاعة تلوح بين عينيه، وأظن أنه لو برز إليه أهل الأرض لأفناهم عن آخرهم، ولقد رأيت منه ليلة مبيته على فراش رسول الله ﷺ وقد كشف صناديد قريش وهزمهم ومزّقهم شرقًا وغربًا بزعقة واحدة، فكيف تعرضني إليه؟!!

فقال له مولاه: لا بدّ لك من مبارزته، وإنه الساعة قد مضى إلى عمّه العباس، فكأنّي به وقد خرج الساعة، فخُذْ حسامك واخفِ نفسك وأكمن له في الطريق فإذا صار أمامك فلا تخاطبه بشيء دون أن تضربه بسيفك ضربة وآتني برأسه، فندفنه تحت أقدامنا، فإذا أصبحت بنو هاشم يطلبونه فلم يجدوه فيظنون أنه قد لحق برسول الله ﷺ فتضعف محمد ﷺ فنأمنُ مِنْ مكرِه...

فقال له أبوه: صدقت يا ابني!! يا مهلع افعل ما أمرك به!!

فقال مهلع: أما واللّات والعزى قد عرضتموني للهلاك، فإني إن كنت نجوت منه فلم أنجُ من بني هاشم ولا سيما حمزة القضاء المحتوم!!

ثم إنه أخذ سيفه ومضى به، وكمن لعليّ ﷺ في طريقه، في جنب دار أبي لهب، حتى صار العبد كذلك إذْ أقبل عليّ كرّم الله وجهه وهو يسرع في خطواته، فلما قرب من العبد، قام العبد وسلّ سيفه من غُمْده وعاجله بالضربة، فراغ عليّ ﷺ عنها، وصاح في وجهه صيحة أدهشته وأرعشته حتى رمى السيف من يده فعاجله الإمام عليّ ﷺ بالضربة الهاشمية فوق هامته، فشقّه نصفين، فأنجدل العبد قطعتين يخور في دمه، فأخذه الإمام عليّ ﷺ ووضعه على باب حنظلة، ومضى إلى منزله...

وأمّا أبو سفيان وولده حنظلة فإنهما لم يريا للعبد أثرًا، فخرج حنظلة يطلب عبده، فرآه على البعد قطعتين، فاغتمّ لذلك غمًّا شديدًا، وارتعدت فرائصه من ذلك...

وقال له أبوه: يا بني أبشر إن اللات والعزى ستمكّنك من عليّ وتأخذ منه ثأرك، ثم خرجوا للعبد وأخذوه ودفنوه في جنب الدار وكتموا أمره عن قريش لئلا

يكون مبدأً للشر، ثم قال حنظلة: يا أبتِ لا وحقّ اللات والعزى لا يقرّ لي قرار حتى آخذ بثأري من عليّ، فأنا فارس الهيجاء وليث البطحاء. . .

قال (الراوي): وأصبح عليّ يطوف بالكعبة، فاجتمعت عنده قريش فلم يخاطبه أبو سفيان بشيء من أمر العبد، ثم إنّ عليًا كرّم الله وجهه نادى برفيع صوته يا بني مخزوم، يا بني زهرة، يا بني أُميّة، يا بني الحارث، يا بني عدي، يا بني عبد الدار، يا أهل الأبطح: من كان له عند رسول الله ﷺ وديعة فليقم ليأخذها، فإني قد عاقني عائق عن إمساكها فخذوا عنّي ودائعكم، فإني راحل عنكم ولاحق بقوم غيركم، أكرموا رسول الله ﷺ وآمنوا به وصدّقوا قوله، وإني غير مقيم عندكم ها هنا ولا يقول قائلكم إنّ عليًا خارجًا عنّا، خائفًا من بأسنا ورعبنا من أسيافنا وحذرًا من بطشنا، فوحقُّ من فلق الحبّة وبرئ النسمة وتردّى بالعظمة لأخرجنّ نهارًا جهارًا على رغم أنوف المعاندين، فمن منكم مضمر بسوءٍ فليأتني، فما أنا عند الحروب بجبان، وإني أخرج مجهرة على رؤوس الأشهاد، فمن تعرّض لي حطمت أنفه بالسيف، فأنا الموت للميت، خواض الغمرات، وكاشف الكربات، وفارج البليّات عن وجه خير البريات. . .

ثم إنه كرّم الله وجهه أنشأ يقول:

أنا عليٌّ وما إن خفت في نسبي ... فما عليٌّ ذا القول من عار
إن الرسول رسول الله أمرني ... أن أجعل السيف من جدي واضماري
وقد رحلت قلوصي نحوه عجلاً ... شوقًا إليه وقد أبديتُ أسراري
فمن يكن منكم يبغي مكافحتي ... فإنني بطلٌ من خير أخيار
وفيكم رجل بالشر يرمقني ... والله يورد أهل النار في النار
وكان منه أمور لست أدركها ... والله يرمي أهل الكفر بالعار

قال: فجعل قريش ينظر بعضهم بعضًا وقد داخلهم الخوف منه ومن بأسه، وعلموا أنه يخرج جهرة على رغم أنوفهم، وبقي أبو سفيان يمتلئ غيظًا وحنقًا وخشي من عليّ ﷺ أن يخبر قريش بخبر العبد، فعند ذلك قام أبو جهل، لعنه الله، قائمًا على قدميه ونادىٰ: يا معاشر قريش، يا بني زهرة، يا بني عبد مناف، يا بني الحارث، يا بني النضر، يا جميع من حضر، أرَضيتم لهذا الغلام بما نطق به وأنه يريد أن يخرج جهرة ومحمّد أرفع منه قدرًا لم يخرج ظاهرًا

حتى خرج سرًا، وأيّما الله إني ما أرى لكم إلّا أن نقطعه بأسيافنا بغضًا وحنقًا قطعًا قطعًا، ثم إنه (أي أبو جهل) لعنه الله أنشأ يقول:

هٰذي العجيبة ما إن مثلها أبدًا ... تقليد هذا الفتى من العار
ثوروا عليه ولا تخشوا مقالته ... فهو الجسور الهمام الضيغم الضاري
لا تأمنوا واسقوا الأرض من دمه ... ولا تولون بالرغام والعار
صولوا عليه بأسيافٍ مهنّدةٍ ... بأسمر ذابل أو حدٌ بتّار

قال (الراوي): فوثب أبو لهب، وقيل حمزة، وكان رفيع الصوت[1]، شديدٌ، تهابه السادات والقبائل، وقال له: لا أهلاً ولا سهلاً بك، يا ابن الأنذال، وأخسّ الرجال، يا ويلك أتذكر قومًا هم أعلىٰ منك قدرًا، وأعظم خلقًا تهدّدهم بالانتقام وأنت أخسّ اللئام، يا ويلك لا أمّ لك، فأنت أقلّ وأذلّ وأحقر وأصغر!!

اعلم أن هذا الغلام الذي ذكرته لا تدرك له الوصول أنت ولا غيرك إلّا بعد قطع الرؤوس وإتلاف النفوس، وأنت تعلم بأننا عبيد الوفى وليوث البطحاء، والله لا يهلك ابن أخينا عليّ بن أبي طالب ﷺ حتى نهلك جميع بني هاشم، وعن قليل يُرغم الحاسد، ويُذلّ المعاند...

ثم إنّ حمزة ﷺ أنشأ يقول:

ارجع خزيت بقبح قولك خاسرًا ... ولقد أتيت بقبحٍ وشنار
بل سيفه يفني الجماجم في الوَغى ... وسنانه موتًا على الأعمار
فهو الإمام ونحن أهل عصابة ... نرمي عداه بثأرهم وشرار
يا ابن الذليل لقد أتيت بقبحة ... كالكلب ينبح في فناء الدار

قال: فسكت أبو جهل، لعنه الله، ولم يردّ جوابًا...

ثم إنّ عليًا ﷺ مضى إلى منزله، وعنده إخوته جعفر وعقيل وهو يحدثهما بما جرى، ثم أقبل العباس، فحيّا به عليّ ﷺ، وقال له: مرحبًا بك يا عمّ...

فقال له العباس: أصلحك الله يا ابن أخي افعل ما بدا لك...

---

(١) أي: جهوري الصوت.

فأخبره عليّ ﷺ بخبر العبد مهلع عبدُ حنظلة، وأبي جهل، وما تكلّم به حمزة. . .

فقال له: يا عمّ لا يهولك قول الذليل الرجيم الجاهل، ولا بدّ من قتل الأرجاس، وسيكون لهم عويل في الأبطح والصفا، وأما أنا فلي ربٌّ مانع لا يخذلني أبدًا، وهو معي حيث ما توجّهت، وهو القوي الشديد، ربّ السمٰوات والأرضين وخالقي وخالق الناس أجمعين. . .

قال (الراوي): وتسامعت الناسُ في الحاضرة والبادية أن عليًا ﷺ يقول: إني خارجٌ إلى يثرب فمن كان له وديعة عند رسول الله ﷺ فليأت إليّ أعطِه إياها. . . فأقبل إليه الناس من كل جانب ومكان يأخذون ودائعهم، فبينما قريش في الأبطح جلوس، إذْ أقبل عمير بن أبي عبيدة الثقفي ومعه نجيب يسوقه، وهو ينادي: أيّها الناس، إني أريد بيع هذا النجيب بأربعمائة درهم، فبادروا إليه الناس، وبادر إليه حنظلة فقال: أنا أشتريه، فأَمضِ معي حتى أوفيك!. . . فانطلق به إلى منزله وتبعهما أبو سفيان فدخلوا، فقُدِّمت مائدة من الطعام، فأكلوا منها حتى اكتفوا، ثم قال له أبو سفيان: ما تقول يا أخا ثقيف في مائة مثقال من الذهب الأحمر مسلمة إليك!!

فقال عمير: بماذا آخذه!!

فقال له حنظلة: نريد منك أن تقتل عليّ بن أبي طالب!! فإنّه قد افترى علينا، وإن ابنّ عمّه محمّد ﷺ قد أخرجته اللات والعزّى عنّا، وأبعدته عن ديارنا، وهذا يريد أن يعلونا بكعبه، ويخوضنا بسيفه!!!. . .

فقال لهم عمير: وما أصنع به!!

فقالوا: تمضي إليه وتذكر أنك قد أودعت رسول الله ﷺ مائة مثقال من الذهب الأحمر، فإذا أنكر ذلك، فقل له عندي شهود على ذلك، فارجع إلينا، فإنا نشهد لك بذلك ونكذّبه هو وابن عمّه بين أهله وعشيرته. . .

قال: فدخل عليهم أبو جهل، لعنه الله، فذكروا إليه ذلك الكلام، فقال: وأنا أشهد معكما ونأمر بذلك عقبة وعكرمة يشهدون معنا، حتى تستتمّ الحيلة. . .

ثم قالوا: يا عمير نحن رؤساء قريش وأشرافهم، والآلهة يعينوننا على ذلك، فامضِ فيما أمرناك به!!

فقال لهم عمير: عجّلوا إليّ بالمال هذه الساعة!!!

فقال أبو سفيان: حبًّا وكرامة... ثم قام ووزن مائة مثقال من الذهب الأحمر، وكانت معهم هند بنت عتبة، فأَتَتْ بعقد ذهب وأعطته أبا سفيان فدفعه إلى عمير، ودفع إليه حنظلة قيمة النجيب، فأخذ عمير جميع المال، وخرج من منزل أبي سفيان ودفنه في بعض الشعاب، ورجع من وقته وساعته إلى عليّ ﷺ وهو جالس يدفع الودائع، فسلّم عليه فردّ عليه السلام...

فقال له عمير: ألستَ المؤدي الأمانات عن ابن عمّك محمّد ﷺ!!

قال (علي): نعم...

قال عمير: لي عند ابن عمّك وديعة وهي مائة مثقال من الذهب الأحمر وهي ملفوفة في خريطة خضراء مشدودة بخيط إبرسيم مرقوم عليها: هذه وديعة عمير بن أبي عبيدة الثقفي... فعند ذلك قام عليّ ﷺ ووثب إلى الودائع وقلبها فلم يجد ما ذكره عمير... فقال له: يا أخا ثقيف إن الصدق أوفى وقائله أنجى وأعفى، والكذب يسقط مرة صاحبه ويذلّه، وقد علمت الحاضرة والبادية، أن رسول الله ﷺ الصادق الأمين، ولا يرغب في شيء، فما رغب إلّا في وديعتك خاصة، هذا شيء لا يقبله العاقل اللبيب، فما أودعت رسول الله شيئًا أبدًا بل أتيت منكرًا وباطلاً...

وقال له عمير: أفتراني يا سيدي أطلب ما ليس لي وأنا قد دفعتها إليه في الكعبة، ومعي على ذلك شهود!!

فقال الإمام علي ﷺ: ومَنْ شهودك؟!!

فقال: أبو جهل بن هشام، وعكرمة بن جبل، وعقبة بن أبي معيط، وأبو سفيان بن حرب، وولده حنظلة.

فقال له عليّ ﷺ: لعن الله من ذكرت!! ثم قال: هذه مكيدة وربّ الكعبة، ثم قال: إنّ الأبرار لا يقبلون شهادة الفجّار، ولكن إذا كان غدٍ، آتِ الكعبة واحضر شهودك فيرميهم الله بكيدهم...

قال (الراوي): فانصرف عمير، وقد داخله الهلع والجزع وهاله ما سمع من عليّ ﷺ، ثم قال عمير في نفسه: إني غير سالم من نقمة هذا الغلام، ثم أقبل على أبي سفيان، فقال له: اعفني من هذا الأمر، فهو أصلح لي من تعريضي لهذا الغلام...

فقال له حنظلة: إن رجعتِ عن هذا الأمر يكون عليك فيه عارًا ويسمّونك كاذبًا، وأمّا نحن فإنا نمضي عند سادات قريش ونقيم شهادتنا لك ولك عندنا الجواب والخطاب فنستأصل عليه، ونقتل محمّدًا ومن معه...

قال أبو سفيان: امضِ يا عمير على ما كنت عليه ولك عندي كل ما تطلبه...

قال (الراوي): فمضى أبو سفيان إلى القوم وأوعدهم وأمرهم أن يحضروا غداة غد بأجمعهم عند الكعبة، وتواعدوا على البكور في الأبطح، قال: فلما سمع العباس ﷺ رهج الناس، أقبل على عليّ ﷺ وقال: ما لي أرى مكّة تموج بذكرك وذكر عمير...

قال له عليّ ﷺ: إن عمير قد لعبت بعقله، قومٌ من قريش وقد عزموا على خلع الذمام وفلق الهام، وسيردّ الله كيدهم في نحورهم، ثم حدّثه بسبب الأمر وما كان من مهلع عبد حنظلة... فقال له العباس ﷺ: لا بأس عليك يا ابن أخي، وإني خارج إلى إخوتي وعشيرتي وآمرهم بالمباكرة إلى الكعبة بأسلحتهم...

فلما أصبح عليّ ﷺ قدم على بني أبيه، فساروا معه حتى قدموا الأبطح وجلسوا في شعبهم، وأقبل العباس ﷺ في عصبة فجلسوا، وأقبل حمزة شاك في سلاحه، فسلم وجلس، وأقبلت بنو هاشم، فجلسوا معتزلين... وأقبل أبو جهل، لعنه الله، وأبو سفيان، وحنظلة، وعكرمة، وعقبة، لعنهم الله تعالى وهم في جمعٍ كثير، فجلسوا في ناحية، ثم أقبل عمير فجلس في مجلس بني هاشم، وقال لهم: نعمتم مساءًا وصباحًا ودامت عليكم المسرّات والأفراح، وأشرق بكم الصباح، يا بني هاشم، إني فقير ليس لي مال ولي أطفال صغار وليس لي ذخيرة غيرها...

فقال له عليّ ﷺ: ما قلت إن لك شهودًا على ذلك؟!!

فقال: بلى.

فقال له: أحضرهم لأسمع كلامهم...

قال (الراوي): فأتى عمير إلى قريش وقال لهم: أبشروا يومكم هذا بالمسرّات وتتابعت عليكم الخيرات، لأنكم جناح العرب العالونَ في النسب، اعلموا أن لي وديعة عند محمّد ﷺ وهذا ابن عمّه عليّ قد منعني حقّي دون غيري

وإنّ لي عندكم شهادة فمن حضرها منكم ذلك اليوم فليقم وليشهد بمحضر بني هاشم. . .

فقام إليه خمسة نفر من أكابرهم، وهم: أبو جهل، وأبو سفيان، وحنظلة، وعقبة، وعكرمة، فدنوا من بني هاشم فسلّموا عليهم، فتقدمهم أبو جهل، ووقف بين يدي عليّ ﷺ وقال له: يا عليّ إنك منّا، ولو كنت مخالفًا لآلهتنا فإنك على كل حال أقرب الناس وأعزّ الخلق علينا، وليس عندنا بأكرم منك، ولكنّا نقول الحق وإنا نشهد أنه لعمير عند ابن عمّك، رسول الله، أمانة وهي خريطة خضراء مشدودة عليها خيط أبرسيم مرقوم عليها: هذه وديعة عمير بن أبي عبيدة الثقفي، فلا تمنعه إياها، ثم تأخّر، وتقدم أبو سفيان، وتكلم بمثل كلامه، وقال حنظلة وعقب وعكرمة بمثل ذلك، فتبسّم عليّ ﷺ وقال: يا معاشر قريش، يا بني هاشم قد سمعتم شهادة هٰؤلاء القوم، وقد جعلت بيني وبينهم حكمًا عليّ أن كل من ظهر كذبه فدمه هدرًا حلال أرضيتم بهذا؟!!

قالوا: نعم سمعنا ورضينا. . .

فقال عليّ ﷺ : الله أكبر، وحق حبيبي محمّد ﷺ لأحكمنّ اليوم فيكم بحكم تتعجّب منه العرب والعجم إلى آخر الدهر، ثم قال: أدنُ مني يا عمير، والفريقان ينظرون وأيديهم في مقابض سيوفهم وكل منهم متوقع للفتنة، هذا وأبو جهل وأصحابه قد تعجّبوا فيما يصنع عليٌّ ﷺ خوفًا من الفتنة والفضيحة، وبنو هاشم ينظرون إلى عليّ ﷺ ، ثم قام عليّ ﷺ على قدميه وأقبل على أبي جهل وأصحابه، وقال لهم: شهدتم على ما لا تعلمون، والله يسألكم عما تفعلون، وفي حكمنا لا تقبل إلّا شهادة مؤمن عادل معروف بالعدالة والأمانة وليس فيكم من فيه هذه الخصال، ولكني أجيبكم إلى ما قلتم، فإن ظهر قولكم خلاف ما قلتم وباطل ما عملتم، فماذا أصنع بكم؟!!

فقال أبو جهل: يكفيك تكذيبك لما بين الفريقين من بني هاشم وقريش. . .

فقال عليّ ﷺ : لينصرفنّ النفر الشهود خاصة عند الكعبة. . . فلما مضوا أقبل عليٌّ على قريش وقال لهم: انظروا اليوم ما أقضي به. . . ثم دعا بعمير، فقال له: أخبرني في أي وقت دفعت وديعتك إلى النبيّ ﷺ. . .

قال: دفعتها إليه حين أشرق الصباح وأضاء بنوره ولاح، ودفعها إلى زيد بن حارثة، فقال له: امضِ بها إلى خديجة، وأخذها ومضى بها.

فقال عليّ ﷺ لبني هاشم وقريش: اشهدوا بما نطق به، ثم دعا بأبي سفيان، وقال له: أخبرني في أيّ وقت دفع عمير وديعته إلى النبيّ ﷺ، فقال له: يا ابن أبي طالب لقد ألبستنا الكذب وشهادة الزور، وقد دفعها إليه وقت غروب الشمس، فأخذها من يده ووضعها في كمّه، ومضى إلى منزله، فنظرت قريش بعضًا إلى بعض، ولما رأوا من اختلاف الشهادة، فماجت بنو هاشم، فثبطهم عليّ ﷺ ، ثم إنه دعا بأبي جهل فأقبل وهو يقول: داهية وربّ الكعبة، يريد أن يوقعها بنا، ثم وقف عنده، فقال له: أخبرني في أيّ وقتٍ دفع عمير وديعته إلى رسول الله ﷺ، وما صنع بها؟ فأنكر ذلك أبو جهل، وحار عقله، وعرق جبينه، وبقي ساعة طويلة، مثل السكران وعرف ما في قلبه ما يراد به، فقال له عليّ ﷺ : ما لك لا تتكلّم!!

فقال: لا أعرف في أيّ وقت وإنما رأيته وقد سلّمها إليه...

فقال له عليّ ﷺ : في أيّ وقتٍ كان ذلك!!

قال: ليس يلزمني معرفة الأزمنة!

قال له: اجلس...

ثم دعا عليّ ﷺ بعقبة بن أبي معيط وقال له: أخبرني في أيّ وقتٍ دفع عمير وديعته إلى رسول الله ﷺ؟ فقال الملعون: دفعها إليه عند اشتداد الضحى.

فقال له: اجلس...

ثم دعا بحنظلة وسأله مثل ذلك، فقال الملعون: وحقّ اللات والعزّى والهبل الأعلى أنه حق وأعرفه كأنه الساعة وقد دفعها إليه وقد قامت الشمس في كبدِ السماء، في فناء الكعبة، فتركها في يده إلى وقت انصرافه، ثم مضى بها إلى منزله، فقام إليه أبوه لينكر مقالته وضربه على أمّ رأسه، وقال له: قد أعمت قلبك اللات والعزى، لم لا قلت عند غروب الشمس!!

قال (الراوي): فعرف الفريقان شهاداتهم وبطلانها وعزم بنو هاشم على إشهار السيوف وهمّوا بالحملة على قريش، فعلم عمير أنه مقتول، وقد همّ عليّ ﷺ أن يبطش به لأنه أثار الفتنة، فاصفرّ لونه وارتعدت فرائصه...

فقال له أبو سفيان: ويلك يا عمير لقد اصفرّ لونك وارتعدت فرائصك، ولقد كنّا غنيّان عن شهادتنا لك!!

فقال له عمير: ولقد كنت أنا غنيًا عن خديعتك لي، ولم كنت أقتل نفسي!!

فوثب ودخل على عليّ ﷺ، فعفا عنه لأنه من أهل العفو، فنادى بأعلى صوته: يا بني هاشم، يا بني لؤي، يا بني غالب، يا بني النضر، يا بني مخزوم، يا بني الحارث، يا بني عدي، يا بني زهرة، يا جميع من حضر، اعلموا بأنه لم تكن لي وديعة عند رسول الله ﷺ، وإنما أبو سفيان وابنه حملاني على ذلك، وغرّاني، فوثب إليه أبو سفيان، وقال له: كذبت يا ويلك أتريد أن توقع بيني وبين بني هاشم الحرب.

قال (الراوي): فأشهرت بنو هاشم السلاح، وأشهروا الصفاح، وهزّوا الرماح، فقام حمزة واخترط سيفه ونادىٰ: يا آل غالب! يا آل غالب! يابني هاشم! اقتلوا أعداء الله وأعداء رسوله الذين يمكرون بابن أخينا...

فأجابه العباس وعبد الله والفضل وعقيل وجعفر، فقامت جميع بنو هاشم، وحملوا على قريش وتداعوا للحرب والقتال، وزحفت بعضهم على بعض وأسعرت نار الحرب، فلما رأى ذلك عليّ ﷺ نادىٰ: أيّها الناس، أمسكوا فأنا أبيّن لكم الحق إن شاء الله تعالىٰ... فأمسكوا عن القتال، فأقبل عليٌّ على عمير وقال له: وكيف حملك أبو سفيان وولده حنظلة على ذلك!!

فقال: إن الطمع حملني على ذلك، ولكن ابعث معي من تثق به ويكفيني حيث ما رجعت، فبعث معه رجلًا من بني هاشم، فأقبل عمير إلى الشعب الذي دفن فيه العقد والدنانير، فأخذه وأتى به إلى عليّ ﷺ، فقالت قريش: عقد هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، فمن أوصله لك يا عُمير!!؟

فقال: أوصله إليّ أبو سفيان مع هذه الدنانير حتى أفعل الذي سمعتم مني...

فقال عتبة ابن ربيعة: هذا عقد ابنتي هند!!

فقال أبو سفيان: سرقه عمير من منزلي مع هذه الدنانير وأتى به الساعة.

فقال عليّ ﷺ: لنا شاهد آخر، ثم أرسل إلى سيف مهلع عبد حنظلة، فأُتي به...

فقال أبو سفيان: هذا سيف ولدي حنظلة فقد سرقه عمير من منزلي مع هذا كله...

فقال عليّ ﷺ : ما يصدق الكاذب في قوله أبدًا، وأين عبدك مهلع؟ قال: خرج إلى الطائف في حاجةٍ له. . .

فقال عليّ ﷺ : أحضره لنا إن كنت صادقًا!!

فنكس (أبو سفيان) رأسه إلى الأرض خجلًا. . .

فقال له عليّ ﷺ : يا أبا سفيان، ما لك لا تفيق من سكرتك ولا تقصر عن عداوتك!!

فلما رأى ذلك عمير نادى بأعلى صوته: (يا عليّ) مُدْ يدك فأنا أشهد أن لا إلـه إلّا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. . .

قال (الراوي): فتهلّل وجه عليّ ﷺ فرحًا وسرورًا عظيمًا. . .

فقال: خذ المال يا عمير أنت أحقّ به من صاحبه. . .

فقال أبو سفيان: لا وحقّ اللات والعزّى لا يأخذه حتى يرد عليٌّ عبدي مهلع، فأنا أخبركم إن أخذ المال عمير فإنا نطلب عليًا وعمير. . . فقال له: نعم. . . ثم انصرف مع بني هاشم ووجوههم مشرقة بالنور لما رأوا من الحق ووجوه قريش عليها غبرة ترهقها قترة أولـئك هم الكفرة الفجرة، وهم أذلّة خاسرين، ولما أملوه خائبين، وقد ضربوا الأجل بينهم ستّة أيام، يكون قدوم العبد مهلع من الطائف، قال: فانقطع الأجل ولم يكن للعبد أثر. . .

فقال بنو هاشم وقريش: فأين عبدك مهلع يا أبا سفيان!!

فقال لهم: قد سرق مالًا من عندي، فلا يرجع أبدًا، وقد مضى إلى اليمن. . . فعلمت قريش أنّ قوله باطلًا، فأراد بنو هاشم أن يوقعوا الحرب فكفّ بينهم (عليّ بن أبي طالب) كرّم الله وجهه. . .

قال الراوي: ثم إنّ عليًا ﷺ قام في جهاز الهجرة وعزم على المسير إلى يثرب، فاصطنع خمسة هوادج للفواطم والحرم، وأخذ في أُهبة السفر، وكل ما يحتاج إليه من الإبل وحمّل عليها الزاد والماء، هذا ولم يعلموا قريش أنه يريد أن يخرج بحرم رسول الله ﷺ، وظنّوا أنه يريد أن يخرج بنفسه منفردًا، فتقلّدوا أسيافهم، واستعدّوا للحرب، وجعلوا ينتظرون خروج عليّ ﷺ ، ثم إنّ العباس أتى بالأباعر من عند خزاعة هذا، وعليّ قد وضع في الهوادج كل ما يحتاج إليه،

ثم أخذ الأباعر من عند عمّه، وعقلها، ووضع الهوادج على ظهر الجمال، فوضع فيهنّ الفواطم، وحرم رسول الله ﷺ.

فقال له العباس ﷺ: يا ابن أخي، أمَا تنظر إلى قريش وما هم فيه من همّة الحرب، فلو تصبر حتى يهجم الليل والظلام لكان أولى...

فقال له عليّ ﷺ: أنا بالله واثق، وعليه متوكّل، ثم إنه سار وحوله بني هاشم وبني عبد المطلب عن يمينه وشماله، فساروا في الأبطح، فبقي الأبطح يموج بأهله، ثم إن أبا سفيان بقي يحرّض الناس على القتال، وقال شعرًا:

أليس من العجائب أن طفلًا ... صغيرًا يافعًا قد رام ضدّا[1]
بعيد المرتقاء لمرتقيه ... فامنع راحلًا للأمر جدا
وأسرع في المقام ورام أمرًا ... سيأتي بعد أن يخويه جهدا
ألا فأبلغ عليًّا من مقالي ... فلا تبعد إذا أحببت بعدا
وإن أحببت سيرًا إنّ رمحي ... وسيفي قاصدان إليك قصدا

قال: ثم أقبلت زينب بنت رسول الله ﷺ إلى أختها فاطمة الزهراء ﷺ باكية حزينة القلب... وقالت لها: أبلغي أباك عني السلام لأني بعدت عن الأهل والأحباب وكثرت الحنين والبكاء على فراقه، والآن قد تجدّد حزني لفراقك يا فاطمة الزهراء، واغمّاه أكون أنا في بلد وأنتم في بلدٍ أخرى!! ثم بكت وبكين النساء وبكت فاطمة الزهراء ﷺ، فأنشأت زينب تقول:

أفاطم أبلغي أباك السلام مني ... قد فقدت السرور مُذْ غاب عني
يا حبيب الإلـه قد طال حزني ... مذ نأيتم فلا رقى الدمع مني
صرم الدهر حبل وصلي فاقربي ... حبيب الإلـه ذخري وأمني
مذ تباعدت يا منائي وسؤلي ... فإن زياد الحنين شغلي وفني
كنت أسلو بفاطم نور عيني ... فرماه الزمان بالبعد مني
لا تلذّذت بعدكم بحياة ... فعليكم السلام ما دام مني
كنت أسلو بفاطم فأتاها ... داعيًا فاشتفى المدامع مني

---

(١) يافعًا: ناشئًا، دون سن البلوغ.

قال(١): فبكت فاطمة الزهراء ﷺ رحمةً لها، وقالت: ما كان أبوك لينساكِ، ولكنك أنت مع زوجك أبو العاص ابن الربيع، فلا تجدي سبيلًا للخروج إلا أن يستأذنه أبوك فطيبي نفسًا وقرّي عينًا... قال: فلما سمعت زينب ذلك منها ودّعتها، فخرجت وهي باكية العين حزينة القلب، ثم سار عليّ ﷺ بالهوادج، وقريش ينظرون، وهو راكب فرسه متقلّد لامَة حربه، والهوادج بين يديه، فلما خرج من الشعب عظم ذلك على قريش وزادهم الغضب والحنق، فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم شيخ كبير قد احدودب ظهره، وهو كريه المنظر، راكب على ناقةٍ حمراء، وهو ذو هامة عظيمة، وقامة جسيمة، وله عينان غائرتان في أُم رأسه.

قال (الراوي): فشخصت إليه قريش أبصارهم، فلما ساروا في أوساطهم قال لهم؛ حييتم من نفر، أرضيتم بالعار والفضيحة والدمار!! يا ويلكم تتركون هذا الصبي المسمّى بعليٍ أن يطأ أعناقكم ويهين ساداتكم، أفٍّ لكم من معشر نفر أذلّة فلا لأنفسكم عصبتم ولا لآلهتكم نصرتم، إنما هو إلّا رجل واحد أصغركم سنًّا، وأضعفكم ركنًا، وأنتم صناديد قريش وفرسان الخيل!! فأقبل عليه أبو جهل لعنه الله وقال له: حييت يا شيخ ما الذي تشير به علينا، فإنّا خائفون عاقبة أمره، وصولة عشيرته...

فقال(٢): الآن عصيتم الآلهة، فإن أردتم أن ترضى عنكم الآلهة اقتلوا عليًا، فإنها ترضى عليكم وتنصركم عليه فتردّه قهرًا، ثم إن إبليس أنشأ يقول:

ما لي أرى القوم في خوف وفي رجف ... كأنهم ألجموا بالرعب والفرق
لأظهرنّ لكم من أمره عجبًا ... لأسفكن دماءَ اليوم في الطُّرق
الكلّ ذو جزعٍ من بأسه وجل ... فهو الفتى لنا داع إلى الأفق
لأخلينّ الصفا من جمع معشره ... فالقتل والفتك والتعطيل من خلقي

قال (الراوي): فلما سمعوا قريش منه ذلك فرحوا فرحًا شديدًا وطالت له أعناقهم واشتدّ حنقهم بما أغواهم به إبليس وصار يحرّضهم على القتال، ثم إنه صرخ صرخة عظيمة فاجتمعت عنده من الشياطين والعفاريت ما لا يُحصى عددهم

(١) يعني الراوي.
(٢) المقصود به الشيخ المحدودب الظهر ذو المنظر الكريه.

إلا الله تعالى... فلما نظر أبو لهب إلى ذلك القوم وما هم عليه، خشي على ابن أخيه عليّ ﷺ، وظنّ من جهله أن الأصنام تهلك عليًا ﷺ، فأسرع باللّحوق بعليّ واستقبل الهوادج وأوقف الأباعر، وقال لهم: ارجعوا واسلموا على أرواحكم!! فظنّ عليّ ﷺ أن فعله ذلك تعصّبًا لقريش، فقال له عليّ ﷺ: يا أبا عتبة، تعين قريش على قومك؟!!

فقال له أبو لهب: كلّا، ولكن جئتك ناصحًا مشفقًا عليك من بلية ظهرت في الأبطح، أظهرتها اللّات والعزّى عضبًا لفعالك، وما هي إلا قاصدة إليك...

فقال عليّ ﷺ: وما هي يا أبا عتبة!!؟

فقال أبو لهب: سوف يظهر لك الساعة!! فبينما هم كذلك، وإذا بصولة وأصوات مختلفة، وإذا بسوادٍ عظيم، مظلم، بعضه على بعض، ودخان متكاثف ونار وشِرار، قد ملأ ذلك الوادي...

فقال عليّ ﷺ: يا أبا عتبة كيف الساعة تنظر الحق يزهق الباطل، والحق كيف يعلو نوره!!

ثم إنّ عليًا ﷺ نادى بزيد بن حارثة وقال له: أمسك الرواحل واعقلهنّ!!

فقال له زيد: وما هذا يا سيدي!!

فقال له ﷺ: هذا إبليس لعنه الله، وجنوده يزيدون الفتنة، ثم إنه استقبل السواد والنار والدخان، والشرار قد سدّ الأفق، وقد علت الزعقات وظهرت الأشخاص، وخرجت أهل مكّة ينظرون إلى ما نزل، هذا وقريش قد فرحوا فرحًا شديدًا، وبني هاشم قد رعبت قلوبهم بما رأوا من الظلمة والشرار والنار، فظنّوا أنها نار قد نزلت بهم من السماء من غضب الآلهة، فبينما هم كذلك إذْ طلع عليهم إبليس (لعنه الله) من تحت الظلمة وفي يده شهاب من نار وهو يلتهب التهابًا ويشتعل اشتعالًا، والشّرار يتطاير من بين يديه وعيناه مشقوقتان بالطول وهو في صورة هائلة، وهو يقول: يا معشر قريش، إنكم قد عصيتم الآلهة من فِعل هذا الغلام حيث خرج بالرغم عليكم، فلما رأت الآلهة فعله بكم غضبت، فعلمت أن في غضبهم هلاك من في الأرض وفساد الدنيا، فجئت مغضبًا لغضب الآلهة...

فقال له أبو جهل: من أنت!!؟

فقال: أنا أبو مُرَّة، ولكن انظروا إلى ما أصنع بهذا الصبيّ ومن معه، وسأردّه ذليلًا حقيرًا مُهانًا...

ففرحت قريش فرحًا شديدًا، ثم قال إبليس لجنوده: يا قوم ارموا عليًّا بناركم وشراركم...

فتقدم وصرخ صرخةً عظيمة، وصرخت جنوده، ولم يكترث بهم ولا بفعلهم، ولا يهوله باطلهم...

قال (الراوي): فبرز الأشعث ابن إبليس (لعنه الله) وهو كأنه النخلة السحوق، وهو يرمي بناره وشراره، فقصد نحو الهوادج، فدنا منه عليّ ﷺ، وكلّمه بكلام لا يفهمه أحد، وزعق في وجهه، فهرب اللعين وارتعدت فرائصه، ثم أنه ﷺ ضربه عرضًا فقطعه نصفين، ثم إنه غاص في أوساطهم، وقد حملت قريش معه وهو يزدجر بصراخه ويرجفهم بزعقاته ويضربهم يمينًا وشمالًا وقلبًا وجناحين حتى قتل منهم ما شاء الله تعالى ثم إنه قصد نحو إبليس لعنه الله، وصاح به صيحة عظيمة فقال: هلمّ إليّ!! فاندهش اللعين وارتعش وولّى هاربًا، وانهزم الجمع، وولّوا الدبر صاغرين... فصفا الجوّ وانقشعت الغبرة والظلمة... فلمّا عاينت قريش ذلك انفطرت مرائرهم، فأقبل عقبة بن جبل بن أمية على أبي جهل فقال له: ما ترى إلى هذا الغلام وإلى عظم شأنه وشدّة بأسه وقوّة مراسه، أبعد ما رأيتم لكم الطمع في قتله، ارجعوا إلى آلهتكم واستجيروا بها وإلّا أفناكم عن آخركم!!

فقالت قريش: ما هذا إلّا سحرٌ عظيم علّمه محمد حتى سحر الشياطين والفراعنة...

فقال أبو جهل: يا معاشر قريش ارجعوا إلى أوطانكم واستجيروا بآلهتكم قبل أن يفلق منها الهام ويجعلكم عبرة بين الأنام، فولّت قريش الأدبار هاربين قد ارتعدت منهم وطاشت منهم العقول... وأمّا عليّ ﷺ فإنه سار بالهوادج، وأمّا أهل مكّة فإنهم أتوا إلى الكعبة وخرّوا للأصنام سجّدًا خوفًا على أنفسهم... وأمّا حنظلة ابن أبي سفيان [فقد] بقي ممتلئًا غيظًا وحنقًا على الإمام عليّ ﷺ، وهو يقول:

اسجدوا للأصنام وحق اللّات والعزّى لا أكلت طعامًا حارًا ولا شربت مدامًا ولا هنيت بمنام حتى آخذ بثأري وأكشف عن عاري من عليّ الذي قتل عبدي مهلع... ثم رفع رأسه وخرج من الكعبة ونادىٰ: يا معشر قريش، هكذا يخرج

عليّ من ديارنا على رغم آنافنا[1]، وأورثنا العار وجعلنا ضحكة للغيّاب والحضّار، فأقتله وآخذ بثأري، وأحوز الفخر من بين العرب، ثم تقهقر محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب!!

فقال أبو سفيان: اسكت يا لكع الرجال لا أمّ لك، فوحق اللات والعزّى ما أنت في يده إلا كالعصفور في مخالب الصقر، ولقد رأيت فضله ليلة مبيته على فراش ابن عمّه، وقتله مهلع، وكان يعدّ في الحرب لألف فارس... ثم ما رأيت ما صنع بالشياطين والفراعنة وحقّ اللات والعزّى لو أراد هلاكنا جميعًا لأفنانا عن آخرنا!!

فقال له ولده حنظلة: أبيت إلّا الموت ولا بدّ منه على كل حال! لا خير لي في الحياة بعد عبدي مهلع، وكنت أدّخره للشدائد... ثم بكى بكاءً شديدًا، وقال: لا بدّ من لقاء عليّ بن أبي طالب!...

قال (الراوي): فلما رأته أمّه هند بنت عتبة على ذلك الحال أقبلت على أبي سفيان وقالت له: تبًا لك وسحقًا وبُعْدًا لك من شيخ قد خرفت وذهب عقلك بعد الشيب تجزع من الموت!! وحق اللات والعزّى لئن لم تتعصّب لولدك لأخرجنّ أنا بنفسي وأستعين على عليّ ﷺ بقومي!!

قال[2]: فلمّا سمع أبو سفيان كلام زوجته هند ضحك حتى استلقى على قفاه، وقال لها: يا هند هيهات هيهات أن يكون ابنك حنظلة كفؤًا لعليّ ﷺ أو يقاومه في الحرب ومكافحة الطعن والضرب!! وحقّ اللات والعزى لقد عاركت الحروب صغيرًا ومارست الأهوال كبيرًا، فما رأيت أثبت جنانًا من عليّ ﷺ، وإن كان صغير السن فهو كبيرٌ في أفعاله، وإني أعلم بأنه ما مشٰى بين الورى أحد يقاربه في شجاعته ولا يدانيه في براعته، وأجهل الناس من ألقى نفسه بين يديه ولا أحد يطيقه وحقّ الكعبة المبنية لا عرّضت نفسي له بعد ما ظهر لي منه عند التهاب النيران، وهو يزحف إليها من غير جزعٍ ولا فزع ولا هلع، وقد جزع منها الصغير والكبير، وليس يتعرّض لهذا الصبيِ إلّا من دنا حمامه وانصرفت أيامه...

---

(١) آناف جمع، ومفردها آنف.
(٢) يعني الراوي.

ثم إن أبا سفيان أنشأ يقول:

يا هند لو عاينت حملة حيدر ... لنبتك عن أسراره وفعاله
إني شهدت لمن ذكرت مواقفًا ... من حفظه وثباته وكماله
يا هند لو أبصرت منه ملتثمًا ... عاينت عند حروبه ومجاله
فالنار تلفحه وتضرم حوله ... أرأيت أمرًا هائلًا من حاله
لا تذكريه فإنه في بعده ... دان ويسمع منه عند مقاله

قال: فلمّا سمعت هند مقالته، قالت: لا عمرت دارًا أنت ساكنها ولا افتخرت تسود أنت عليها، أما والهبل الأعلى صاحب الكرامة الزلفى إنه لا كان لي بدّ أن آخذ بثأر ولدي وأكشف يدي لعاري، ولو استجرت بالنجاشي ملك الحبشة، وقيصر ملك الروم، وكسرى ملك فارس، والكلاعي بهمدان، وهودة ابن خيفة بنجران، ولكني أوّل [من][1] أسأل قريش وأدعوهم إلى ذلك، فإن أجابوني، وإلّا أنا قادرة على ذلك...

ثم مضت إلى أبي جهل، لعنه الله، فلما نظر إليها، قال لها: ما الذي جاء بك إلينا يا هند وأقدمك علينا!!

قالت: يا أبا الحكم إن هذا الأمر غاض النسوان وأغضب الصبيان، وحقّ له أن تغضب له الرجال، هذا ابن أبي طالب قد وطأ أعناقكم وأرغم آنافكم ونجا سالمًا...

فقال لها أبو جهل: يا هند إن أباك وعمّك شيبة سيّد أهل الأبطح وحرّى[2] ورؤساء أهل الصفا، جلسا عن هذا الأمر، وأمّا بعلك فإنه نقض العهد علينا، فلو أنّ لي معينًا لما وقفت عن قتاله...

قالت: إن ابني حنظلة صبور على ملاقاة الأهوال، شديد على مصادمة الأبطال!!

فقال لها أبو جهل: وايم الله إنه كذلك، وكلنا نريد لنا ثالثًا وإن قدرت على الرابع فافعلي!!

---

(١) زيادة يقتضيها النص.

(٢) كذا في الأصل، ولعل (حرى) اسم منطقة مشهورة كانت معروفة في حينها... ولربما غار حراء سُمّي نسبة إليها.

قال ـ الراوي ـ: فمضت هناك إلى عكرمة بن جبل بن أمية، وقالت له: كيف تلتذّ بالمنام وقد نزل بقومك الأرغام من هذا الغلام، قم وأبدل نومك بالسهر، وبادر إليه مع من بدر، وايم الله إنه إن نجا ابن أبي طالب إلى ابن عمّه سالمًا ليكون سيفًا لدماركم وقتل رجالكم وزوال عزّكم واستئصال سابقتكم!!

فقال لها عكرمة بن جبل: لقد نبهتني إلى أمر عظيم، وخطب جسيم، ولكن من المساعد لي على ذلك!!

قالت: شيخ العشيرة أبو جهل بن هشام، وولدي حنظلة بن أبي سفيان وأنت ثالثهما...

فقال لها: ها أنا بين يديك!!

فقالت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن عبد الدار لهند: انصرفي يا هند لمنزلك فلست أترك بعلي إلى قتال عليّ بن أبي طالب، ولقد رأيت منه منظرًا خفق منه فؤادي وطاش منه جناني، وانهدّت منه أركاني، وإن أحزم الناس من حاد عنه، ثم أنشأت تقول:

من حاد عن غاية فيها سلامته ... وخافه كان في أفعاله رعبا
هو الإمام إذا ما جدّ مطلبه ... فليس يطلبه من رامه طلبا
هو العطوف لمن ناواه فاحترزوا ... فمن أراد به نكبًا فقد نكبا
هيهات لا تطمعي في قتله أبدًا ... ومن يغالبه يومًا فقد غُلِبا

قال ـ الراوي ـ: فغضبت هند من مقالتها، ثم قالت: يا عكرمة لقد تمكّن الجزع في قلوبكم من هذا الغلام!! وإنما هو غلام من غلماننا، بالأمس كان في حجورنا ويدرج بين أظهرنا، ولا يخافه إلا كل [ذي][1] فشل جبان...

ثم إنها مضت إلى عقبة بن أبي معيط وذكرت له ذلك، وقالت له: قد سمعت إفراط عليّ (ﷺ) فيك، وإشارته بالتهديد والتوعيد إليك، فإن كنت ممّن يغضب لحسبه ونسبه، وإلّا كنت ممن عدّد الموالي والعبيد...

فقال لها: إن لأبيك ولك عليّ حقوق لازمة، ولكن لا يجب عليك أن تنسبيني إلى الجبن والذلّ، فأنا أول مبادر لهذا الغلام، فقام معها ومضيا إلى

---

(١) زيادة يقتضيها النص.

عكرمة فأنهضاه وجعلوا يطوفون ببيوت قريش بيتًا بعد بيت، فاجتمع معهم ألف فارس وألف راجل، وأقبلت هند إلى بعلها أبا سفيان، وقالت له: يا أبا حنظلة ألا تخرج تساعد قومك، فهذا ابنك حنظلة قد خرج، أفلا تخرج معه!!

فقال (أبو سفيان) لها: إن ابني مخالف واتّبع رأي النساء، وأنا أعلم أنه هالك إن بارز عليًا!!

قال ـ الراوي ـ: فغضبت هند من كلامه فقالت له: قبّحك الله من شيخ، إنك قد خرفت وذهب عقلك، أبعد الشيبة البيضاء تجزع من الموت، ثم إنها ركبت جوادها وخرجت إلى القوم، فأنف أبو سفيان على نفسه، فقام إليها وردَّها، وقال لها: أنا أكفيك أمر عليّ ﷺ!! فرجعت هند إلى بيتها...

قال ـ الراوي ـ: فلما ركب أبو سفيان اجتمعت إليه الرجال من كل جانب ومكان، وسار أبو سفيان بالجيش، وقد اجتمعت عنده تسعة آلاف فارس، وتسعة آلاف راجل، وأبو جهل عن يمينه، وعمّه عتبة بن ربيعة عن شماله، وعكرمة بن جبل على الخيّالة، وصفوان بن أمية على الرجالة.

قال (الراوي): فلما ساروا تقدم حنظلة أمام القوم، وهو يقول:

سيروا إليه لكيلا يدركون لما ... أملتموه من الطاغي على البشر
هذا عليّ بنا حلت مكائده ... وشاع أعماله في البدو والحضر
إنـي أراه كنار كان أوّلها ... سهل فلمّا علت أرمت بذي شرر
فأخمدوا ناره من قبل شعلتها ... وأفلقوا هامه بالصارم الذكر

قال ـ الراوي ـ: ثم انطلق القوم يركضون بخيولهم حتى انتهوا إلى بطن مرّة، وهو وادٍ، فنظر أبو جهل إلى راعٍ فقال: هل مرّت بك خمسة أباعر بهوادجها، يقدمهم غلام صبي!!

فقال له الراعي: نعم من ورائهم فارس تنبيك رؤيته عن شجاعته وحسن براعته عن بلاغته، وهو يلتفت من خلفه أكثر من أمامه، فخلته أسدًا على فريسة، فقال إليّ، وقال لي: يا غلام إنْ مرّ بك جمع أو واحد وسألك عني فقل له: هو أمامكم متوانٍ في سيره...

قال (الراوي): فلمّا سمع أبو جهل كلامه رجع إلى القوم وأخبرهم، فساروا سيرًا حثيثًا، وكان عند أبي سفيان عبد عظيم اسمه جناح وكان شجاعًا عظيمًا تهابه

الفرسان وتخاف منه الشجعان، فانفرد عن العسكر وكان معه فارسان فركضوا في طلب الإمام (كرّم الله وجهه)، فلم يشعر الإمام إلّا والعبد قد هجم عليه وهو يقول له: إلى أين تسير بالهوادج يا غادر يا فاجر، ردّ الضمائن إلى مكّة قبل أن أسقيك المنية وتسحق عمرك القضية، وتحلّ بك الرزية!!! ثم اعترض للهوادج يريد قتل الحريم... فقال له الإمام عليّ ﷺ: تأخر يا ابن الخنا، فدون ردّ الهوادج قطع الغلاصم وأسود ضراغم وجنود صلادم وتفليق الجماجم بالسيوف الصوارم...

قال ـ الراوي ـ: فحمل العبد جناح على الإمام عليّ ﷺ فتلقّاه الإمام بضربة فلق بها هامه، فخرّ العبد سريعًا يخور في دمه، فعجل الله بروحه إلى النار وبِئس القرار، فلما رأياه صاحباه على ذلك حملا على الإمام ﷺ، فحمل الإمام عليّ ﷺ عليهما وقبض على مراق بطن أحدهما واقتلعه من سرجه وضرب به صاحبه فكسر أضلاعهما جميعًا وماتا لا رحمهما الله تعالى، وسار بالهوادج قليلًا، فما كان إلّا ساعة وإذا بالخيل قد أشرفت عليه...

قال ـ الراوي ـ: فأمر عليّ ﷺ زيد بن حارثة أن يعقل الأباعر ويخرج النسوان من الهوادج، فقال له زيد: ما الرأي يا سيدي!! فقال: لا تخف إن الله تعالَى ينصرني عليهم بمنّه وكرمه، هذا، والفواطم كلهن يبكين على الإمام عليّ ﷺ أن يُقتل ويُهتكن... ثم إنه ﷺ[1] أخرج النساء من الهوادج وعقل الأباعر ولبس لامَة حربه وقال للزهراء: إني خارج إلى أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء أهل البيت، فعليك بالدُّعاء، فرفعت الزهراء رأسها إلى السماء وقالت: اللّهمّ عزّ عليًا بعزّك وانصره بنصرك واحرزه بحرزك، ولا تسلم نبيّك ووليّك إلى أعدائهما إنك فعّال لما تريد...

ثم توجّه إلى القوم، فقال له زيد بن حارثة: دعني أكافح عنك الأعداء يا سيدي!! فجزاه الإمام عليّ ﷺ خيرًا... وقال له: كن في مكانك...

قال ـ الراوي ـ: فصاح حنظلة وقال: يا معاشر قريش إن عليًا أمعن في الحرب فأريحوا خيولكم ورجالكم ونفوسكم من التعب، فنحن لاحقون به لو دخل يثرب، فإنهم لا يقومون بكم!!

(١) المقصود به علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

قال ـ الراوي ـ: فلمّا سمع الإمام عليّ ﷺ ما قاله حنظلة استوى على متن جواده وقصدهُ، فبينما هم في أثناء الكلام إذْ طلع عليهم فارس من نسل عبد المطلب فقال بعضهم: هذا سالك طريق أخرى...

فقال أبو جهل لعنه الله: أما الركبة فقرشية، وأمّا الشمائل فمضرية، وأمّا القامة فهاشمية، وما أظنه إلّا عليّ بن أبي طالب ﷺ، فأقبل الإمام عليّ ﷺ وقال: يا حنظلة أعطيت مناك والذي تطلبه قد أتاك، فها أنا عليّ بن أبي طالب قد أتاك، فها أنا عليّ بن أبي طالب قد جئتكم فاستعدّوا للحرب والضرب... فقال أبو جهل: مهلًا يا عليّ، لا تعجل فإن العجلة تورث الغضب وداعية النصب والإمهال من شيمة الأجواد...

فقال له عليّ ﷺ: فما أنت قائل!!

فقال: يا بني من قطع أنامله وجد الألم في مفاصله، ومن أهان أقاربه أهان نفسه، وإنه قد دهمتك الخيل عليها الرجال والأبطال وليس لك طاقة على تسعة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل من أسود قريش، وإني لم أتركهم على هواهم مخافةً عليك لأنك من شجرتنا وعضو من أعضائنا، وإنك خارج من بيننا بالرغم علينا، فردّ الضعائن يا بني لئلا يذهب دمك هدرًا حتى يأتينا محمد ﷺ ويسألنا التوجّه إلى يثرب لسادات القبائل، وإن مضيت بهنّ على وجه فلا يكون أبدًا وجعل، يقول:

لقد أتيت بها شوهًا وقد عظمت   فضيحة جملة في سائر الناس
وقد أتتك جموع في أكفهم   زرق الرماح ولا يأبون من بأس
ردّ الهوادج لا تكشف لها كلل   فيحكم السيف في الأوداج والرأس
يخشى عليك وأخشى منك داهية   ما مثلها ترتجى من فارس شاس

قال: فلمّا سمع علي ﷺ كلامه وشعره غضب غضبًا شديدًا، وقال له: يا ويلك أما قولك من شجرتنا وعضو من أعضائنا، فماذا تعجب وكم يكون الطيب من الخبيث والخبيث من الطيب، ونحن والله الطيّبون ميّزنا الله منكم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: الآية ٥٨]، وإني بريء منكم فلا تدخلني في نسبك، وأمّا جموعك فلا كنتم وجميع العرب والعجم فما أنتم عندي إلا كرجل واحد بإذن الله وبركات رسول الله ﷺ، فيكون مصيرك إلى النار وتعجيل الهاوية، وإن شئتم فليحمل منكم

فارس بعد فارس، وإن شئتم فاحملوا بأجمعكم فإني أرجو من الله تعالى النصر والظفر عليكم، فما لي إلى ردّ الضماين من سبيل، فافعلوا ما شئتم، ثم إنه ﷺ أنشأ يقول:

اقصروا للعزل بيننا والخطابا لست ممن يخاف أو أن يهابا
منيتي الحرب واشتياقي إليه واعتمادي عليه من كل بابا
دونكم للبراز إن رُمْتموه سوف تلقون في الحرب التهايا
إن أردتم براز قرنٍ لقرنٍ أو جميعًا فشئتم أي بابا
فسناني ترون فيه المنايا وصارمي في رقابكم كالشهابا

قال ـ الراوي ـ: فلما سمع أبو جهل لعنه الله رُعِبَ رعبًا شديدًا، وقال له: يا ابن أبي طالب، إذا أبيت عمّا عرضناه عليك من السلامة من القتل، فارجع إلى رحلك وبات ليلتك هذه، فإذا أصبح الصباح فاستعدّ للحرب والقتال، ثم أقبل على حنظلة وقال له: هذا الذي تحب مبارزته فابرز إليه فلا حجاب اليوم بينك وبينه...

قال ـ الراوي ـ: فمضى عنهم الإمام ﷺ إلى رحله، . . .

وقال لهم أبو جهل لعنه الله: يا قوم وحق اللات والعزى، لقد خاطبت الجبابرة ومارست الملوك الأكاسرة، فما رأيت أبلغ ردًا ولا أوسع قلبًا ولا أشدّ جنانًا من عليّ ﷺ، ولئن بارزتموه فارسًا بعد فارس لطحنكم كحب الحصيدة، أحرارًا منكم وعبيد، بقواضب من حديد، ولا أرى لكم طمعًا في قتله إلا بأحد الوجهين، أمّا الأول فإنه يبرز إليه ليث جسور ورجل صبور يهجم عليه في منامه، فإن لم يتمكن وإلا فاحملوا عليه بأجمعكم حملة رجل واحد فقدّوه بأرماحكم وقطّعوه بأسيافكم... قالوا: لقد أصبت في الجواب ونصحت في الخطاب...

ثم إنهم قالوا: من يبرز إليه ويكفينا شرّه، وإنه الساعة قد غمر في النوم فنعطيه نصف أموالنا!!!

فما نطق ناطق غير ابن أبي معيط، فقال لهم: عندي من يكفيكم شرّه وهو عبدي صارم، وكان العبد كقطعة جبل أو قلّة من القلل... فناداه مولاه: يا صارم!! فأجابه... وقال له: أنت معروف بالشجاعة، وقد اخترتك لنفسي، فخذ

سيفك وامضِ إلى هذا الصبي المسمّى بـ «عليّ» ﷺ واهجم عليه واضرب عنقه وآتني برأسه، فإنك تراه الساعة نائمًا أو غافلًا، فقم الآن وافعل ما أمرتك به، فأنت حرّ لوجه اللات والعزّى وأولادك، ولك عندي مائة ألف رأس من الغنم وعشرين ناقة حمراء. . .

فقال له العبد: فإن قتلني عليّ ﷺ فلا ينفعني العتق ولا المال. . .

فقال له مولاه: تجزع من هذا الصبي وهو لم يبلغ الحلم، واللات والعزى تنصرك عليه!!

قال ـ الراوي ـ: فنهض العبد وأخذ لامَة حربه وسار حتى وصل الشعب، وعليّ ﷺ جالس يحرس الهوادج. . . فتأمّله الإمام عليّ ﷺ ، وإذا بالعبد مقبل نحوه، فصبر له الإمام ﷺ حتى قرب منه، وَهَمَّ أن يعلوه بالسيف، فثار عليه الإمام ﷺ ثورة الأسد، فاندهش العبد وارتعش، وولّى هاربًا، فلحقه الإمام عليّ ﷺ بضربةٍ في ظهره، قطعه نصفين، فخرّ العبد قطعتين يخور في دمه، فحمله الإمام ﷺ ونصبه على رأس الجبل، وكأنه رجل جالس، ثم سنده بالحجارة، ثم أخذ الشطر الآخر منه فوضعه فوق الشطر الأول، ورجع الإمام عليّ ﷺ إلى مكانه وقريش ينتظرون قدوم العبد، فقالوا: ما لنا لا نرى للعبد أثرًا ولا خبرًا!!!

فقال لهم أبو جهل: وربّ الكعبة، لقد صرم(١) عليٌّ ﷺ عمر العبد. . . فلما كان الصباح نظر إلى الوادي فرأى شخص العبد على ذروة الجبل جالسًا!! فتأمله فإذا هو مسند بالحجارة، فقال لعقبة: ألا أبشرك أن العبد قد وكله عليّ ﷺ على سباع البرية وذئابها، وقد أجلسه في أرفع مكان!! . . .

فالتفت عقبة وإذا بالعبد مسند بالحجارة، فقال له عقبة: أتستهزئ بي يا أبا الحكم!! فقال: وكيف لا أستهزئ بك وأنت تزعم أن عبدك صار كفؤ لعليّ ابن أبي طالب!! فبينما هم في الجدال إذ طلع عليهم الإمام عليّ ﷺ ، حاسر العمامة من رأسه ورمحه بيده فوقف بإزائهم وقال بأعلى صوته: يا معاشر قريش ها أنا خارج عنكم بالضماين فهل لكم في طلبي حاجة!! فجعل بعضهم ينظر إلى بعض. . .

---

(١) قطع، وهنا يأتي معناه: أنهى عمره.

فقال عقبة بن ربيعة لحنظلة: يا ابن أبي سفيان أخرجتنا لنقتل أنفسنا من أجلك، فدونك وقرينك، فهو هذا معك!!

فقال حنظلة لعليّ ﷺ: وحق اللات والعزى والهبل الأعلى لأردّها كرهًا يا عليّ!!

فغضب الإمام عليّ ﷺ من كلامه ومواليد سنانه وأطلق عليه عنانه وسيفه مشهور بيده... فثبت له حنظلة وشهر سيفه، وأظهر رمحه، وأطلق عليه عنانه وقوى جنانه...

قال (الراوي): فتجاولا طويلًا واعتركا مليًّا، فحمل عليه الإمام عليّ ﷺ ثم طعنه فأصابت الطعنة رمحه فكسره ثم زعق عليه زعقة الغضب فأدهشته وأرعشته... قال زيد بن حارثة: (خلنا أن السماء قد وقعت على الأرض من شدّة الزعقة)!! ثم طعنه طعنة هاشمية في صدره أخرج السنان من ظهره مقدار ثلاثة كعوب... قال: فألقاه من على ظهر جواده يكدم الأرض بفمه... فلما رأت قريش حنظلة وقد صرعه الإمام عليّ ﷺ حملوا عليه حملة رجل واحد بقلوب محترقة ونفوس مغضبة، فلم ير منهم إلا لمعان السيوف وبريق الأسنّة وصهيل الخيل وقعقعة اللجم، فلم يزالوا كذلك ساعة من النهار، وإذا بالغبرة قد انكشفت وصفا الجوّ وانهزم الباقون وولّوا الدبر، وقتل منهم مائة فارس، وصاح بهم عتبة بن ربيعة وقال لهم: لو كنتم غم من البادية ما كنتم كذلك فما عذركم عند سادات العرب والفرسان والأقران، يذلكم صبيّ صغير من بني هاشم، أمَا تخشون أن تتحدّث بكم الرجال في محافلها، والنساء في منازلها، تبًّا لكم في تسعة آلاف فارس وتسعة آلاف راجل، يقتلكم صبي صغير من الصبيان، فما أنتم إلّا رعاة أغنام، إنّ هذا لهو الهول العظيم والخطب الجسيم، أفٍّ لكم من سادة، وتعسًا لكم من قادة، فما فيكم إلا كل جبان من نسل اللّئام يا ويلكم، اجتمعوا إليه واصدقوا الحملة عليه، فما قتل منكم إلا كل ضعيف وابن حرام، وكل ذليل وجبان وأنتم صناديد العرب وفرسان الحرم وأبطال الصفا وزمزم!!

قال ـ الراوي ـ: فزادهم الحنق وازورت منهم الحدق وجرى منهم العرق وكثر القلق غيظًا وحنقًا على الإمام عليّ ﷺ، فحملوا عليه حملة من عاف الحياة ولم يرضَ إلا بالممات.

قال ـ الراوي ـ: فكبّر الإمام عليّ ﷺ وغاص في أوساطهم، وخرج من أعراضهم، وقلب الميمنة على الميسرة، وقلب الميسرة على الميمنة، وحمل على

القلب، وغاص في أوساطهم، وخرج من أعراضهم وأدار بهم كدوران الرحى في الطاحونة، وصال وجال، وقال: يا معشر قريش، يا بني مخزوم، يا بني زهرة، يا بني لؤي، يا بني جمح، يا بني عدي، يا بني النضر، يا بني أُميّة!! إلى أين تذهبون، ولأي وقت تمرحون فأنا الفتى الكرّار، والفارس المغوار، وقاتل الجنّ في الغار، وأنا مفني الكفار، وأنا مبيد الفجّار، وأنا مبطل سحرة السحّار، وأنا أبو الأئمة الأبرار، وأنا حامل الصخرة بالنهار، وأنا قاسم الجنّة والنار، وأنا قالع الباب، والأسد الوثّاب، والضارب بالقرضاب، والمذكور في أُمّ الكتاب، فمن أحبّني فقد استحقّ الأجر والثواب، ومن بغضني فقد استحقّ القتل والعقاب، أنا وليّ الملك الوهّاب، وأنا النجم الثاقب، والسيف القاضب، وأنا أسد الله الغالب، وسهمه الصائب، وأنا مبين العجائب، وأنا الإمام الهمام، والليث الضرغام، والبطل القمقام، والسيف القصّام، وأنا عليّ بن أبي طالب!! ...هل فيكم مبارز إلى فتى غير عاجز! هذا يوم الهزاهز!!

فلم يردّ عليه أحدًا جوابًا، ولا نطق أحد منهم بخطاب، لما رأوا من سبيل الدماء وكثرة القتلى...

فقال لهم عليّ ﷺ: أُفٍّ لكم ولآلهتكم التي تعبدونها من دون الله، لم لا تنصركم عليّ!!

قال ـ الراوي ـ: فاجتمع رأيهم العمي على أن يبرز إليه منهم واحدًا بعد واحد...

فبرز إليه رجل عظيم الخلقة شديد الصهالة، تهابه الفرسان في المقابلة، فحمل عليه عليّ ﷺ [وهو] يقول شعرًا:

هلمّوا إليّ اليوم حقًّا لتنظروا   فتى ليس من أمثالكم هو يجزع
صدوق اللّقى يوم الوغى أسد الشرى   فصارمه يفني الرقاب ويقطع

قال الراوي: ولم يزل الإمام عليّ ﷺ يقتل منهم فارسًا بعد فارس، وبطل بعد بطل، حتى قتل منهم ما شاء الله تعالى، وخاضت الخيل في الدماء كخوض البحر ومنقلبهم إلى النار، وانهزم الباقون، وولّوا الدبر، ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور، ومصائب الدهور، فصاح عقبة بن أبي معيط وقال لهم: ما هذه الفضيحة والدمار!!

فقال له أبو جهل لعنه الله: يا ويلك فهل في الفضيحة غيرك، فلو برزت إليه لقتلك وجعل لحمك رميمًا وأعدم نفسك وأسكنك رمسك عن قريب، فما بالك نكصت على عقبيك، وولّيت على دبرك، وإني وراءك نلوذ عنه كما تلوذ الحمام عن الصقر خوفًا وجزعًا من الموت، وما كان أسرع هزيمتهم بالذلّ والصغار والويل والدمار، وانهزموا على وجوههم، وسار (الإمام عليّ ﷺ) مؤيّدًا منصورًا متوجًا محبورًا.

قال ـ الراوي ـ: فهبط الأمين جبرائيل على النبيّ ﷺ وأخبره بما كان من أمر الأرجاس والأنجاس ورجوعهم بالذلّ والشنار والحسرة والانكسار بعد أن قتل منهم تسعة آلاف فارس ومثلها راجل، فلم ينجُ منهم إلا خمسون فارسًا، فسار عليّ ﷺ إلى النبيّ ﷺ بالفواطم والحريم والأطفال حتى نزلوا بالضّيحات، وهو جبل من نواحي مكّة، فأقاموا به من هناك حتى لحقت به أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ، ولحق به كثير من المؤمنين من أهل مكّة، وبات علي ﷺ ومن معه من المؤمنين قيامًا وقعودًا ركّعًا وسجدًا، فما زالوا كذلك حتى مطلع الفجر، وصلّى الإمام عليّ ﷺ ومن معه من الناس صلاة الصبح وساروا ولم يزالوا يعبدون الله سرًّا وجهرًا ويذكرونه في كل مكان ومنزل، فنزل الوحي على رسول الله ﷺ في شأنهم، وهو قوله تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: الآية ١٩٥]، فالذكر: عليّ بن أبي طالب ﷺ، والأنثى: فاطمة الزهراء ﷺ ابنة خاتم الأنبياء وزوجة سيد الأوصياء، أم سيد الشهداء، سيّدة النساء عليهم أفضل الصلاة والسلام.

قال الراوي: فلما ورد عليّ ﷺ المدينة استقبله النبيّ ﷺ في رجال من أصحابه من المدينة وضمّه إلى صدره، وهو يقول: من مثلك يا أبا الحسن وقد وفيت بعهد الله وأنجزت وصية رسول الله ﷺ ووقيته بنفسك، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى... وكاشف الكرب عن وجهي، وقرّة عيني وروحي التي بين جنبي، وبنفسك وقيتني، وبروحك فديتني، وأنت خيرتي من أهل بيتي، وأنت المفسّر لكتاب ربّي، وأنت وذرّيتك مني ومعي، وأنت وزيري، وأنت الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر،... أنت معي وذريتك ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ

رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١ - ١١]. . . أنت هازم الأحزاب وقالع الباب، والأسد الوثّاب، المكنى أبو تراب، . . . فوالذي نفسي بيده لا يحبّك إلّا كل مؤمن سعيد، ولا يبغضك إلا كل منافق عنيد، والسلام على من اتّبع الهدى، وخشي عواقب الرّدى، وأطاع الملك الأعلى. . .

قال - الراوي -: وأتى عليّ المدينة إلى النبيّ ﷺ وهو نازل بقبا في بني عمرو بن عوف، ولم يدخل المدينة حتى قدم عليّ ﵇، فلما جاء، خرج النبيّ ﷺ من قبا يوم الجمعة بجمع من الناس ومن معه من المسلمين، وهم يومئذٍ مائة رجل ثم ركب ناقته وجعل يكلّمونه في النزول عليهم لتحصل لهم البركة، ويأخذون بخطام الناقة، فقال النبيّ ﷺ: خلوا عن زمامها فإنها مأمورة، فسارت الناقة حتى بركت عند موضع رسول الله ﷺ، وكان عليّ ﵇ على باب بيت أبي أيوب الأنصاري، وكان يصلّي في ذلك الموضع رجل من المسلمين، وكان لسهل وسهيل غلامان من بني مالك بن النجار، اشتراه رسول الله ﷺ بعشرة دنانير، وقيل: امتنعوا من بيعه وبذلوه لوجه الله تعالى وهو الصحيح، فاتّخذه رسول الله ﷺ مسجدًا وهو مكان مسجده الآن، وهذا شيء من بعض فضائل أبي الحسن ﵇ ومواطن جهاده التي قام فيها بالفروض والسُّنن، فمنها ما كان مع رسول الله ﷺ وذلك على رأس ثمانية عشر شهرًا من مقدمه إلى المدينة، وعمرُ عليّ ﵇ ذلك اليوم سبعة عشر سنة. . . قال: ودخل المدينة ووجوههم تتهلّل بالسرور والفرح.

قال جابر بن عبد الله الأنصاري ﵁: ولما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: الآية ١٢].

قيل دعا النبيّ ﷺ النساء إلى بيعته، وكانت فاطمة بنت أسد ﵍[1] وقد بايعت النبيّ ﷺ وقد أقرّت بنبوّته.

---

(١) والدة الإمام عليّ ﵇.

وعن جعفر بن محمد ﷺ: أن فاطمة بنت أسد ﷺ أوّل من بادرت بالخروج مع ابنها عليّ ﷺ من مكّة إلى المدينة، وكانت تسمع من النبيّ ﷺ يقول: إن يوم القيامة يحشرون عراة... قالت فاطمة بنت أسد ﷺ: وافضيحتاه ينظر بعضنا بعضًا، قال ﷺ: نعم، ولكن أسأل الله تعالى أن يبعثك مكسيّة يوم القيامة...

ورُوِيَ: إنها لما ماتت كفّنها النبيّ ﷺ بقميصه بعدما فرغن النساء من غسلها، وحمل جنازتها على عاتقه، وصلّى عليها أولادها وجمع من بني هاشم وأولاد عبد المطلب، وكان مشهورًا، وواراها في قبرها بعد أن صلّى عليها ودخل قبرها ثم لحدها فيه، وهو يبكي طويلًا، وجعل يناجيها، ثم قال: ابنك ابنك الأصغر لا عقيل ولا جعفر، ثم سوّى عليها اللبن وأهال عليها التراب، وهو يقول: وحدك لا شريك لك، اللّهمّ إني أستودعك هذه الوديعة، اللّهمّ احفظها واحرسها بعينك التي لا تنام... ثم انصرف عنها وهو يبكي ويقول: اليوم فقدت أبي طالب، وجعل يقول: يعزُّ عليَّ فراقكِ يا أمّاه! ولقد استوحشت بعدكِ، فعليك مني السلام... ثم بكى وأبكى من معه حتى أشفق الناس عليه، فقال له المسلمون: يا رسول الله لقد فعلت اليوم فعلًا لم تفعله بأحد قبل اليوم!! فقال وهو يبكي ويقول: فقدت أمي والله، وإنها كانت تبرني على أولادها، وإنه كان في دار عقيل نخلة، وكانت تروح من الغلس وتلتقط ما تحتها وتعطيني إياه عن أولادها وهم نيام، فإذا مضوا أولادها يلعبون مع الصبيان تناولني إيّاه، وكانت تؤثرني على نفسها وأولادها، وإني ذكرت لها القيامة يومًا وأن يحشرنا(١) عراة، فقالت: وافضيحتاه ينظر بعضنا بعضًا!! فضمنت لها أن يبعثها الله مستترة وينجيها من ضغطة القبر، وانكببت عليها ألقنها، فلما أتاها منكر ونكير وسُئِلَت عن ربها، قالت: الله ربي... وسُئِلَت عن نبيّها قالت: محمد نبيّي... ثم بكى وأبكى كل من كان حاضرًا... ونسبتها فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وما خلق أسد من أجلها، وكان نساء بني هاشم يفتخرن بها على قريش، وهي إحدى الفواطم...

ثم قال النبيّ ﷺ: عليك مني السلام يا فاطمة بنت أسد ورحمة الله وبركاته... ثم بكى، وقعد في العزاء وعزّاه الناس...

---

(١) الله تعالى.

(ثم يختتم الراوي، فيقول):

وهذا شأن الزمان يرى الخلق بصروفه بالحدثان، ولا أمان للزمان، والحمد لله الملك الديّان، وصلّى الله على سيّد بني عدنان...[1].

حسد أبي جهل من تزويج عليّ ﷺ بفاطمة الزهراء ﷺ

ليس المهم هنا صحة موضوع الخبر في حضور أبو جهل إلى محشر زفاف عليّ وفاطمة وارتحاله من أجل ذلك من مكّة إلى المدينة ومجازفته بذلك... والأمر بينه وبين المسلمين وصل في غاية التوتّر... وإنما العبرة كل العبرة في تسجيل الخبر على علّاته ومحامله هو للتأكيد على استمرار الاصطراع النفسي الذي كان يتأجّج في نفسية أبي جهل ضدّ محمد ﷺ، وهو استمرارٌ للصراع الذي يمتد جذوره إلى الطفولة الأولى التي كانا فيها، ومواقف أبو جهل اللّئيمة من محمد ﷺ آنذاك، ثم تطوّر حلقات الحقد على محمد ﷺ في مبعثه، وهجرته، ... الخ.

وفي هذه المرة، أي قيام محمد ﷺ بتزويج عليّ ﷺ يكشف أبو جهل بعدما يصله الخبر كل صراعه وحقده وضغينته وغيرته من الرسول ﷺ، بتوفيق الله له في كل الأمور وتزويج ابنته من سيّد فتيان بني هاشم، وفي هذا ادلال على لئامة أبو جهل وإصراره على استمرار حلقات صراعه ضدّ هذا النبيّ الكريم محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب، خاتم الأنبياء والمرسلين.

ولنطّلع على شيء من التفصيل حول هذا الموضوع من كتاب (مولد بطل الإسلام)[2]، حيث أشار عن ذلك بقوله:

قال الراوي: فلما بلغت فاطمة الزهراء مبالغ النساء، وأراد الله تعالى أن يزوّج الطاهر بالطاهرة، أقبلت الملوك من الشام والعراق والحبشة ومصر وأهل الحجاز واليمن وجميع البلدان، من الأكابر، يريدون المصاهرة من رسول الله ﷺ، وبذلوا إليه الجزيل من الأموال، من الذهب والفضّة والدرّ والجوهر، وهو يأبى عليهم ويقول: ليس أمرها إليّ، وإنما إلى الله تعالى عزّ وجلّ، وليس لأحد فيها

---

(١) راجع ص ٧٣ ـ ١٣٠ من كتاب (مولد بطل الإسلام) للشيخ أبو العلى الحسن بن أحمد بن يحيى الأزدي.

(٢) راجع ص ١٣١ وما بعدها.

أمر وما...[1] أحق بها من علي بن أبي طالب ، وكان رسول الله ﷺ لا يفارق عليًا ليلًا ولا نهارًا، وكان قد بلغ عليّ مبالغ الرجال، وقوي بأسه، فلما كان ذات يوم من الأيام قبّل النبيّ ﷺ ما بين عينيه، وقال: يا أبا الحسن إني أريد أن أزوّجك بامرأة من بني عمّك!! فقال: يا رسول الله إني رجل فقير لا مال لي ولا تجارة سوى درعي ولامَة حربي... فقال النبيّ ﷺ: ليس لك من الذي ذكرت غناء، وإنك محتاج إليه في مهمات الحرب والجهاد في سبيل الله تعالىٰ، يفتح الله عليك بالخير، وهو الفتّاح العليم... وخرج - عليّ - من عند رسول الله ﷺ بعد أن أكل طعامًا [مع الرسول ﷺ]...

قال الراوي: فاجتاز عليّ في طريقه على سلمان الفارسي وعمار بن ياسر وأبي ذرّ ، وهم يتحدّثون في أمر عليّ ... فلما رآهم - عليّ - أقبل عليهم، فضحكوا في وجهه وأمسكوا عن الكلام... فقال لهم: ما كنتم تقولون، وما عندكم من الكلام، وما يضحككم!!

قالوا: كنّا نتكلم في أمرك، ونقول: إنّ عليًا لا يصلح أن يكون بلا زوجة، وما تصلح له إلا فاطمة الزهراء بنت محمد المصطفى ﷺ، لأنها أجلّ وأفضل من نساء قريش وبني عبد المطلب، فقال عليّ: يا أصحاب رسول الله ﷺ، وأنتم تعلمون أني رجل فقير وليس لي مال، وكيف أتزوّج وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النُّور: الآية ٣٣]!!

قال له عمار بن ياسر : أنا أضمن لك من مالي بمهر فاطمة ، فقوموا بنا إلى رسول الله ﷺ لكي نخطب فاطمة !!

فقال عليّ : مرّوا بنا على منزل إخوتي عقيل وجعفر، فلما أتوا إليهما أخبروهما بالأمر، ففرحا بذلك فرحًا شديدًا!!

فقال عقيل[2]: أنا أضمن لك من مالي وليمة العرس...

وقال جعفر[3]: وأنا أضمن لك الثياب...

(١) الكلمة ممسوحة عن النسخة التي بين يدي. (٢) عقيل بن أبي طالب .
(٣) جعفر بن أبي طالب .

فقال سلمان الفارسي: انصلحت الأحوال، فقوموا بنا معًا إلى رسول الله ﷺ!!

فمضوا جميعًا إلى رسول الله ﷺ، فلما رآهم قال: مرحبًا بكم يا أولاد عمّي ويا أعزّ الخلق عليّ، وأحبّائي!!... فلما استقرّ بهم الجلوس، قال لهم: أضاءت بكم الديار، وأهلًا وسهلًا بكم، يا خير زوّار، فما حاجتكم! وما تريدون؟!

قالوا: يا ابن عمّنا إنا دخلنا الحزن من وحدة عليّ بن أبي طالب ﷺ، وقد جئنا إليك خاطبين وفيك وفي ابنتك فاطمة الزهراء راغبين، ونريد أن تزوّج فاطمة الزهراء من عليّ ﷺ، فإنه يزينها ولا يشينها، وهو الشرف الأعلى... فقال لهم: حبًّا وكرامة، فقد أتاني حبيبي جبرائيل وأخبرني ذلك عن أمر ربّي عزّ وجلّ(١)، ولكن فاطمة يتيمة لا أمّ لها، وتريد من يصلح أحوالها!! فقال عقيل: نحن نصلح أحوالها!!

ثم مضى من وقته وساعته إلى منزل صفية وعاتكة عمّات النبيّ ﷺ، وقال لهما: إنّا مضينا نخطب فاطمة الزهراء من رسول الله لعليّ، فاعتذر لنا أنها يتيمة ولا أمّ لها ونريد من أعمال النساء لها!!

فقالتا: نحن نعمل أعمال النساء لفاطمة...

فقاموا جميعًا إلى بيت رسول الله ﷺ، وقالوا له: إن صفية وعاتكة تعمل أعمال النساء لفاطمة ﷺ، فقال لهما: جزيتما خيرًا...

وقال عقيل: يا رسول الله كم مهر فاطمة!!

قال: أربعمائة مثقال من الذهب الأحمر!

فقال عقيل: رضيت بذلك؟

قال: نعم...

فقال النبيّ ﷺ: «أحضروا المال إلينا»...

---

(١) في كتاب ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى لمحب الدين الطبري تأكيد على خبر زواج عليّ وفاطمة بأمرٍ من السماء الأعلى... [يراجع موضوع فاطمة الزهراء].

فمضى عمار بن ياسر نحو منزله وأتى بالصداق المذكور ودفعه إلى عليّ ﷺ، فقبضه عليّ ﷺ ودفعه إلى رسول الله ﷺ.

قال الراوي: فلما كان صباح الخميس عمد عقيل إلى جزور فنحره وذبح إبلًا كثيرة وعملوا وليمة العرس، وكان ذلك ليلة الجمعة[1]...

ثم يمضي بنا الراوي فيسرد لنا في وصفه البديع مشاركة أهل السماء لفرحة أهل الأرض بمناسبة عقد نكاح فاطمة وعليّ ﷺ، فيقول وهو المسؤول عمّا يروي:

قال النبيّ ﷺ لابنته فاطمة: يا فاطمة أراد الله أن يملّكك من عليّ ﷺ، أمر جبريل فقال في السماء الرابعة وصفَّ الملائكة صفوفًا وخطب خطبة فزوّجكِ من عليّ ﷺ، ثم إن الله تعالى أمر شجرة طوبى فحملت الحلى والحلل ثم أمرها فنثرت على الملائكة، فمن أخذ منها أكثر ممن أخذه غيره افتخر به إلى يوم القيامة، ثم أن النبيّ ﷺ طلع ذات يوم ووجهه مشرق كدائرة القمر، فقيل له: ما هذا يا رسول الله!!

قال: بشارة أتتني في أخي وابن عمّي عليّ بن أبي طالب ﷺ وابنتي فاطمة ﷺ، وأن الله تعالى قد زوّجها من عليّ ﷺ، وأمر رضوان، خازن الجنان، يهزّ شجرة طوبى وهي قد حملت رقاعًا، يعني سكاكًا بعدد محبّي أهل البيت وأنشأ من تحتها ملائكة من نور ودفع إلى كل ملك صكًا، فإذا استقرّت الملائكة بأهلها أذن للملائكة في الخلائف، فلا يبقى محب لأهل البيت إلا دفعت إليه صكًا فيه فكاك رقابهم من النار رجالًا ونساء...

فلمّا كان ليلة الجمعة، أمر رسول الله ﷺ أن ينادىٰ في جميع الناس عامة، فاجتمع الناس من كل فجٍّ عميق ووادٍ سحيق، وكان عدد من حضر ذلك اليوم عشرون ألف رجل، سوى العبيد والصبيان... فلما كانت الليلة المباركة وأراد الله تعالى أن يزوّج الطاهر بالطاهرة هبط الأمين جبرائيل من عند ربّ العالمين وقال للنبيّ ﷺ: يا محمّد العليّ الأعلى يقرؤك السلام ويخصّك بالتحية والإكرام، ويقول لك: إن الله تعالى جمع الملائكة الروحانيين والكروبيين في وادٍ يقال له (الأفتح) تحت شجرة طوبى، وتزيّنت الحور العين، وأمر الله تعالى الملائكة أن

(١) راجع ص ١٣١ ـ ١٣٤ من كتاب (مولد بطل الإسلام).

تجتمع في السماء الرابعة عند البيت المعمور، فهبط مَنْ فوقها إليها وصعد مَنْ تحتها عليها، وأمر الله رضوان، فنصب منبر الكرامة على باب البيت المعمور، وهو الذي خطب عليه آدم عليه السلام يوم عرض الأسماء على الملائكة وهو منبر من نور، وأوحى الله عزّ وجلّ إلى ملكٍ من ملائكة الحجب يقال له: راحيل، أن يعلو على ذلك المنبر، وأن يحمده بمحامده وأن يمجّده بتمجيده، وأن يثني عليه بما هو أهله... قال: فارتجّت السماوات فرحًا وسرورًا، ثم قال جبرائيل: فأوحى الله إليّ أن أعقد النكاح، فإني قد زوّجت فاطمة الزهراء بنت حبيبي محمد المصطفى ﷺ من عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال جبرائيل: فعقدت وشهدت على ذلك الملائكة أجمعين وكتبت شهاداتهم في هذه الحريرة... وقد أمرني ربّي أن أختمها بخاتم مسك وأن أدفعها إلى رضوان وأن الله قد أشهد الملائكة على تزويج عليّ ﷺ من فاطمة ﷺ، ثم أمر شجرة طوبى أن تنثر حملها من الحلى والحلل، فنثرت ما فيها والتقطت الملائكة والحور العين، وأمر الله عزّ وجلّ أن أخطب فاطمة من أبيها وأن أزوّجها من عليّ ﷺ!!

فقال رسول الله ﷺ: قد فوّضت أمرها إلى الله عزّ وجلّ، فنِعْم المولى ونِعْم الخطيب، أنت يا جبرائيل ونِعْم الشهود الملائكة، وكان الله وليّها وجبرائيل خطيبها والملائكة شهودها...

قال الراوي: ثم أمر الله سبحانه وتعالى جبرائيل أن ينادي في السمٰوات والأرضين والجبال والبحار وبجميع الملائكة إلى البيت المعمور، فاجتمعت وقالت: إلٰهنا وسيّدنا ومولانا، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: الآية ٣٢] ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: الآية ٣٥]!!

فأجابهم الحق سبحانه: إني أريد أن أشهدكم إني قد زوّجت الطاهر بالطاهرة والصادق بالصادقة، فقفوا صفوفًا من المشرق إلى المغرب، فوقفوا وارتفعت أصواتهم بالتسبيح والتقديس والتكبير والتهليل بالثناء على ربّ العالمين...

فأوحى الله إلى رضوان، خازن الجنان، أن يزيّن الجنان، ويصفّ الحور والولدان، ويصفّ أقداح الشراب، ويزيّن الكواكب والأتراب، ويفرش البيت المعمور بفرش العبقري والاستبرق، والرفوف الأخضر والأحمر والأسود والأبيض، والاستبرق الأصفر، وعلق فيه قناديل الدرّ بسلاسل المرجان، وصفّ فيه الحور والولدان حول البيت المعمور ومنابر الرحمة وكراسي الكرامة، وأنشأ

فوق رؤوسهم سحابة من نور تغشي الأبصار حشوها المِسْك والكافور والعنبر، وأمرها تمطر على رؤوس الملائكة، فمطرت، فرفرت الملائكة بأجنحتها، وأعلنت التسبيح والتقديس والتكبير لربّ العالمين، وقالت لك: الحمد يا رحمان... وأمر شجرة طوبى وسدرة المنتهىٰ أن تحمل الدرر والجواهر واليواقيت، وأوحى الله إلى الأمين جبرائيل عليه السلام أن أرق منبر الكرامة واعقد النكاح فوق المنبر، وقال:

الحمد لله منشي الأرواح، وفالق الأصباح، ومفدي الأرواح، المصوّر على عرشه خمسة الأشباح، ذو الجود والسماح، الذي بيده كل مفتاح، محيي الأرواح، ومخرج النبات، ومنزل البركات، ورادّ ما فات، وعالم بما هو آت، الذي رفع السماء وبناها، وسطح الأرض فدحاها، وأنشأ الجبال فأرساها، وأترع البحار فأجراها، الواحد الخلّاق، والكريم الرزّاق، بارئ الأنام، ومنشئ الغمام، الذي لا يشغله شيء، ولا تختلف عليه اللغات، ولا تأخذه نوم ولا سنّات[1]، الملك الكبير، اللطيف الخبير، ربّ الإنس والجان، والملائكة الكرام، ربّ الأرباب، الملك الوهّاب، أكرمنا بالنبيّ ﷺ وشرّفنا بعليّ ﷺ، ونشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمّدًا عبده ورسوله... واشهدوا يا معاشر الملائكة المقرّبين الراكعين الساجدين المسبّحين، وجميع أهل السماوات والأرضين بأني قد زوّجت سيدة نساء العالمين، فاطمة بنت محمد الأمين صلّى الله عليهم أجمعين، بعليّ بن أبي طالب ﷺ... على أن لها من أمر رب العالمين... فأوحى الله تعالىٰ إليهم: قد زوّجت عليّ بن أبي طالب بسيّدة نساء العالمين... قال: فضجّت الملائكة بالتسبيح والتقديس والتهليل والتكبير والثناء لربّ العالمين...

قال الراوي: فنثرت شجرة طوبى وسدرة المنتهى على الحور والولدان الدرر والجوهر واليواقيت، ولم يزالوا يتهادونه إلى يوم القيامة، ويقلن: هذا نثار فاطمة الزهراء ﷺ يوم زفافها على عليّ ﷺ، فعند ذلك هبط الأمين جبرائيل من عند ربّ العالمين وإسرافيل وميكائيل والملائكة المقرّبون وفي أيديهم ألوية الحمد ورايات العزّ والنصر وزخرفت الجِنان وأشرفت الحور والولدان ومعهن الكواعب الحسان، وغنّت الأطيار على رؤوس الأشجار، واهتزّ فرحًا عرش الملك الجبار،

(١) سنات: جمع سُنَة: غفوة. ولعلّ الكلمة «سيات»، والله أعلم.

وصفقت ورق الأشجار، فرحًا بما خصّ به محمد المختار، وعليّ الكرار، وفاطمة الزهراء سيّدة الأبرار، وهبّت ريح الرحمة، وجلس النبيّ ﷺ عند عليّ ﷺ وبنو عبد المطلب وبنو هاشم وبنو عبد مناف وأجلسوا عليًّا ﷺ على كرسي من الذهب الأحمر ورصّع بالدر والجوهر، ووضعوا على رأسه تاجًا من العقاب الأحمر مرصّع بالدر والياقوت الأخضر... قال من حضر ذلك اليوم: والذي بعث محمّدًا بالحق واصطفاه بالرسالة نجيًّا... لما لبس عليّ ﷺ أثوابه ووضع التاج على رأسه ظننا أنه رسول الله ﷺ ولم نعرف هذا من هذا...

قال الراوي: فخطب رسول الله ﷺ وعقد النكاح، وقال:

بسم الله الرحمـٰن الرحيم، الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، وميّزهم بحكمته، وأعزّهم بدينه، وأكرمهم بمعرفته، وخصّهم بنبيّه محمد، وأن الله تعالىٰ جعل تلك المصاهرة نسبًا لإمضاء أمرًا [كان] مقضيًّا، وحكمًا عادلًا، وأجرًا جامعًا، وفتح بها الأرحام، ولزم بها الأنام، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٥٤]، وكان ربك قديرًا، وأمر الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري على قدره، ولكل قضاء قدرًا، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب...

وبعد: فإن الله أمرني أن أزوّج فاطمة الزهراء ابنتي من عليّ بن أبي طالب على أربعمائة مثقال من الفضة على السنة القائمة والفريضة الواجبة، فجمع الله شملهما، وبارك لهما، وطاب نسلهما، وجعل في نسلهما الرحمة ومعادن الحكمة، وأمان الأمّة، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم إنه غفور رحيم...

ثم إن النبيّ ﷺ أمر عمّار وسلمان والمقداد وأبا ذرّ يمضون إلى سوق المدينة وأعطاهم الدراهم وأن يشترون لفاطمة بعشرة دراهم خمارًا، وبعشرة ثوبًا، وبعشرة مقنعة، وعشرة تمرًا، وعشرة سمنًا وجبنًا...

قال الراوي: ثم إنهم مضوا إلى السوق واشتروا جميع ما أمرهم به رسول الله ﷺ وأتوا به إليه، ثم أمرهم أن يضعوه في إناء واسع فأخذ جميع ما أتوا به، فلما كانت الليلة المباركة أمر رسول الله ﷺ مناديه أن ينادي في الناس عامّة، فاجتمع الناس من كل فجٍّ عميق ووادٍ سحيق...

قال الراوي: وكان عدد من حضر في ذلك اليوم عشرة آلاف رجل غير العبيد والصبيان والنسوان، فلما سمع أبو جهل ذلك، قال: نمضي نتفرّج على

عرس عليّ بن أبي طالب وفاطمة الزهراء... فلما رأى كثرة الجموع، قال: أيّها الناس إنما دعاكم محمد ليستهزئ بكم، وإن وليمته ما تشبع إلّا رجل واحد!!

فقال له عقيل: أقصر عن هذا الكلام، قبّح الله فعلك وأخزاك في الدنيا والآخرة!! وهمّ أن يضربه بالسيف، فمنعه عليّ (س) وقال له: لا تعجل فإن الله سريع الانتقام!!...

ثم أمر رسول الله ﷺ أن يفرق الطعام في الجفان، وأكل الناس حتى اكتفى كل من كان حاضرًا، وكان عددهم عشرون ألفًا...

قال الراوي: وأمر بإحضار من كان في المسجد فأكلوا بحسب الكفاية، ولم ينقص من الطعام شيء...

وكان أبو جهل (لعنه الله) قد أكل معهم...

فقال له: يا أبا جهل، أشبعت أم لا؟!!

... فخرج وهو خجلان ولم يردّ جوابًا...

وكان قد أكل من في المدينة ونواحيها، وصارت الجفان كأنها ينبوعًا بقدرة الله تعالى...[(١)].

وهنا نمسك بيدنا المقص لنستأذن من القارئ الكريم بقطع شريط الرواية عن تفصيل الخبر في زواج عليّ وفاطمة، لأننا أخذنا ما فيه حاجتنا إليه، وهو ذكر أبو جهل وموقفه من هذا الزواج المبارك، ومن أراد التفصيل فليراجع الكتب الأساسية في ذلك...

إلا أني أودّ أن أذكر شيئًا حضر أمامي الآن للقارئ الكريم وبه أغلق الموضوع، والخبر طبعًا يتعلق بزفاف عليّ وفاطمة، فقد ورد:

... وفي ليلة الزفاف أتى الرسول ﷺ ببغلته الشهباء وثنى عليها قطيفة، وقال لفاطمة: اركبي!! فأركبها، وأمر سلمان أن يقود بها ومشى ﷺ خلفها، وحمزة وعقيل وبنو هاشم مشهرين سيوفهم، وأمر بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة، وأن يفرحن ويرجزن ويكبِّرن

---

(١) يراجع ص ١٣٤ ـ ١٤١ من المصدر السابق [مولد بطل الإسلام].

ويحمدن ولا يقلن ما لا يرضي الله، ونساء النبيّ ﷺ معها، فأنشأت أم سلمة (أمّ المؤمنين) ترجز وتقول:

سرن بعون الله جاراتي ... واشكرنه في كل حالات
واذكرن ما أنعم ربّ العلى ... من كشف مكروه وآفات
فقد هدانا بعد كفرٍ وقد ... أنعشنا ربّ السماوات
وسرن مع خير نساء الورىٰ ... تفدى بعمّاتٍ وخالات
يا بنت من فضله ذو العلى ... بالوحي منه والرسالاتِ

ثم قالت عائشة رضي الله عنها:

يا نسوة استرن بالمعاجر ... واذكرن ما يحسن في المحاضر
واذكرن رب الناس إذ يخصنا ... بدينه مع كل عبدٍ شاكر
والحمد لله على أفضاله ... والشكر لله العزيز القادر
سرن بها فالله أعلى ذكرها ... وخصّها منها بطهر طاهر

ثم قالت رضي الله عنها[1]:

فاطمة خير نساء البشر ... ومن لها وجه كوجه القمر
فضّلك الله على كل الورى ... بفضل من خصّ بآي الزمر
زوّجك الله فتىً فاضلًا ... أعني عليًا خير من في الحضر
فسرن جاراتي بها فإنها ... كريمة عند عظيم الخطر

ثم قالت معاذة واسمها كبشة بنت رافع، وهي أمّ سعد بن معاذ الأنصاري الأوسي رضي الله عنهما:

أقول قولًا فيه ما فيه ... وأذكر الخير وأبويه
محمد خير بني آدم ... ما فيه من كبر ولايته
بفضله عرفنا رشدنا ... فالله بالخير يجازيه

---

(١) عمّة النبيّ ﷺ وأم الصحابي الشهير الزبير بن العوام رضي الله عنه، وكانت شاعرة، وباسلة، ومجاهدة... [لمعرفة المزيد عنها يراجع كتاب صفية بنت عبد المطلب تأليف جميل إبراهيم حبيب].

ونحن مع بنت نبيّ الهدى ذو شرفٍ قد مكنت فيه
في ذروة شامخة أصلها فما أرى شيئًا يدانيه[1]

أقول معلّقًا: لو كان أبو جهل حاضرًا حقيقة، ولاحظ هذا الابتهاج، وهذا الحفل العظيم، وهذه الهيبة والجلال اللائقان بمقام فاطمة وعليّ ﷺ، والأفراح التي أقيمت بهذه المناسبة العزيزة على أهل السماء والأرض، ماذا كان موقفه!!؟

وماذا كان يدور في خلده!!؟

الجواب:

بالتأكيد إنه كان يكاد يتميّز من الغيظ، ويزداد حرقة قلبه التهابًا، وتنقطع أنفاسه، وتتصاعد حسراته كمدًا وحقدًا وحسدًا... وواقع الأحوال يقرر: أنه سمع بذلك، إن لم يكن رأى، ووصله الخبر، وقد أغاظه ذلك، وقد أثقله الحزن والكمد، ولم يسعد، ويبدو أنه كتم الألم في قلبه كما تكتم الحبّة السمة في جوفها، وكان لهذا الكتمان مضاعفات، ومضاغطات شديدة الوطء، على أبي جهل في حينه...

شعر لعليّ ﷺ في أبي لهب وأبي جهل

قال ﷺ عنه[2]:

أبا لهب تبّت يداك أبا لهب وتبّت يداها تلك حمّالة الحطب
خذلت نبيّاً خير من وطئ الحصى فكنت كمن باع السلامة بالعطب
وخفت أبا جهل فأصبحت تابعًا له وكذاك الرأس يتبعه الذنب
فأصبح ذاك الأمر عارًا يهيله عليك حجيج الله في موسم العرب
ولو كان من بعض الأعادي محمد لحاميت عنه بالرماح وبالقضب
ولم يسلموه أو يصرع حوله رجال ملاء بالحروب ذوو حسب

(١) راجع ص ١٤٩ ـ ١٥٠ من كتاب (أهل البيت) تأليف توفيق أبو علم، مطبعة السعادة ١٣٩١ هـ ـ ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٠ م ـ ١٩٧١ م، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى.

(٢) ديوان الإمام علي بن أبي طالب ﷺ ص ٩، جمع وترتيب عبد العزيز كريم، مطبعة كرم بدمشق سنة ١٩٥٥ م.

عليّ ﷺ يرغب بالزواج من ابنة أبي جهل

تشير كتب السير والتراجم في التاريخ، أن الإمام عليّ ﷺ رغب أن يثني زواجه بعد فاطمة بابنة أبو جهل، ويظهر أن الخبر وقع بعد مصرع أبو جهل بفترة، ومما جاء حول هذا الموضوع ما ذكره كتاب السِّيَر والمغازي لابن إسحٰق، حيث قال:

نا يونس عن زكريا بن أبي زائدة عن عامر الشعبي، قال: خطب عليّ ابنة أبي جهل إلى عمّها الحارث، فاستأمر رسول الله ﷺ، فقال: عن أي شأنها تسلني، عن حسبها؟ قال: لا ولكن تأمرني بها، فقال: فاطمة مضغة مني ولا أحب أن تجزع!! فقال: لا آتي شيئًا تكرهه[1].

ولم يأت في المصدر المشار إليه أكثر من هذا، إلا أن هناك مصادر أخرى توسّعت في جوانب الخبر، وتناولتها بإسهاب، فقد ذكر الأستاذ توفيق أبو علم مؤلف كتاب «أهل البيت» عن الخبر، فقال:

... وكان من عادة الرسول ﷺ أن يبيت عندهم (في بيت عليّ وفاطمة) حينًا بعد حين، ويخدم الأطفال بنفسه...[2]، ثم يستأنف المؤلف فيقول: وكان الرسول ﷺ يترك مجلسه بين الصحابة ليتولى كل خلاف ينشأ بين الزوجين، وفي رواية أنه ﷺ رؤي ذات مساء وهو يسعى إلى دار ابنته فاطمة، بادي الهمّ والقلق، فأمضى وقتًا هناك، ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرًا، فقال قائل من الصحابة: «يا رسول الله دخلت وأنت على حال وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك»؟ فأجاب رسول الله ﷺ: «ولم لا؟ وقد أصلحت بين أحب الناس إليّ»[3]؟ ثم أضاف: وحدث أن ضاقت الزهراء بما تجد من شدّة زوجها وصلابته، فقالت: «لأشكونّك إلى رسول الله ﷺ»، وخرجت وعليّ في أثرها حتى جاءت أباها فشكت إليه ما أنكرت من زوجها، فتلطف الأب في ترضيتها وأوصاها على الرّفق بعلي، وقال الإمام وهو يصحب زوجته إلى بنيها: «والله لا آتي شيئًا تكرهينه أبدًا»[4].

---

(١) راجع السِّيَر والمغازي لابن إسحٰق ج ٥ ص ٢٥٣.
(٢) ص ١٥٢ من كتاب أهل البيت. (٣) المصدر السابق ص ١٥٣.
(٤) المصدر السابق ص ١٥٣.

وحدث أن بلغ العتاب بين الزوجين ما يبلغه من خصومة بين زوجين، لقد نمى إلى فاطمة أن عليًا يهمّ بالزواج من بنت[1] عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، وفي حسبان عليّ أنه إنما يجري على مألوف عادة قومه في الجمع بين زوجتين وأكثر، ويفعل ما أباحه له الإسلام من تعدّد الزوجات دون أن يخطر بباله أن هذا ما تنكره بنت نبيّ الإسلام... وذهبت الزهراء إلى أبيها باكية، تقول: «يزعمون أنك لا تغضب لبناتك»، وأقبل الرسول ﷺ على المسجد مغضبًا وصعد المنبر توًا، وقال على ملأ من الحاضرين: «ألا إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم عليًا، ألا وإني لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إنما فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها، وإني أتخوّف أن تفتن في دينها»، وخرج النبيّ ﷺ وهو آخذ بيد فاطمة، فقال: «من عرف هذه فقد عرفها، ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد، وهي بضعة مني وهي قلبي وهي روحي التي بين جنبي، مَن آذاها فقد آذاني، ومَن آذاني فقد أذى الله».

لكن[2] كيف والإسلام يبيح تعدّد الزوجات ومحمد ﷺ كان يجمع في بيته يومئذ بين زوجات ثلاث فيهنّ عائشة بنت أبي بكر الصديق ﷺ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ﷺ الذي أعزّ الله به الإسلام، كيف يحرم النبيّ ما أحلّه الله، وينكر على ابن عمه ما لم ينكره على نفسه، ليكن هذا الزواج مؤذيًا لفاطمة، أفلم تتعرّض لمثله بنتا أبي بكر وعمر ﷺ، وهل يأبى النبيّ ﷺ أن يجوز على ابنته ما يجوز على كل مسلمة، وهو القائل في المرأة السارقة: «لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»، وقد كان هذا الموقف من أصعب المواقف، موقف مملوء بالدقّة والصعوبة والحرج.

فالرسول ﷺ يعلم حقّ عليّ ﷺ في الزواج، ولكن الرسول في أُبوّته الرحيمة يؤذيه أن تروع أحبّ بناته بضرّة ويشفق عليها من تجربة قاسية كهذه يعلم أنها لا قِبَل لها باحتمالها، ثم إن عليًا أراد أن يتزوّج بنت «عمرو بن هشام المخزومي»، فهل يرضى الله أن يجمع بيت «عليّ» بين بنت رسول الله ﷺ وبنت عدوّه؟

---

(١) اسم بنت أبي جهل التي خطبها عليّ «جويرية»، وقد أسلمت وبايعت، ولما ترك عليّ خطبتها تزوّجها عتاب بن أسيد أمير مكّة في عهد النبيّ ﷺ، فولدت له عبد الرحمٰن فقتل يوم الجمل، ولما توفي عتاب تزوّج بها أبان بن سعيد ابن العاص. [راجع هامش الصفحة ١٥٣ من المصدر السابق].

(٢) يراجع «بنات النبيّ ﷺ» للدكتورة بنت الشاطىء.

ومَن هو عمرو هذا؟

هو: أبو الحكم بن هشام، أو هو: أبو جهل، الذي لم ينسَ الرسول والمؤمنون ما اقترف من آثام في اضطهاد الدعوة الإسلامية، فهو عدوّ الله الذي قال لقريش: «يا معاشر قريش إن محمّدًا قد أبى إلا ترون من عيب آلهتنا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غدًا بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد فصخت به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم». . .

وهو القائل مستهزئًا بالرسول ﷺ: «يا معشر قريش يزعم محمّدًا أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددًا، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجلٍ منهم»، فنزلت فيه الآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: الآية ٣١]، وهو الذي لقي ابن حزام بن خويلد يحمل طعامًا يريد به عمّته خديجة في محنة الحصار فتعلق اللعين به، وقال: «أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكّة»، وأبى أن يطلقه حتى اشتبكا ونال أحدهما من صاحبه، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ... ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: الآيات ٤٣ - ٤٦].

وفي السيرة[١] أنه هو الذي اعترض وفدًا من النصارى جاؤوا مكة يستطلعون لقومهم أمر محمّد حين بلغهم خبره من الحبشة، فلما جلسوا إليه واستمعوا له حتى آمنوا به، فلقيهم إثر انصرافهم أبو جهل فقال لهم: «خيّبكم الله من ركب ربعتكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأثرهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه ما نعلم ركبًا أحمق منكم».

وفي السيرة أيضًا: أنه هو الذي رأى لقريش قبيل الهجرة أن تختار كل قبيلة منها فتى شاباً جليدًا نسيبًا، ثم يعطى سيفًا صارمًا فيعمدوا جميعًا إلى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه فيتفرّق دمه في القبائل جميعًا. . .

هذا هو السبب الذي من أجله ثار الرسول ﷺ، لأنه من غير المعقول أن تكون ابنة هذا الرجل ضرّة لفاطمة ﷺ بنت محمد ﷺ!!. . .

(١) يقصد (السيرة النبوية لابن هشام) عن ابن إسحٰق، وقد أشرنا إلى ذلك في الصفحات السابقة.

ولم يكن من المعقول أن يستبدل الإمام عليّ ﷺ بالنبيّ ﷺ أبا جهل بن هشام صهرًا!! وليس عليّ هو الذي يؤذي نبيّه وأباه وابن عمّه في أحبّ بناته إليه، والتي قال لها ﷺ: «إن الله غير معذبك ولا أحد من ولدك»، وهي التي قال فيها أيضًا: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم ينادي منادٍ أن الجليل جلّ جلاله يقول: «نكّسوا رؤوسكم وغضّوا أبصاركم» فإن هذه فاطمة بنت محمد ﷺ تريد أن تمرّ على الصراط».

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه ﷺ مرّ في السماء السابعة، وقال: فرأيت فيها لمريم ولأم موسى ولآسية امرأة فرعون ولخديجة بنت خويلد قصورًا من ياقوت، ولفاطمة بنت محمّد سبعين قصرًا من مرجان أحمر باللؤلؤ أبوابها وأسرّتها من عود واحد.

هذه هي الزهراء التي يحبّها الرسول ﷺ كما رأينا فيما سبق وتكرّر أنه لم يكن من المعقول أن تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدوّ الله ببيت واحد.

وعن يحيىٰ بن سعيد القطان قال: ذاكرت عبد الله بن داود الحريثي قول النبيّ ﷺ، لا آذن إلا أن يحبّ عليّ بن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، قال ابن داود: حرّم الله على عليٍّ أن ينكح على فاطمة في حياتها لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧]...

فلمّا قال النبيّ ﷺ ـ لا آذن ـ لم يكن يحل لعليّ أن ينكح على فاطمة إلا أن يأذن رسول الله، قال: وسمعت عمر بن داود يقول: لما قال الرسول ﷺ فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها، حرم الله على عليّ أن ينكح على فاطمة؛ إذ أنه بنكاحه يؤذي الرسول ﷺ، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣].

وهنا يستفسر الأستاذ أبو علم:

بقي سؤال هو: متى همّ الإمام عليّ بالزواج على الزهراء؟!

يجيب: صمت المؤرخون ورجال الحديث فلم يشيروا إلى موعد خطبته على ما لذلك من أهمية وخطر، ولكنا نطمئن إلى أنها كانت في الفترة الأولى من زواجها، وهو اطمئنان لا يسنده دليل نقلي، وإنما يعزينا به فهمنا لطبيعة الموقف وتقديرنا أنه أقرب احتمالًا حين كانت فاطمة وعليّ في مستهلّ حياتهما الزوجية لم

تألف بعد شدّته وصرامته ولم يرض هو نفسه على احتمال ما كانت لا تزال تجد من حزن لفقد أمّها وشجو لفراق بيتها الأول.

وبهذا الاطمئنان يميل كثير من المؤرخين إلى تحديد الحادثة، على وجه التقريب في العام الثاني من الهجرة، قبل أن يأتيها العالم الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج.

انقشعت السحابة التي ظلّلت أفق الزهراء حينًا لا نحدّد مداه، وعاد البيت أصفى جوًا مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية، ومضت الحياة تسير والزوجين الكريمين على ما يرجوان من تعاون ومودّة، فاطمة في الدار تقوم على خدمة زوجها ما وسعها الجهد، وتتخلّص شيئًا فشيئًا مما كان يعتادها من شجن وانقباض، وعليّ إلى جانبها يبذل لها من الحدب والرعاية ما يعينها على مشقّة العيش الكادح في جوّ المدينة الذي لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما ألفه كثير من المهاجرين، ويحاول قدر ما أطاق أن يترفّق بها ويروض نفسه على شيءٍ من اللّين واليسر...»[1].

وهكذا انتهت القضية، دون تعقيد، ويكف عليّ ﷺ عن معاودة المسألة، وتشاء حكمة الله تعالى البالغة وإرادته العليا أن لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدوّ الله أبو جهل في بيت واحد وتحت سقفٍ واحد، إكرامًا لفاطمة الزهراء وتمييزًا لمكانتها الغراء، ولتبقى فاطمة بعد ذلك بأسعد ما تكون في جنب زوجها، فتى الفتيان، وبطل الأبطال، وسعيد الشجعان، وإمام البلغاء، ابن عمّ رسول الله ﷺ الإمام أبو السبطين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، أسد بني هاشم، وفخر العرب والإسلام، إلى مدى الدهر...

سرية حمزة إلى العيص لاعتراض أبي جهل سنة ٢ هـ[2]

في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة المباركة أرسل النبيّ ﷺ عمّه حمزة بن عبد المطلب ﷺ في ثلاثين رجلًا من المهاجرين، وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد كناز بن الحصين الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب ﷺ...

(١) راجع ١٥٣ ـ ١٥٧ من (أهل البيت).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ص٥٩٥ ـ ٥٩٦ (ط٢، القاهرة، سنة ١٩٥٥)، كذلك راجع (السرايا الحربية في العهد النبوي للدكتور محمد السيد طنطاوي) ص٢٩ ـ ٣٠، بيروت ١٩٧١.

وكان الهدف من إرسال هذه السرية اعتراض عير لقريش قادمة من بلاد الشام، في طريقها إلى مكّة، بقيادة أبو جهل بن هشام، ومعه ثلاثمائة رجل من المشركين، فسار حمزة ومن معه إليها حتى وصل ساحل البحر العيص[١]، فالتقى بتجارة قريش هناك، واستعد الفريقان للقتال، مع أن عدد المسلمين كان عُشر ($\frac{١}{١٠}$) عدد المشركين تقريبًا، ولكن القتال لم يتم لأن «مجدي بن عمرو الجهني» حجز بينهم، فتوجّه أبو جهل ومن معه إلى مكّة، وعاد حمزة وصحبه إلى المدينة...

ولقد شكر النبيّ ﷺ «مجدى بن عمرو» على محاجزته بين الفريقين، نظرًا لقلّة عدد المسلمين بالنسبة للمشركين[٢]...

يقول ابن هشام: وبعض الناس يقول: وكانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين[٣]، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة [بن الحارث][٣] كانا معًا، فشُبّه ذلك على الناس، وقد زعموا أن حمزة قد قال في ذلك شعرًا يذكر فيه أن رايته أوّل راية عقدها رسول الله ﷺ.

(ويقول ابن هشام): فإن كان حمزة قد قال ذلك، فقد صدق إن شاء الله، لم يكن إلّا حقًّا، فالله أعلم أيّ ذلك كان، فأمّا ما سمعنا من أهل العلم عندنا، فعُبيدة بن الحارث أوّل من عُقد له...

فقال حمزة في ذلك (شعرًا)، فيما يزعمون:

ألا يا لقومي للتحلّم والجهل ... وللنقص من رأي الرجال والعقل
وللراكبينا بالمظالم لم تطأ ... لهم حرمات من سوامٍ ولا أهل
كأنا تبلناهم ولا تَبْلَ عندنا[٤] ... لهم غير أمر بالعفاف وبالعدل
وأمرٍ بإسلامٍ فلا يقبلونه ... وينزل منهم مثل منزلة الهزل
فما برحوا حتى انتدبتُ لغارةٍ ... لهم حيث حلُّوا ابتغى راحة الفضل

---

(١) العيص: اسم موضع على ساحل البحر، كانت تسلكه قريش وهي في طريقها للتجارة بالشام.

(٢) راجع ص ٢٩ ـ ٣٠ من كتاب (السرايا الحربية).

(٣) عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بعثه الرسول ﷺ في ستين أو ثمانين راكبًا من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة، فلقي بها جمعًا عظيمًا من قريش فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام.

(٤) التبل: العداوة.

بـــأمـــر رســـول الله، أو خـــافـــق عليه لـواء لـم يـكـن لاح مـن قـبـل
لـواء لـديـه الـنـصرُ مـن ذي كـرامـة إلـه عـزيـز فـعـلُهُ أفـضـلُ الـفـعـل
عـشـيَّـة سـاروا حـاشـديـنـا وكـلّـنـا مراجله من غيظِ أصحابه تغلي[1]
فـلـمـا تـراءيـنـا أنـاخـوا فـعـقّـلوا مطايا وعقّلنا مدى غرض النبل[2]
فقلنا لـهـم: حبل الإلـه نصيرنا ومـا لـكـم إلا الـضـلالـةُ مـن حـبـل
فـثـار أبـو جـهـل هـنـالـك بـاغـيًـا فـخـاب وردّ الله كـيـد أبـي جـهـل
ومـا نـحـن إلا فـي ثـلاثـيـن راكـبًـا وهـم مـئـتـان بـعـد واحـدةٍ فَـضْـلِ
فـيـا لـلـؤي لا تـطـيـعـوا غـواتـكـم وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهل[3]
فـإنـي أخـافُ أن يُـصـب عـلـيـكـم عذاب فتدعوا بالندامة والثكل[4]

(شعر أبي جهل في الردّ على حمزة)

فأجابه أبو جهل بن هشام، فقال:

عجبت لأسباب الحفيظة والجهل ولـلـشـاغـبـين بـالـخـلاف وبـالـبُـطـل[5]
ولـلـتـاركـيـن مـا وجـدنـا جـدودنـا عليه ذوي الأحساب والسؤدد الجزل
أتـونـا بـإفـكٍ كـي يُـضـلّـوا عـقـولـنـا وليس مضلًا إفكهم عقل ذي عقل[6]
فقلنا لـهـم: يـا قـومـنـا لا تـخـالـفـوا على قومكم أن الخلاف مدى الجهل
فـإنـكـم إن تـفـعـلـوا تـدع نـسـوة لـهـنّ بـواكٍ بـالـرزيـة والـثـكـل
وإن تـرجـعـوا عـمـا فـعـلـتـم فـإنـنـا بنو عمّكم أهل الحفائظ والفضل
فـقـالـوا لـنـا: إنـا وجـدنـا مـحـمّـدًا رضًا لذوي الأحلام منّا وذي العقل
فـلـمـا أبـو إلا الـخـلاف وزيّـنـوا جماع الأمر بالقبيح من الفعل
يـتـمّـمـهـم بـالـسـاحـلـين بـغـارة لأتركهم كالعصف ليس بذي أصل[7]

---

(١) المراجل: جمع مرجل، وهو القدر، وقيل: هو قدر النحاس لا غير.
(٢) مدى غرض النبل: أي أنهم أناخوا قريبين، بعضهم من بعض، فكأن المسافة مرمى النبل.
(٣) فيئوا: ارجعوا، والمنهج: الطريق الواضح. (٤) الثكل: الفقد والحزن.
(٥) الحفيظة: الغضب. (٦) الإفك: الكذب.
(٧) العصف: ورق الزرع الذي يصفر على ساقه، ويقال: هو دقائق التبن.

فورّعني مجدي[1] عنهم وصحبتي — وقد وازروني بالسيوف وبالنّبل
لآلٍ علينا واجب لا نضيعه — أمين قواه غير منتكث الحبل[2]
فلولا ابن عمرو كنت غادرت منهم — ملاحم للطير العكوف بلا تبل[3]
ولكنه آلى بإل فقلّصت — بأيماننا حدّ السيوف عن القتل[4]
فإن تبقني الأيام أرجع عليهم — ببيض رقاق الحدّ محدثة الصقل
بأيدي حماة من لؤي بن غالب — كرام المساعي في الجدوبة والمحل

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر لأبي جهل[5]... لكن ابن هشام لا يذكر لنا الكيفية التي بموجبها أنكر أهل الخبرة والعلم بالشعر نسبة هذه الأبيات إلى أبي جهل، واكتفى فقط بالإشارة.

كيفية مصرع أبي جهل في معركة بدر المباركة[6]

كانت دار الندوة، الرئة البالية التي كان القريشيون في مكّة يلذّ لهم أن يستعيدوا أنفاس ماضيهم المتعبة فيها، ففي مسألة الاستعداد لمعركة بدر، عقد القريشيون فيها اجتماعًا يمكننا أن نصطلح عليه من منظور الثقافة العسكرية، بأنه كان «مجلسًا عسكريًا» نوقشت فيه المستلزمات، وطرحت فيه الآراء المتبادلة، وتوصّلوا فيه بالنهاية إلى قرارات حاسمة... وتأسيسًا على هذا القول: اتّفق القريشيون إلى إرسال جيش لغزو ومقاتلة جيش الرسول ﷺ، وتمّ اللقاء في المنطقة المشهورة ببدر والمذكورة في جميع كتب التاريخ ومصادره الأساسية...

وقد تحمّس أبو جهل في هذه المرة، بشكل يفوق محاولاته السابقة الغادرة، ضدّ الرسول ﷺ... وكان أنشط عنصر، في هذه المرة، وأكثر من غيره في الحركة، من المعارضين، في كشف حالته النفسية المتوجّعة والمتأثرة جدًا من تمكين محمد ﷺ في إعداد قوّة محاربة ومجاهدة، في الوقت الذي كان يتصوّر، في أفق عقليته الضيّقة، أن ابتعاد محمد ﷺ وجماعته بالهجرة المشهورة من مكّة

---

(١) هو مجدي بن عمر الجهني الذي حاجز بين الفريقين ومنعهما من القتال.
(٢) الآل: العهد، وغير منتكث: غير منتقض. (٣) العكوف: المقيمة.
(٤) قلصت: تقلصت ولم تمض.
(٥) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٥٩٥ ـ ٥٩٨.
(٦) بدر: اسم بئر على أربع مراحل من المدينة (راجع معجم البلدان).

إلى المدينة، سيكون نهاية النهاية لدعوته السماوية الشريفة... ولكنه لما تأكد العكس ورأى أن الدعوة أخذت سبل النجاح، وأن قوّة محمد ﷺ تتنامى وتتعاظم يومًا بعد يوم في المدينة، فهذا الذي أخذ يؤرقه ويخشاه، بل ما كان يتمنّاه انطلاقًا من كونه أحد أهل سوابق الحسد على محمد ﷺ ومنذ الطفولة، ولأن الحسود هو الذي يتمنّى زوال نعمة المحسود، فطفق أبو جهل يتخبّط يمنةً ويسرة، ويحرّض لإعداد جيشٍ كبير للقضاء على الرسول ﷺ وجنوده... بل لم يكتفِ بذلك، وإنما أخذ يوجّه التقريع إلى أقرباء الرسول ﷺ في مكّة، للتحمّس في قتال محمد ﷺ كخطة خبيثة منه، للاستعداد الفعلي، ولسدّ جميع المنافذ أمام الحاقدين على محمد ﷺ من التعذّر أو التهاون أو التراجع عن القرارات المتّخذة، سواء كانوا من أقرباء محمد ﷺ أو غيرهم...

ومما نستفيد ذكره هنا لتوثيق رأينا هو ما جاء في كتاب (مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول) للدكتور أحمد إبراهيم الشريف؛ إذ قال: «... كما أن العصبية العشائرية كانت تفعل فعلها، فبنو هاشم في مكة كان هواهم مع محمد، وبنو عبد مناف جميعًا كانت العصبية العشائرية تقوم في نفوسهم، وهم إنْ سايروا إجماع القبيلة كانوا يودّون لو يترك أمر محمد للظروف العامّة، فإن انتصر على العرب كان فخرهم، وهم لذلك كانوا متردّدين لم ينشطوا للخروج والاستعداد له نشاط باقي البطون القريشية. وقد بدت روح العصبية العشائرية واضحة فيما كان من خلاف بين موقف عتبة ابن ربيعة بن عبد شمس من بطن عبد مناف وأبي جهل بن هشام من بني مخزوم، إذ كان الأول يريد تجنّب القتال، وكان الثاني يتّهمه بممالأة ابن عمّة محمد، وينفس على بني عبد مناف أن تكون فيهم نبوّة ورئاسة»[1].

على أننا يجب أن ندرس خلفيات معركة بدر التي وقعت سنة (٢) للهجرة، وكيف كان لأبي جهل الضلع الكبير في نشوبها...

إن من أدى إلى موقعة بدر هو تحدّي قريش للدولة اليثربية، وتواطئهم المستمر سرًا مع اليهود الموجودين في المدينة، والذين تميّزوا بالخبث وإثارة الفتن في طريقتهم الخاصة المشهورين بها... ومعركة بدر التهبت كنتيجة من النتائج التي

---

(١) مكة والمدينة ص ٤٢٩، وكذلك الواقدي: ١٩، ٢٠، ٣٠، ٣٧، ٤٥ ـ ٤٧ (مغازي رسول الله) نشر في سنة ١٩٤٨، مصر.

أشرنا إلى أسبابها آنئذٍ. . . «ذلك أن قريشًا تحدّت أهل المدينة، ومنعتهم من زيارة الكعبة والدخول في مكّة، فقد كان سعد بن معاذ سيد الأوس صديقًا لأحد سادات مكّة وهو أُميّة بن خلف، وكان هذا ينزل على سعد عند مروره بالمدينة، كما كان سعد ينزل عليه إذا ذهب إلى مكّة، وقد ذهب سعد إلى مكّة معتمرًا ونزل على أُميّة ثم طلب إليه أن ينتهز فرصة يطوف فيها بالكعبة، وعند الطواف لقيه أبو جهل بن هشام، فلما عرفه هدّده بالقتل لولا جوار أُميّة له، وردّ سعد على تهديد أبي جهل بأن قال له: «أمَا والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشدّ عليك منه، طريقك إلى الشام»، وهكذا أدّى تحدّي قريش لأهل المدينة إلى أن يقفوا مع المهاجرين في منع تجارة قريش من المرور في حدود إقليمهم، مما أدّى إلى موقعة بدر ثم ما تلاها بعد ذلك من مواقع[(١)].

ومن أجل كشف دور أبي جهل على حقيقته في معركة بدر، نقوم بتسجيل الصورة العامة للقارئ، من مظان التاريخ، الوثيقة، ومن ثم ننتقل به بعد ذلك إلى عرض وكشف اللقطات الخاصة لأبي جهل وما يتعلق به في معركة بدر، وذلك حتى لا تتراكم أشرطة الكلام والصور التاريخية، وتتداخل عليه التفاصيل، وتتشكل عليه نقاط الربط المنطقية التي يريد أن تتوضح لديه، عن أبي جهل. . .

ذكر المؤرخ اليعقوبي في كتابه المشهور في التاريخ، وهو من أقدم وأوثق المصادر الأساسية المعتبرة لدى طلاب المعرفة التاريخية وتأريخ الحوادث الهامّة، فقال عن (وقعة بدر العظمى)، وهو يؤشر إلى أبي جهل أيضًا:

«وكانت وقعة بدر يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان، بعد مقدمه بثمانية عشر شهرًا، وكان سببها أن أبا سفيان بن حرب قدم من الشام بعيرٍ لقريش تحمل تجارات وأموالًا، فخرج رسول الله ﷺ يعارضه، وجاء الصريخ إلى قريش بمكّة يخبرهم الخبر، وكان الرسول بذلك ضمضم بن عمرو الغفاري، فخرجوا نافرين مستعدّين، وخالف أبو سفيان الطريق فنجا بالعير، وأقبلت قريش مستعدة لقتال رسول الله وعدّتهم ألف رجل، وقيل تسعمائة وخمسون، وكانوا ينحرون كل يوم من الجزور عشرًا وتسعًا، فنحر أبو جهل بن هشام عشرًا، وأُميّة بن خلف الجمحي تسعًا، وسهيل بن عمرو عشرًا، وعتبة بن ربيعة عشرًا، وشيبة بن

(١) مكّة والمدينة ص ٤٢١ ـ ٤٢٢.

ربيعة تسعًا، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج السهميان عشرًا، وأبو البختري العاص بن هشام الأسدي عشرًا، والحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف عشرًا، والعباس بن عبد المطلب عشرًا، وقيل: إنّ العباس نحر يوم الوقعة، أنّ أبي أطعم أسيرًا، وما أطعم أسيرٌ قبله، وروى ابن إسحٰق: أن حكم بن حزام كان من المطعمين، وكان أبو لهب عليلًا فلم يمكنه الخروج فأعانهم بأربعة آلاف درهم، وقيل: بل كان أبو لهب قامر العاص بن هشام المخزومي فقمره نفسه فدفعهم إليهم مكانه، وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة، وقيل: تسعين رجلًا منهم من المهاجرين واحدٍ وثمانون، ومن الأنصار مائتان واثنان وثلاثون رجلًا، ومعه فرسان فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن عمرو البهراني، ويقال: فرس لمرثد بن أبي مرثد الغنوي ومعه سبعون راحلة، فالتقوا يوم الجمعة لعشر خلون من شهر رمضان، فقتل من المسلمين أربعة عشر رجلًا، وقتل من المشركين، من سادات قريش سبعون رجلًا، وأسر منهم سبعون رجلًا، فأمر رسول الله ﷺ برجلين من الأسارى فضربت أعناقهما وهما عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أُميّة والنضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار، وأخذ الفداء من ثمانية وستين رجلًا، وافتدى العباس نفسه وابني أخيه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، وحليفًا لهما من بني فهر، وقال العباس لرسول الله ﷺ: إنه لا مال لي فدعني أسأل الناس بكفّي، فقال: أين المال الذي دفعته إلى أمّ الفضل؟ يعني لبابة بنت الحارث امرأته، وقلتَ لها يكون عدّة، فقال: أشهد أنك رسول الله، والله ما اطّلع على ذلك غيري وغيرها، فافتدى نفسه بسبعين أوقية وابني أخيه بسبعين أوقية(١).

وقال رسول الله ﷺ في الليلة التي بات فيها العباس أسيرًا: لقد أسهرني العباس عمّي في القدّ منذ الليلة، وأسلم العباس وخرج إلى مكّة يكتم إسلامه، وتوفي أبو لهب بعد وقعة بدر بأيام، أو بعد أن أتاهم الخبر بتسعة أيام...

وكان أول من قدم مكّة وخبّر بخبر قريش ومن قتل منها عمرو بن جحدم الفهري، وأعزّ الله نبيّه، وقتل من قريش من قتل، فأوفدت العرب وفودها إلى رسول الله ﷺ، وحاربت ربيعة كسرى، وكانت وقعتهم بذي قار، فقالوا: عليكم

---

(١) والصحيح: ابني أخويه، وهما المشار إليهما الأول: عقيل بن أبي طالب، وابن أخيه الآخر: نوفل بن الحارث.

بشعار التهامي، فنادوا: يا محمد، يا محمدا! فهزموا جيوش كسرى وقتلوهم... فقال رسول الله ﷺ: «اليوم أوّل يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا»... وكان يوم ذي قار بعد وقعة بدر بأشهر أربعة أو خمسة...

وضحّى رسول الله ﷺ بالمدينة، وخرج الناس إلى المصلّى بعيديهم، ولم يخرج قبل ذلك، وكانت العنزة بين يديه[1]، وذبح شاتين بالمصلّى بيده، وقيل شاةً، ومضىٰ في طريقه ورجع في أخرىٰ»[2].

هذه هي واقعة بدر بحذافيرها، كما رسمتها ريشة المؤرخ اليعقوبي، والتي نشبت بين جيش الكفار بقيادة أبو سفيان كما يظهر، وبين جيش المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، وقد تبيّن لنا فيها كيف كان النصر حليف الرسول والمسلمين، وكيف أن هذا الانتصار العظيم كان الدافع الحافز لعرب العراق في انطلاقهم في المناضلة عن أرضهم وكرامتهم ضدّ الفرس المجوس... واتّضح لنا أيضًا كيف أنهم حاربوا بشعار: يا محمدا! يا محمدا! وهم يندفعون في القتال في ميادين الوغىٰ... بهمّة وقوّة هذا القائد المؤيّد بالعناية الإلـٰهية... هذا القائد الذي رسم طريق النصر الصحيح، النصر بالإيمان، للعرب والإنسانية جمعاء، على رموز الغواية والضلال، والطغيان...

وفيما يلي ـ بعد ذلك ـ استعراض لمجموعة من الصور والمواقف التي التقطها قلم التاريخ، من هنا وهناك، لأبي جهل، وفي حالات مختلفة، نختمها بذكر مصرعه في النهاية...

ومما يجدر ذكره أن سبب مصرعه، كان يعود إلى عقدة النقص التي انطبعت في نفسية أبو جهل ضدّ الرسول ﷺ وعلوّ منزلته في نظر السماء والأرض... وقد اتّضح أيضًا أن دوران أبو جهل الأعمىٰ حول نفسه في ظل ورم موجات الحسد والحقد التي كانت تضطرب في أعماقه وتعصف بكيانه، ضدّ الرسول ﷺ وصحبه الكرام، هو الذي جعله يفقد صوابه، ويتعثّر في شتيت من الأفكار المضطربة، ويتصرّف على أساس مهزوز متزلزل ومتضعضع ليس له قرار ولا اطمئنان... ومن هذا الأساس المتخلخل والتركيب النفسي

---

(١) عصار كان يُحمل بين يدي الرسول ﷺ في العيد.
(٢) تاريخ اليعقوبي، المجلد الأول، ص ٤٥ ـ ٤٦.

الممتزج مع خيوط الجنون والنرجسية، كان يظن أن شنّ الحرب على محمد ﷺ، هو المنفذ لتفريغ شحناته، وإعادة الأمور إلى مجاريها، وتصحيح عقارب ساعات الزمن التاريخي، في الدوران لصالح قريش وآلهتها، ولكن الرياح كانت تجري بما لا تشتهي السفن، إذ سرعان ما أسفرت النتائج عكس ما كان يدور في خلد أبو جهل وأمثاله، وسرعان ما دفع أبو جهل نفسه، وقبل غيره، الثمن غاليًا من جرّاء سلسلة مواقفه العوجاء هذه، فسقط صريعًا... وكان من جملة القتلى، وبذلك ذهبت جهوده المتشدّدة والهستيرية للتخريب على الرسول ﷺ والإسلام، هباءً منثورًا، أو كما يقال في المثل المشهور، بشروي نقير...

ورد في السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحٰق أنّه قال[1]:

... ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلًا من الشام في عيرٍ لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش، وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلًا من قريش أو أربعون منهم مخرمة بن نوفل بن أُهيب بن عبد مناف بن زهرة، وعمرو بن العاص بن وائل بن هشام...

قال ابن هشام: ويقال: عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا عن ابن عباس، كلٌّ قد حدّثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر، قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلًا من الشام، ندّب المسلمين إليهم، وقال: هذه عيرُ قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها، لعلّ الله ينفلكموها!! فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسّس[2] الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوّفًا على أمر الناس، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان: أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولغيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكّة، وأمره أن يأتي قريشًا

---

(١) يراجع المجلد الأول من السيرة النبوية لابن هشام تحت موضوع (غزوة بدر الكبرى) ص ٦٠٦ وما بعدها.

(٢) التحسّس (بالحاء) أن تتسمع الأخبار بنفسك، وأما التجسس (بالجيم): أن تبحث عنها بغيرك.

فيستنقرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمّدًا قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلى مكّة[١].

واستعدّت قريش للقتال فجاء جيشهم بالعدد الذي ذكره اليعقوبي في الرواية السابقة وهو ألف رجل، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة رجل، والتقوا في بدر، وتفاصيل المعركة معروفة... ذكرها اليعقوبي ملخّصًا عن ابن إسحٰق وابن هشام...

والذي نتوخّاه هنا اقتباس أدوار ومواقف أبو جهل كما وردت في السيرة النبوية لابن هشام، ومنها:

ما جرى بين العباس وأبي جهل حول رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب

رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا قصّتها على أخيها العباس، وأذيعت الرؤيا في حينها في قريش، واستفسر أبو جهل من العباس عن الرُّؤيا، وقامت نساء عبد المطلب بعدما سمعن ذلك، بلومِ العباس حين وقع أبو جهل في بني عبد المطلب...

قال ابن إسحٰق: «فأخبرني من لا أتّهم عن عكرمة عن ابن عباس، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، قالا: وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب، قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال، رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب، فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني[٢]، وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شرّ ومصيبة، فاكتم عني ما أحدّثك به!! فقال لها: وما رأيتِ؟

قالت: رأيت راكبًا أقبل على بعيرٍ له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا لغُدُر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به[٣] بعيرُه على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا لغُدُر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيرُه على رأس أبي قبيس[٤] فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٦٠٦/٦٠٧.

(٢) أفظعتني: اشتدّت عليّ. (٣) مثّل به: قام به.

(٤) يقال: إن الجبل سُمّي كذلك برجل هلك فيه من جرهم: اسمه قبيس بن شالخ.

كانت بأسفل الجبل ارفضّت[1]، فما بقي بيتٍ من بيوت مكّة ولا دار إلا دخلها منها فلقة، قال العباس: والله إن هذه لرؤيا، وأنتِ فاكتميها، ولا تذكريها لأحد.

ثم خرج العباس، فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة، وكان له صديقًا، فذكرها له، واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث بمكّة، حتى تحدّثت به قريش في أنديتها.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدّثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل، قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه البنيّة؟ قلت: وما ذاك!! قال: تلك الرُّؤيا التي رأت عاتكةُ... فقلت: ومارأت؟ قال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم، قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاثٍ، فسنتربّص بكم هذه الثلاث، فإن يكُ حقًّا ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاثُ ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتابًا أكذب أهل بيت في العرب!!...

قال العباس: فوالله ما كان مني إليه كبيرٌ، إلا أني جحدت ذلك، وأنكرت أن تكون رأت شيئًا، قال: ثم تفرّقنا[2].

نساء عبد المطلب يلمن العباس للينه مع أبي جهل

واستمرّ العباس يقول: «فلما أمسيتُ لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلّا أتتني، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم!! ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غيَر[3] لشيء مما سمعت!! قال: قلت: قد والله فعلت، ما كان مني إليه من كبير، وأيم الله لأتعرضن له، فإن عاد لأكفينّكنه»!

قال (العباس): فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا حديد مُغضب أرى أني قد فاتني منه أمرٌ أحبّ أن أدركه منه... قال: فدخلت المسجد فرأيته،

(١) ارفضّت: تفتّت.
(٢) السيرة النبوية، المجلد الأول، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٩.
(٣) أي تغيير وانكسار، وفي روايات أخرى: غيرة.

فوالله إني لأمشي نحوه أتعرّضه، ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلًا خفيفًا، حديد الوجه، حديد اللّسان، حديد النظر، قال: إذ خرج نحو باب المسجد يشتدّ... قال: فقلت في نفسي: ما لهُ! لعنه الله!! أكلُّ هذا فرق مني أن أشاتمه!! قال: وإذا هو قد سمع ما لم أسمع: صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره، قد جدع بعيره[١]، وحول رحله وشقّ قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة[٢] اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث!! قال: فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر... الخ[٣].

وبعد ما سمعت قريش ذلك تسارعوا متجهزين للحرب والمسير نحو المدينة.

الظفر للمسلمين برجلين من قريش يقفان على أخبارهم وذكر أشراف قريش بما فيهم أبو جهل

لم يتخلّف من أشراف قريش وساداتهم أحد إلّا وتجهز مع المتجهّزين وسار إلى الحرب، إلّا أبو لهب فإنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، حيث استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه...[٤].

قال ابن إسحٰق: «... ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فلما أمسى بعث عليّ بن أبي طالب ﷺ، والزبير بن العوام ﷺ، وسعد بن أبي وقاص ﷺ في نفر من أصحابه إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر له عليه ـ كما حدّثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ـ فأصابوا راوية[٥] لقريش فيها أَسْلَم، غلامُ بني الحجاج، وعريض أبو يسار، غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلّي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما أذلقوهما[٦] قالوا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه، ثم سلّم، وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا، والله إنهما

(١) جدع بعيره: قطع أنفه.
(٢) اللطيمة: الإبل التي تحمل البز والطيب.
(٣) السيرة النبوية، المجلد الأول، ص ٦٠٩.
(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص٦١٠.
(٥) الراوية: الإبل التي يستقى عليها الماء.
(٦) أذلقوهما: بالغوا في ضربهما.

لقريش، أخبراني عن قريش؟ قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكثيب: العقنقل - فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم؟

قالا: كثيرٌ...

قال: ما عدَّتهم؟

قالا: لا ندري!

قال: كم ينحرون كلّ يوم؟

قالا: يومًا تسعة، ويومًا عشرًا...

فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسع مئة والألف...

ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونُبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ودّ...

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: «هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ[١] كبدها»...[٢].

رؤيا جهيم بن صلت في مصارع قريش وإبلاغ أبي جهل بذلك

قال (يعني ابن إسحٰق):

وأقبلت قريش، فلما نزلوا الجحفة، رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا، فقال: إني رأيت فيما يرى النائم وإني لبين النائم واليقظان، إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له، ثم قال: قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأُميّة بن خلف، وفلان وفلان، فعدّد رجالًا ممّن قتل يوم بدر، من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لبّة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح[٣] من دمه.

---

(١) الأفلاذ: القطع، الواحدة: فلذة.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٦١٦، ٦١٧.

(٣) نضح: لطخ.

قال: فبلغت أبا جهل!! فقال: وهذا أيضًا نبيّ آخر من بني المطلب، سيعلم غدًا من المقتول، إن نحن التقينا!![1].

رجوع الأخنس ببني الأزهر وعدم التمثّل بقول أبي جهل

وفي السيرة النبوية لابن هشام أيضًا:

... وقال الأخنس بن شريف بن عمرو بن وهب الثقفي، وكان حليفًا لبني زهرة، وهم بالجحفة: يا بني زهرة، قد نجا الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم، مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا لي جُبْنها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة[2]، لا ما يقول هذا، يعني أبا جهل، فرجعوا، فلم يشهدها زُهري واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعًا، ولم يكن بقي من قريش بطن إلّا وقد نفر منهم ناس، إلا بني عدي بن كعب، لم يخرج منهم رجل واحد، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس بن شريف، فلم يشهد بدرًا من هاتين القبيلتين أحد، ومشٰى القوم، وكان بني طالب بن أبي طالب - وكان في القوم - وبين بعض قريش محاورة، فقالوا: والله لقد عرفنا يا بني هاشم، وإنْ خرجتم معنا، أن هواكم لمع محمّد!! فرجع طالب إلى مكّة مع من رجع، وقال طالب بن أبي طالب:

لا هُمّ إمّا يغزون طالب   في عصبة محالف محارب[3]
في مقنب من هذه المقانب   فليكن المسلوب غير السالب[4]
وليكن المغلوب غير الغالب

قال ابن هشام: قوله «فليكن المسلوب»، وقوله: «وليكن المغلوب» عن غير واحد من الرواة للشعر[5]...

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٦١٨.
(٢) وفي السيرة الحلبية: «في غير منفعة».
(٣) محالف: متحالفين، ومحارب: جمع محرب، أي شجعان.
(٤) المقنب: الجماعة من الخيل، مقدار ثلاث مئة أو نحوها.
(٥) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٦١٩.

رفض أبي جهل لمشاورة قريش بالرجوع عن القتال

تشاورت قريش بالرجوع عن القتال، وأبلغوا بذلك أبا جهل، وقد عارضهم بشدّةٍ وسخط منقطع النظير...

فقال ابن إسحٰق:

... وحدّثني أبي إسحٰق بن يسار وغيره من أهل العلم، عن أشياخ من الأنصار، قالوا: لما اطمأنّ القوم، بعثوا عُمير بن وهب الجمحي فقالوا: احزروا[١] لنا أصحاب محمد!! فقال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاثُ مئة رجل، يزيدون قليلًا أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى انظر أللقوم كمين أو مدد؟! قال: فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئًا، فرجع إليهم وقال: ما وجدت شيئًا، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا[٢]، نواضح[٣] يثرب تحمل الموت الناقع[٤]، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم، حتى مقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيكم!!!

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيّدها، والمطاع فيها، هَلْ لك إلى أنْ لا تزال تُذكر فيها بخير إلى أبد الدهر؟

قال: وما ذاك يا حكيم؟

قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي!!

قال: قد فعلت، أنت عليّ بذلك، إنما هو حليفي، فعليّ عقله، وما أصيب من ماله، فأتِ ابن الحنظلية!!

قال ابن هشام: والحنظلية أم أبي جهل، وهي أسماء بنت مخربة، أحد بني نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم - فإني لا أخشى أن يشجر[٥] أمر الناس غيره، يعني أبا جهل بن هشام!! ثم قام عتبة بن ربيعة

---

(١) الحزر: التقدير بالحسّ والظن.

(٢) البلايا: جمع بلية وهي الناقة أو الدابة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت، وكان بعض العرب ممن يقرّ بالبعث يقول: إن صاحبها يحشر عليها.

(٣) النواضح: الإبل التي يستقى عليها الماء. (٤) الناقع: الثابت البالغ في الأفناء.

(٥) يشجر أمر الناس: أي يحالف بينهم، من المشاجرة، وهي المخالفة والمخاصمة.

خطيبًا، فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمّدًا وأصحابه شيئًا، والله لأن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمّه أو ابن خاله، أو رجلًا من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل[١] درعًا له من جرابها، فهو يهنّئها[٢].

- قال ابن هشام: يهيّئها -. . .

فقلت له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، للذي قال!! فقال: انتفخ والله سَحْرُهُ[٣] حين رأى محمّدًا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعُتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمدًا وأصحابه أكلةُ جَزور، وفيهم ابنه، فقد تخوّفكم عليه، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فأنشد خُفرتك[٤]، ومقتل أخيك. . .

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ: واعمراه، واعمراه، فحميت الحرب، وحقب الناس[٥] واستوسقوا[٦] على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، فلما سمع عتبة قول أبي جهل «انتفخ والله سحره»، قال: سيعلم مُصَفِّر أسته[٧] من انتفخ سحره، أنا أم هو؟

---

(١) نثل: أخرج.
(٢) يهنئها: يطليها بعكر الزيت. . . وقيل: «يهنئها: يتفقدها».
(٣) انتفاخ السحر: كناية عن الجبن.
(٤) فأنشد خفرتك: أي اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك، أي عهدهم، لأنه كان حلفًا لهم وجارًا.
(٥) حقب: اشتد. (٦) استوسقوا: اجتمعوا. . .
(٧) ورد في هامش ص ٦٢٤ (المجلد الأول، السيرة النبوية) عن السهيلي: «قوله: مصفر أسته، كلمة لم يخترعها عتبة ولا هو بأبي عذرتها، وقد قيلت قبله بقالوس بن النعمان، أو لقابوس بن المنذر، لأنه كان مرفهًا لا يغزو في الحروب، فقيل له: مصفر أسته، يريدون صفرة الخلوق والطيب. وقد قال هذه الكلمة قيس بن زهير في حذيفة يوم الهباءة، ولم يقل أن حذيفة كان مشوهًا، فإذا لا يصح قول من قال في أبي جهل من قول عتبة فيه هذه الكلمة، إنه كان مستوهًا=

قال ابن هشام: السحر: الرئة وما حولها مما يعلق بالحلقوم من فوق السرّة، وما كان تحت السرّة، فهو القصب. ومنه قوله: رأيتُ عمرو بن لحي يجرّ قصبه في النار...

قال ابن هشام: حدّثني بذلك أبو عبيدة...

ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأسه، فما وجد في الجيش بيضة تسعه من عظم هامته، فلما رأى ذلك اعتجر(١) على رأسه ببردٌ له... الخ، ونشبت المعركة بين الفريقين بعد ذلك، والتفاصيل مذكورة في جميع المصادر والكتب التاريخية، إذ لا يخلو منها كتاب أو سفر حول هذا الموضوع...

يتّضح لنا من سياق الرواية السابقة، أن قريش ارتأت في صحوة مؤقتة سنحت لها، أن من الأوفق لها، الاحتكام إلى الرّشد والعقل والصواب... وعدم زجّ أنفسهم في حرب لا هدف له، ومنع محاولة نشوب القتال لحقن دماء الطرفين... وكأنهم استقرئوا من طرف خفيّ بأنهم في وادٍ والنصر في واد، فهم بعيدين عنه... وأنه (أي النصر) سيكون حليف محمد ﷺ بلا شكّ، وأصحابه، إذن فما دامت الحالة بهذه الصورة، فما الفائدة من القتال من جانبهم!!!

ثم إنهم استطلعوا الوضع العسكري للجيش الذي يقوده الرسول ﷺ، فلمسوا أن جنوده الكرام على استعداد للموت والقتال، دون تراجع، ودون المبالاة بقلّة عددهم، بالنسبة للطرف المقابل، كما استنتجوا (أي القريشيون) أنهم لا يكسبون المعركة ولا تنصب لهم راية النصر، ولن يكون لهم في منزع الظفر نصيب...

وأخيرًا لما أدركت قريش وأيقنت كل تلك الملاحظات حاول بعض رؤسائها استغلال الفرصة في توظيف هذا البصيص من نور الأمل والرجاء الذي انكشف

= وسادة العرب لا تستعمل الخلوق والطيب إلا في الدّعة والخفض، وتعيبه في الحرب أشدّ العيب، وأحسب أن أبا جهل لما سلمت العير وأراد أن ينحر الجزر ويشرب الخمر ببدر، وتعزف عليه القيان بها، استعمل الطيب أو همّ به، فلذلك قال له عتبة هذه المقالة، ألا ترى إلى قول الشاعر في بني مخزوم:

ومن جهل أبو جهل أخوكم غزا ببدر بمجمرة وثور

يريد: أنه تبخر وتطيّب في الحرب... وقوله: «مصفرّ استه» إنما أراد مصفر بدنه، ولكنه قصد المبالغة في الذمّ، فخصّ منه بالذكر ما يسوء أن يذكر».

(١) اعتجر: تعمّم بغير تلح، أي لم يجعل تحت لحيته منها شيئًا.

لهم، وحاولوا طرح فكرة الانسحاب من الميدان بطريقة من الطرق التي تقرّرها الظروف آنذاك، وذلك إمّا الاتصال المباشر بالمفاوضات مع الرسول ﷺ وقادته للكفّ عن القتال، أو عرض الصلح، أو الرجوع والانسحاب وإرجاء الأمر إلى وقتٍ آخر... وهلم جرّا... فخطت الفكرة من سيّد إلى سيّد، ومن شريف إلى شريف، حتى إذا قفزت الخطوة قفزتها أمام أبو جهل وجهًا لوجه، اصطدمت المحاولة بعقبة كأداء وارتطمت بصخرة صمّاء، وتوقفت ساكنة لا حراك لها ولا إنعاش فيها...

استقبل أبو جهل الفكرة بالعناد والغضب معتمدًا بذلك على عواطفه اللئيمة، وذكرياته الباطلة، وخفّة عقليّته، وجهالته، ضد محمد ﷺ، وضدّ فكرة الرجوع أو التخلّي عن الحرب أو غيرها من الأمور المماثلة التي قد تقف حجر عثرة في سبيل الزحف والقتال... وبذلك تحمّل أبو جهل القسط الأكبر في خسارة قريش لاستغلال وانتهاز هذه الفرصة الذهبية لهم.

وليس معنى ذلك أننا نبرئ الآخرين من هذه المسؤولية الحرجة، فهم مشاركون بالوقوف في دائرة المسؤولية مع أبي جهل أيضًا، لأنهم كيف رضوا بأمرهم هذا!! من شخص، لا يبالي، ومتقلّب المزاج، وسطحي، لا يغطس في أعماق الأفكار، وفاقد العواطف، ولا يستحكم الرشد والعقل البعيد، ويبني عروش الحقائق في الأوهام والخيالات المنطلقة من الأرضية الضحلة، متصورًا أنه في عزّ منيع وحصن حصين، دون الأخذ بنظر الاعتبار مقاييس العقل والمنطق والضمير في اتخاذ القرارات وإطلاق الأحكام والآراء في المواقف التي تتطلّب قدرًا كبيرًا من المسؤولية الفاعلة...

ومما يلاحظ من خلال ما سبق أيضًا حول مسألة تشاور قريش في موضوع الرجوع عن الحرب مع محمد ﷺ، أن أبو جهل هو المسبّب الوحيد الذي أحكم على الزعماء والأشراف نفوذ قبضته، وصدّهم من الرضوخ لنداء العقل وصوت الضمير، وفوّت على نفسه وعليهم في آنٍ واحد، مراجعة الذات، والاستناد على اتّخاذ القرارات والضوابط والضيع العقلانية والتردّي برداء الحلم والحكمة وبُعْد النظر، في مثل هذه الأمور الصعبة والمهمة أيضًا... لأن المسألة هنا حاسمة، وهي مسألة تتوقف على القتال والدماء وما يتعقب عليها من آثار سلبية أخرى...

وكان رفض أبو جهل لفكرة الزعماء الهادفة إلى العدول عن الحرب، وما تعطيه هذه الفكرة من مردودات، غريبًا في طوره، إذ فاجأ به الجميع، دون سابق إنذار، فلجم عقولهم، وسدّ عليها منافذ التبصّر واستبصار نور التروّي والتعقّل، والتوسّع، والاستضاءة ببصيص الخير والهدى والرشاد. . .

والعجيب أن القوم، تقهقروا أمام رأي أبو جهل الرافض، لتطوير الفكرة إلى ساحة العمل والتطبيق، فرجعوا إثر ذلك من جديد، في نسخهم ومفرداتهم المستغلقة على نفسها، وهم غرقى في بحار الأوهام والأماني الزائفة الضخمة البعيدة عن عالم الواقع والملموس والعيان والحق والحقيقة. . .

إذن لم يَعِ أبو جهل، ولم يعِ القوم كذلك، المسؤولية بأبعادها المتعدّدة، وصورها المتداخلة، أمام التاريخ، لأنهم تخندقوا في خنادق الضلال والظلام، دون اعتبار ما أمامهم، من النتائج المتوقعة، ودون أن يقيسوا أن ما يقابلهم من الطرف الآخر في الميدان، وهم واقفون على خطوط مستقيمة من النور والهدى، يتمثّل بمحمد ﷺ ورجاله المؤمنين بالله، وتأييد ملائكة الرحمٰن لهم. . .

وشتّان بين الفئتين، الفئة الكافرة التي فيها أبو جهل. . .

والفئة الميمونة التي يقودها محمد ﷺ . . .

وأبو جهل - على هذا الأساس - في جميع حلقات مواقفه وأخباره وقراراته المنحرفة، تشكيلة غريبة من الأطوار، والفوضى، والأمزجة الشاذّة، والخيالات الشيزوفرينية الدوافع، وإقحام نفسه في المشكلات التي يحتار في تفسير رموزها ودلالاتها رجال التاريخ، بله عنك، أصحاب الاختصاص في مجالات علم النفس والاجتماع. . .

والحقيقة أن هذه الحالات السلوكية التي ظهر فيها أبو جهل، هي علامات واضحة للحكم على أنه كان شخصًا غير سويّ في منهجه وتعامله، وعاداته، وطبائعه. . . ولقد ظنّ أبو جهل، كما يتبيّن لنا، أن القتال هو الذي يحسم الموقف مع محمد ﷺ، وظنّ أن كثرة عددهم وأموالهم، ستفرج الأزمة على قريش، وتمنحها النصر. . .

وفي النتيجة اختلّت موازين خيالات أبو جهل، فانهزمت قريش، وانهارت معنوياتها، وسقطت اعتباراتها، أمام جحافل المسلمين، وقتل المسلمون كثيرًا من رجال قريش ومن زعمائهم، وكان أبو جهل مجندلًا في ساحة القتال بدوره. . .

ولم تخسر قريش هذه الخسارة في الحقيقة إلّا بنتيجة رفض أبو جهل المحاولة الرامية لوقف القتال والشروع بالانسحاب...

عدم اعتبار أبي جهل من الأكفاء في القتال

يظهر لنا بجلاء أن أبا جهل كان جبانًا في نظر الطرفين المتحاربين، وذلك لغموض مواقفه في القتال، وعدم ورود اسمه في قائمة الأكفاء والنظراء من المقاتلين في الاعتبار والأهمية...

قال ابن هشام عن ابن إسحٰق بعد أن ذكر بعض من خرج إلى الميدان، مشيرًا إلى هذه النقطة كما هو واضح من سياق الرواية:

«... ثم خرج بعد عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم: عوف، ومعوذ، ابنا الحارث ـ وأمّهما عفراء ـ ورجل آخر يقال هو: عبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟

فقالوا: رهط من الأنصار...

قالوا: ما لنا بكم من حاجة...

ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفائنا من قومنا!!

فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث...

وقم يا حمزة...

وقم يا عليّ...

فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟

قال عبيدة: عبيدة...

وقال حمزة: حمزة...

وقال عليّ: عليّ...

قالوا: نعم، أكفّاء كرام!!

فبارز عبيدة، وكان أسنّ القوم، عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز عليّ الوليد بن عتبة، فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأمّا عليّ فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت

صاحبه[١]، وكرّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فدففا[٢] عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه... الخ[٣].

استفتاح أبي جهل بالدعاء أثناء اللقاء

تزاحف الناس إلى الميدان، واستعدّ الطرفان للقتال، ودنا بعضهم من الآخر، وسجل التاريخ لأبي جهل مؤشرًا سيّئًا متمثلًا بدعائه البائس والفاضح والمنطلق من منطق الإحباط والفشل المسبق، فقال ابن إسحٰق في هذا الصدد[٤]:

«... وحدّثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير العذري، حليف بني زهرة، أنه حدّثه: أنه لما التقى الناسُ، ودنا بعضهم من بعض، قال أبو جهل بن هشام: اللّهمّ أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحنكه[٥] الغداة، فكان هو المستفتح[٦]»...

وكان المسلمون هم المنتصرون بعون الله، لأن إرادة المسلمين في القتال كانت متعاظمة ومتمالكةً لمستلزمات النصر منذ بداية المعركة...

رجز لأبي جهل في المعركة

قال ابن إسحٰق: وأقبل أبو جهل يومئذٍ يرتجز، وهو يقاتل ويقول[٧]:

ما تنقم الحرب العوان مني ... بازلُ عامين حديثٌ سنّي[٨]

لمثل هذا ولدتني أمّي

ويقال: هذا الرجز ليس لأبي جهل، وإنما تمثّل به[٩].

---

(١) أثبت صاحبه: جرحه جراحة لم يقم معها...
(٢) دففا عليه: أسرعا قتله.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٦٢٥.
(٤) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٦٢٧/٦٢٨.
(٥) أحنكه: أهلكه.
(٦) المستفتح: الحاكم على نفسه بهذا الدعاء.
(٧) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٦٣٤.
(٨) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة، فهي لذلك أشدّ الحروب. والبازل من الإبل: الذي خرج نابه، وهو في ذلك السن تكمل قوّته.
(٩) انظر هامش ٦٣٤ من السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول.

والذي يتفحص تركيب هذا الرجز، لا يلتقط فيه أي خيط من خيوط الشجاعة والثبات، ولا معنى من معاني البطولة والفروسية، بل يستنتج منه المدح الكاذب بالذات، والفخر المتأسّس على التنافخ الزائف، والقول الخالي من الفعل المتوقع.

وهذا التحليل يتفق مع مغزى حكمنا على شخصية أبو جهل بأنها كانت نسيجًا خالصًا من الجبن والسفه...

مقتل أبي جهل والتماسه في القتلى

قال ابن إسحٰق: «فلما فرغ رسول الله ﷺ من عدوّه، أمر بأبي جهل أن يُلتمس في القتلى».

وكان أول من لقي أبا جهل، كما حدّثني ثور بن يزيد، عن عكرمة عن ابن عباس، وعبد الله بن أبي بكر أيضًا قد حدّثني ذلك، قالا: قال معاذ بن عمرو بن الجموح، أخو بني مسلمة: سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة... قال ابن هشام: الحرجة: الشجر الملتف... وفي الحديث عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سأل أعرابيًا عن الحرجة! فقال: هي شجرة من الأشجار لا يوصل إليها... وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه... قال: فلما سمعتُها جعلتُه من شأني، فصمدت[1] نحوه، فلما أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة أطنّت[2] قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبّهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح[3] من تحت مرضخة[4] النوى حين يُضرب بها... قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني[5] القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتُها...

قال ابن إسحٰق[6]: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمانُ عثمان...

---

(١) صمدت: قصدت.
(٢) أطنّت قدمه: أطارتها.
(٣) تطيح: تذهب.
(٤) المرضخة: التي يدقّ بها النوى للعلف.
(٥) أجهضني: غلبني واشتدّ عليّ.
(٦) وفي نسخ أخرى: «وقال ابن هشام... الخ» الرواية.

ثم مرّ بأبي جهل وهو عقيرٌ، معوّذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته، فتركه وبه رمق، وقاتل معوّذ[1] حتى قتل، فمرّ عبد الله بن مسعود بأبي جهل، حين أمر رسول الله ﷺ أن يُلتمس في القتلى، وقد قال لهم رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ: «انظروا، إن خفي عليكم في القتلى، إلى أثر جرح في ركبته، فإني ازدحمت يومًا أنا وهو على مأدبةٍ لعبد الله، ونحن غلامان، وكنتُ أشفّ منه بيسير، فدفعته فوقع على ركبته، فجُحش[2] في إحداهما جحشًا لم يزل أثره به»، قال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه ـ قال: وقد كان ضَبَث بي مرّة بمكة، فآذاني ولكزني، ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدوّ الله؟ قال: وبماذا أخزاني، أعمدُ من رجل قوم قتلتموه[3]، أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: قلت: لله ولرسوله.

قال ابن هشام: ويقال: أعار على رجل قتلتموه، أخبرني لمن الدائرة[4] اليوم؟!

قال ابن إسحٰق: وزعم رجال من بني مخزوم، أن ابن مسعود كان يقول: قال لي: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعي الغنم، قال: ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدوّ الله أبي جهل!!

---

(١) قال السهيلي: «... وذكر الغلامين اللذان قتلا أبا جهل، أنهما معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عفراء... وفي صحيح مسلم: أنهما معاذ بن عفراء، ومعاذ بن عمرو بن الجموح... وعفراء هي بنت عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، عُرف بها بنو عفراء، وأبوهم الحارث بن رفاعة ابن سواد، على اختلاف في ذلك، ورواية ابن إدريس عن ابن إسحٰق، كما في كتاب مسلم: قال أبو عمرو، وأصح من هذا كلّه حديث أنس حين قال النبيّ ﷺ: من يأتيني بخبر أبي جهل؟ (الحديث)، وفيه: إن ابني عفراء قتلاه»، راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، هامش الصفحة (٦٣٥).

(٢) جحش: خدش.

(٣) ويقال: «أعمد من رجل قتله قومه»، أي: هل فوق رجل قتله قومه! وهو معنى تفسير ابن هشام حيث قال: أي ليس عليه عار، والأول تفسير أبي عبيدة في غريب الحديث، وقد ذكر شاهدًا عليه:

وأعمد من قوم كفاهم أخوهم　　　صدام الأعادي حين فلت نيوبها

قال: وهو عندي من قولهم: عمد البعير يعمد، إذا تفسخ سنمه فهلك، أي أهلك من رجل قتله قومه، وقال أبو ذر: «يريد: أكبر من رجل قتلتموه، على سبيل التحقير منه لفعلهم به».
راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص٦٣٦، انظر «الهامش».

(٤) وفي نسخة: الدبرة.

قال: فقال رسول الله ﷺ: اللهِ الذي لا إلـه غيره - قال: وكانت يمين رسول الله ﷺ - قال: قلت: نعم، والله الذي لا إلـه غيره، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ، فحمد الله»[1]... الخ.

الرسول ﷺ ينادي أبا جهل بعد مصرعه

ذكر ابن هشام في موضوع (طرح المشركين في القُليب):

قال ابن إسحـٰق: وحدّثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يُطرحوا بالقليب[2]، طُرِحوا فيه، إلا ما كان من أُمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليحركوه (وفي رواية: ليخرجوه) فتزايل[3] لحمه، فأقرّوه، وألقوا عليه ما غيّبه من التراب والحجارة، فلما ألقاهم في القليب، وقف عليهم رسول الله ﷺ، فقال: يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا... قالت: فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قومًا موتى؟ فقال لهم: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقًّا...

قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلتُ لهم، وإنما قال لهم رسول الله ﷺ: لقد علموا[4].

قال ابن إسحـٰق: وحدّثني حميد الطويل، عن أنس بن مالك، قال: سمع أصحاب رسول الله ﷺ، رسول الله ﷺ من جوف الليل، وهو يقول: يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أُمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام، فعدّد من كان منهم في القليب: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً؟ فقال المسلمون: يا رسول الله، أتنادي قومًا قد جيّفوا[5]؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.

قال ابن إسحـٰق: وحدّثني بعض أهل العلم: «أن رسول الله ﷺ قال يوم هذه المقالة: يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيّكم، كذبتموني وصدقني

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٦٣٤ - ٦٣٦.

(٢) القليب: البئر. (٣) تزايل: تفرق.

(٤) قال السهيلي: «وعائشة لم تحضر» وغيرها ممن حضر أحفظ للفظه عليه الصلاة والسلام.

(٥) جيفوا: أي صاروا جيفًا.

الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس!! ثم قال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ للمقالة التي قال»[1].

شعر حسان فيمن أُلقوا في القُليب وفيه ذكر أبي جهل

قال ابن إسحٰق: وقال حسّان بن ثابت:

عرفت ديار زينب بالكثيب ... كخطّ الوحي في الورق القشيب[2]
تداولها الرياح وكل جَوْن ... من الوسمي منهمر سكوب[3]
فأمسى رسمها خلقًا وأمست ... يبابًا بعد ساكنها الحبيب[4]
فدع عنك التذكر كل يوم ... ورُدَّ حرارة الصدر الكئيب
وخبّر بالذي لا عيب فيه ... بصدقٍ غير إخبار الكذوب
بما ضيّع المليك غداة بدرٍ ... لنا في المشركين من النّصيب
غداة كأن جمعهم حِراءٌ ... بدت أركانه جُنح الغُروب[5]
فلاقيناهم منّا بجمعٍ ... كأُسد الغاب مُردانٍ وشيب
أمام محمد قد وازره ... على الأعداء في لفح الحروب
بأيديهم صوارمٌ مرهفات ... وكلُّ مجرّب خاظي الكعوب[6]
بنو الأوس الغطارفُ وازرتها ... بنو النجار في الدين الصليب[7]
فغادرنا أبا جهلٍ صريعًا ... وعتبة قد تركنا بالجَبُوبِ[8]
يناديهم رسول الله لما ... قذفناهم كباكب في القليب[9]
ألم تجدوا كلامي كان حقًّا ... وأمرُ الله يأخذُ بالقلوب؟
فما نطقوا، ولو نطقوا لقالوا: ... صدقت وكنت ذا رأي مصيب!!

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٦٣٨ ـ ٦٣٩.
(٢) الكثيب: كدس الرمل، والقشيب: الجديد. (٣) الوسمي: مطر الخريف.
(٤) يبابًا: قفرًا.
(٥) حراء: بمكة. . . وجنح للغروب: حين تميل الشمس للغروب.
(٦) الصوارم المرهفات: السيوف القاطعة. . والخاظي: المكتنز. . . والكعوب: عقد القناة.
(٧) الغطارف: السادة واحدهم غطريف، وحذفت الياء من الغطاريف لإقامة وزن الشعر. والصليب: الشديد.
(٨) الجبوب: وجه الأرض. (٩) كباكب: جماعات.

انتشار نبأ مقتل أبي جهل

ذكر ابن هشام في موضوع (بعث ابن رواحة وزيد بن حارثة بَشيرين)، قال ابن إسحـٰق:

. . . ثم بعث رسول الله ﷺ عند الفتح عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية، بما فتح الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ وعلى المسلمين. . . وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة. . . قال أُسامة بن زيد:

فأتانا الخبر ـ حين سوينا التراب على رقية ابنة رسول الله ﷺ، التي كانت عند عثمان بن عفان، كان رسول الله ﷺ خلّفني عليها مع عثمان ـ أن زيد بن حارثة قَدْ قدم، قال: فجئته وهو واقف بالمصلّى قد غشيه الناس، وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري العاص بن هشام، وأُميّة بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، قال: قالت: قلت: يا أبتِ، أحقّ هذا؟ قال: نعم والله يا بني. . . الخ[1].

ما نزل في وعظ المسلمين وتعليمهم خطط الحرب وفيه إشارة إلى أبي جهل

في آيات كريمة أنزلها الله تعالـىٰ على الرسول ﷺ وصحبه في بدر يعظهم فيها ويفهمهم ويعلّمهم بما ينبغي لهم أن يسيروا به في حربهم، فقال تعالـىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] تقاتلونهم في سبيل الله عزّ وجلّ ﴿فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] الذي له بذلتم أنفسكم، والوفاء له بما أعطيتموه من بيعتكم ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال: الآيتان ٤٥، ٤٦] أي لا تختلفوا فيتفرّق أمركم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] أي وتذهب حدّتكم ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] أي أني معكم إذا فعلتم ذلك ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] أي لا تكونوا كأبي جهل وأصحابه، الذين قالوا: لا نرجع حتى نأتي بدرًا فننحر بها الجزر ونُسقى بها الخمر، وتعزف علينا فيها القيان، وتسمع العرب، أي لا يكون أمركم رياءً، ولا

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣.

سمعة، ولا التماس ما عند الناس، واخلصوا لله النيّة والحسبة في نصر دينكم، وموازرة نبيكم، لا تعملوا إلا لذلك ولا تطلبوا غيره... الخ[1].

قصيدة للإمام عليّ عليه السلام وفيها ذكر أبي جهل

قال عليه السلام[2]:

ألم تـر أنّ الله أبلى رسولـه ... بلاء عزيز ذي اقتدار وذي فضل
بما أنزل الكفار دار مذلّة ... فذاقوا هوانًا من أسار ومن قتل
وأمسى رسول الله قد عزّ نصره ... وكان رسول الله أُرسل بالعدل
فجاء بفرقان من الله منزل ... مبيّنة آياته لذوي العقل
فآمن أقوامٌ بذاك وأيقنوا ... وأمسوا بحمد الله مجتمعي الشمل
وأنكر أقوامٌ فزاغت قلوبهم ... فزادهم ذو العرش خبلًا على خبل
وأمكن منهم يوم بدر رسوله ... وقومًا غضابًا فعلهم أحسن الفعل
بأيديهم بيض خفاف عصوا بها ... وقد حادثوها بالجلاء وبالصقل
فكم تركوا من ناشئ ذي حمية ... صريعًا ومن ذي نجده منهم كهل
تبيت عيون النائحات عليهم ... تجود بأسبال الرشاش وبالويل
نوائح تنعي عتبة الغيّ وابنه ... وشيبة تنعاه وتنعى أبا جهل
وذا الرجل تنعى وابن جدعان منهم ... مسلبة حرى مبينه الثكل
ثوى منهم في بئر بدر عصابة ... ذوو نجدات في الحروب وفي المحل
دعا الغي منهم من دعا فأجابه ... وللغي أسباب مرمثة الوصل
فأضحوا لدى دار الجحيم بمعزلٍ ... عن الشغب والعدوان في الشغل الشغل

أبيات للإمام عليّ عليه السلام يوم أُحد وفيه ذكر أبي جهل

وقال عليه السلام لما بلغه شماتة هند بقتل حمزة يوم أُحد[3]:

أتاني أنّ هندًا حل صخر ... دعت دركًا وبشرت الهنودا

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول، ص ٦٧٣ ـ ٦٧٤.
(٢) راجع ديوان الإمام علي ص ٦٩، دمشق، مطبعة كرم، ١٩٥٥.
(٣) ديوان الإمام علي ص ٣٢ [قافية الراء].

فإن تفخر بحمزة حين ولّى مع الشهداء محتسبًا شهيدا
فإنا قد قتلنا يوم بدرٍ أبا جهل وعتبةَ والوليدا
وقتلنا سراة الناس طرًّا وغنمنا الولائد والعبيدا
وشيبة قتلنا يوم ذاكم على أثوابه علقًا جسيدا
فبوّأ من جهنم شرُّ دارٍ عليها لم يجد عنها محيدا
وما سيان من هو في جحيمٍ يكون شرابه فيها صديدا
ومن هو في الجنان يدرّ فيها عليه الرزق مغتبطًا حميدا

يوم الحشر وأبو جهل، في التراث الشعبي الإسلامي

لم ينقطع ذكر أبو جهل فيما بعد من التراث الذي استمدّ محتواه من الأصول الأساسية للفكر الديني، فقد جاء في كتاب «موعظة درة الواعظين»:

... وجاء في الآثار: يُنادى يوم القيامة: ائتوني بفرعون!! فيؤتى به وعلى رأسه قلنسوة من نار لابسًا قميصًا من قطران راكبًا على خنزير... ثم يُنادىٰ: أين الجبارون المتكبّرون!! فيؤتى ويُنطلق بهم إلى النار وإمامهم فرعون... ثم يُنادى: أين قابيل!! فيؤتى به كذلك... ثم يُنادى: أين الحاسدون!! فيضمّون إليه فإنه إمامهم إلى النار... ثم ينادى: أين كعب بن الأشرف رئيس علماء اليهود، كما جاء في الخبر: لو آمن، لآمن جميع اليهود... فيؤتى به كذلك... ثم يُنادى: أين الذين كتموا الحقّ والعلم فيسوقونهم معه إلى النار، فهو إمامهم...

ثم يُنادىٰ: أين أبو جهل!! فيؤتى به كذلك، ثم يُنادىٰ: أين الذين كذّبوا على الله ورسوله، فيكون أمامهم إلى النار...

ثم يُنادىٰ: أين الوليد بن المغيرة!! فيؤتى به كذلك، ثم يُنادىٰ: أين المستهزئون بفقراء المسلمين فهو أمامهم إلى النار... ثم يُنادى: أين أجدع من قوم لوط الذي فعل اللواطة؟ فيؤتى به كذلك، ثم ينادى: أين الذين يلوطون فيؤتى بهم فهو أمامهم إلى النار... ثم يُنادى: أين امرؤ القيس!! فيؤتى به كذلك، ثم يجمع الشعراء الذين كذبوا، فهو أمامهم إلى النار... ثم يُنادى: أين مسيلمة الكذاب! فيؤتى به، ثم يُنادىٰ: أين الذين كذّبوا الكتاب والرسول فهو إمامهم إلى النار... ثم يُنادىٰ: أين إبليس عليه اللعنة؟؟ فيؤتىٰ به كذلك فيقول: يا حاكم العدل العدل ادفع لي جُندي ومؤذنيّ وقرّائي ومصاحفي ووزرائي

وفقهائي وخزّاني وتجاري وطبالي وحواشي! فيقال: يا ملعون يا مدحور من جندك؟! فيقول: هم الذين أصابهم الحرص، ومؤذنيّ اللحانون، وقرّائي المغنون، ومصاحفي الواشم والمستوشم، وفقهائي هم الذين يستهزئون بأصحاب المصائب ويأكلون الطيّبات [من الحرام]، وخزاني الذين يحضرون خوان المسكر ويمنعون الزكاة، وتجاري بائع البربط، وطبالي الذين يضربون الطبول والدف، وحواشي الذين يغرسون الكروم لأجل السكر فتخرج حية طول عنقها مسيرة سبعين عامًا فتجمعهم فتطردهم إلى النار، ثم يدعى الخلق إلى الحساب، فيقول الله: يا جبرائيل أوّل من يدخل جنّتي محمد عليه السلام فيوضع على رأسه تاج من نور، ويلبس حريرًا أخضر ويحمل بين يديه سبعون ألف علم، فيحمل لواء الحمد ثم ينادي: أين الذين يختارون الفقر ويبرون الفقراء وكانوا على طريق محمد عليه السلام، واتّبعوا السنّة؟! فيقال: انطلقوا مع نبيّكم إلى الجنّة... ثم يُؤتى بآدم عليه السلام وعلى رأسه تاج من نور، وبين يديه ثمانية آلاف علم... فيقال: أين الذين حجّوا واعتمروا، فآدم عليه السلام إمامهم إلى الجنّة... ثم يؤتى بإبراهيم عليه السلام كذلك وبين يديه عشرون ألف علم... ثم يقال: أين الذين يحبون الأضياف ويبرّون الغرباء فإبراهيم عليه السلام إمامهم إلى الجنّة... ثم يُؤتى بيوسف عليه السلام كذلك وبين يديه عشرة آلاف علم، ثم يقال: أين الذين تركوا أهواء أنفسهم حين قدروا، فيوسف عليه السلام إمامهم إلى الجنّة... ثم يؤتى بيعقوب عليه السلام كذلك، ثم يقال: أين الذين يحسنون إلى جيرانهم فيعقوب عليه السلام إمامهم إلى الجنّة... ثم يُؤتى بموسىٰ عليه السلام ثم يُنادى: أين الذين قالوا: الحقّ لوجه الله تعالىٰ فموسى عليه السلام إمامهم إلى الجنّة... ثم يؤتى بهارون عليه السلام ثم يقال: أين الذين عدلوا في خلافتهم فهارون عليه السلام إمامهم إلى الجنّة... ثم يؤتى بأيوب عليه السلام ثم يقال: أين الذين صبروا في أمراضهم وبلائهم فأيوب عليه السلام إمامهم إلى الجنّة... ثم يؤتى بأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وعلى رأسه تاج من نور ولباس من سندس واستبرق فينادي منادٍ: أين الصدّيقون فأبو بكر إمامهم إلى الجنّة... ثم يؤتى بعمر رضي الله عنه، ثم يقال: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، فعمر إمامهم إلى الجنّة... ثم يؤتى بعثمان رضي الله عنه وعليه لباس الحياء، ثم يقال: أين الذين تركوا المعاصي حياءً من الله تعالىٰ فعثمان إمامهم إلى الجنّة... ثم يؤتى بعليّ رضي الله عنه ثم يقال: أين الغازون في سبيل الله فعليّ إمامهم إلى الجنّة... ثم يؤتى بالحسن والحسين رضي الله عنهما، ثم يقال: أين المظلومون والمقتولون في طاعة الله

فهما إمامهما إلى الجنّة... ثم يؤتى بمعاذ بن جبل ﷺ، ثم يقال: أين الفقهاء فهو إمامهم إلى الجنّة... ثم يؤتى ببلال الحبشي ﷺ ثم يقال: أين المؤذّنون فهو إمامهم إلى الجنّة...[١].

مركز أبي جهل في قريش قبل الإسلام

كان عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وأبو جهل، وأبو سفيان، لا يسقط لهم رأي في الجاهلية، فلمّا جاء الإسلام لم يكن لهم رأي[٢].

رؤيا النبيّ ﷺ غرفًا لأبي جهل في الجنّة

حُكي (أن النبيّ ﷺ رأى في الجنّة غرفًا..

فقال: لمن هذه؟

فقيل: لأبي جهل بن هشام...

فقال: ما لأبي جهل والجنّة، والله لا يدخلها أبدًا...

قال: فأتاه عكرمة ولده حلمًا، فتأوّلها به...)[٣].

أبو جهل في الجحيم

... الجحيم اسم لما عظم من النار، كما هو مقتضى اللغة والآثار المرويّة...[٤].

... أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك أحد التابعين الأبرار في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبَة: الآية ١١٣]، قال: الجحيم ما عظم من النار...

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ [الحِجر: الآية ٤٤]، وقال:

---

(١) يراجع (درة الواعظين) ص ١٢٩، ١٣٠، ١٣١.

(٢) راجِع ص ١٢٩ من (الرياض المستطابة في جملة مَن روى في الصحيحين من الصحابة) تأليف يحيىٰ بن أبي بكر العامري اليماني، بيروت، مكتبة المعارف ١٩٨٣، ط ٣.

(٣) راجع المستطرف ج ١ ص ٨٧ ـ ٨٨.

(٤) راجع الرسائل التسع للسيوطي، ص ١٢٨ «الرسالة الثالثة: المقامة السندسية في النسبة المصطفوية»، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.

أوّلها جهنم... ثم لظى... ثم الحطمة... ثم سعير... ثم سقر... ثم الجحيم... ثم الهاوية... والجحيم فيها أبو جهل الحواب[1]...

فاللائق بهذه المنزلة من عظم كفره، واشتدّ وزره، وعاند عن علم ويقين، وبدّل ما عنده من آيات الكتاب المبين، وجحد ما يعلمه وأنكر... وكذّب رسول الله ﷺ في رسالته، وهو مأمور في كتابه بتصديقه واتّباعه وطاعته...[2].

وأبو جهل أنكر دعوة التوحيد، وفضل البقاء في أوحال الشرك وأوضار الوثنية على التحوّل إلى دين الإسلام والاعتقاد بالله... وعارض الرسول وكفر متعمّدًا... وسلك كل المحاولات الرعناء لإيقاف زحف الدعوة الإسلامية...

نفسية أبي جهل تحت المجهر

لقد كشف لنا التاريخ عن صورة نفسية أبي جهل الباطنية، فورد بهذا الصدد ما يفيدنا بالنص الآتي:

لقد (خُلِق - أبو جهل - (ونشأ) غليظ القلب، جافي الطبع، مغلق النفس)[3].. الخ... وعلى ضوء هذه الفقرة نستطيع أن نستنتج بأن هناك ثلاثة عناصر كانت تتحكم في نفسية أبي جهل الباطنية المعقّدة الشريرة. وهي:

١ - قساوة في القلب بصورة مركّزة.

٢ - جفاء في الطبع مع خطورة ما ينبثق منه من فروع ملتوية، كالحقد والبغض والكراهية والحسد والجانب المظلم السوداوي من الظنون والشكوك التي لا أساس لها من الحقيقة، ولا وزن لها في دنيا الوقائع.

٣ - انغلاق في قفص النفس، أي عماية في البصيرة، والمراوحة في دائرة الجهل أو التجاهل والمواجهة مع الحقائق والتعامل معها بالسّفه والغرور والكبرياء...

---

(١) من الحوب: بمعنى الإثم والذنب والكفر.

(٢) راجع ص ١٢٨ - ١٢٩ من الرسائل التسع للسيوطي.

(٣) راجع ص ٤٦ من كتاب (مصابيح على الطريق) تأليف محمود الشرقاوي (سلسلة مذاهب وشخصيات)، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، العدد ٦٤.

الخـــاتمة

تمّ نسخ الكتاب على يد مؤلفه خادم العلم والحقيقة الفقير إليه وعبده الذليل الراجي عفوه وكرمه ورضاه جميل بن إبراهيم بن حبيب بن عباس الزبيدي نسبًا وأصلًا، والبندنيجي (مندلي) ولادة ونشأة، والبغدادي مسكنًا ومعطفًا، والمحمديّ دينًا ومذهبًا وطريقةً، وذلك ببغداد سنة ١٤١٣ هـ؛ ١٩٩٢ م، وأشهد أن لا إلـه إلّا الله وأنّ محمدًا عبده ورسوله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بغـــداد

الجمعة ٢٠/ ١١/ ١٩٩٢ م

المصادر

١ ـ القرآن الكريم، طبعة حافظ عثمان الشهيرة.

٢ ـ نسب قريش للنسابة المصعب الزبيري، طبع دار المعارف، مصر القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٦ م.

٣ ـ مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي الرازي، نشر المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت لبنان، الطبعة بلا تاريخ.

٤ ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة عشر، ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م، مصر، مطبعة السعادة.

٥ ـ السِّيَر والمغازي لابن إسحٰق، تحقيق سهيل زكار، طبع دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٧٨ م، الطبعة الثانية.

٦ ـ ديوان حسان بن ثابت، طبعة بيروت، والقاهرة...

٧ ـ مختصر تاريخ العرب والإسلام: ترتيب محمد عزّة دروزة، الطبعة الثالثة ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥ م.

٨ ـ مكة والمدينة في الجاهلية والإسلام، تأليف الدكتور أحمد إبراهيم الشريف، القاهرة، دار وهران للطباعة والنشر، ط ٢، بلا تاريخ.

٩ ـ الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، (دار الكتب المصرية ١٩٢٩).

١٠ ـ أخبار عبد الله بن عبد المطلب، إعداد جميل إبراهيم حبيب، إصدار المكتبة العالمية، بغداد ١٩٨٥ م، الطبعة الأولى.

١١ ـ السيرة النبوية لابن هشام، القاهرة، ١٩٥٥ م.

١٢ ـ مجلة العربي، العدد ٨٣، أكتوبر ١٩٦٥، الكويت.

١٣ ـ إعلام النبوّة لأبي الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، طبع بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية سنة ١٩٨١، الطبعة الثانية.

١٤ ـ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر للشعراني، طبع دار المعرفة، بيروت، أُعيد طبعه بالأوفسيت عن الطبعة الأصلية لعام ١٣١٧ هـ.
١٥ ـ الطبقات الكبرى للشعراني، القاهرة، طبعة بولاق ١٢٧٦ هـ.
١٦ ـ تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.
١٧ ـ درة الناصحين تأليف عثمان بن الحسن الخوبوي، إسطمبول سنة ١٣٠٨ هـ، الطبعة الأولى.
١٨ ـ الروض الآنف للسهيلي، القاهرة، مصر.
١٩ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير، بيروت ١٩٦٥.
٢٠ ـ طبقات المفسّرين تصنيف الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي (ت ٩٤٥ هـ)، طبع دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي، لايبزج ١٨٦٩ م.
٢٢ ـ ديوان الإمام علي، دمشق، مطبعة كرم ١٩٥٥ م.
٢٣ ـ مكاشفة القلوب للإمام الغزالي، بتقديم جميل إبراهيم حبيب ١٩٨٧ م، بغداد، نشر مكتبة الشرق.
٢٤ ـ المنجد، الطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٩ م.
٢٥ ـ مولد بطل الإسلام، أبو العلى الحسن بن أحمد بن يحيىٰ الأزدي ﷺ، العراق، النجف الأشرف.
٢٦ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، لمجد الدين الطبري، القاهرة، طبعة دار السعادة.
٢٧ ـ سيرة الزبير بن العوام، تأليف جميل إبراهيم حبيب، ط بيروت ١٩٨٦، الدار العربية للموسوعات.
٢٨ ـ صفية بنت عبد المطلب، تأليف جميل إبراهيم حبيب، مخطوط، لم يُطبع بعد.
٢٩ ـ بنات النبيّ، للدكتورة بنت الشاطئ، لبنان، بيروت.
٣٠ ـ أهل البيت، توفيق أبو علم، مطبعة السعادة، مصر ١٣٩١ ـ ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ م.
٣١ ـ السرايا الحربية في العهد النبوي للدكتور محمد السيّد الطنطاوي، بيروت، ١٩٧١ م.

٣٢ ـ مغازي رسول الله ﷺ للإمام الواقدي، نشر في سنة ١٩٤٨ م، مصر، القاهرة.
٣٣ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني، القاهرة، ١٣٥١ هـ.
٣٤ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان، (بيروت ١٩٦٨ م ـ ١٩٧٢ م).
٣٥ ـ تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ)، طبعة حيدر آباد الركن (١٩٥٥ ـ ١٩٥٨ م).
٣٦ ـ تاريخ الأمم والملوك للطبري، القاهرة، الطبعة الأولى.
٣٧ ـ الرسائل التسع للسيوطي (ت ٩١١ هـ)، طبع دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٣٨ ـ تهذيب الأسماء واللغات للإمام العلّامة الفقيه الحافظ أبي زكريا محي الدين بن شرف النووي المتوفّى سنة ٦٧٦ هـ، من منشورات مكتب الأسدي، رقم ١١، بمصر، تاريخ الطبع غير موجود.
٣٩ ـ مصابيح على الطريق، تأليف الأستاذ علي الشرقاوي (سلسلة مذاهب وشخصيات)، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، العدد ٦٤.
٤٠ ـ المستطرف في كل فن مستظرف، تأليف شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، بغداد، مطبعة أوفسيت منير ١٩٨٦م، (طبق الأصل عن نسخة القاهرة الطبعة الأولى).

فهرس المحتويات

مقدمة الكتاب ٣
أبو جهل (ت ٢هـ) ٥
اسمه واسم أبيه ونسبه وكنيته ٥
أما أمّه، فهي ٥
كنيتـه ٥
منزلة والده في قريش وذكر إخوته وذرّيته ٩
قبيلتـه ١٣
نشأته وصفاته ١٧
بين محمد ﷺ وأبي جهل قبل الإسلام ١٨
شواهد أوّلية على الصراع بين أبي جهل ومحمّد بن عبد الله ﷺ ١٩
موازنة بين شرف عائلة محمد ﷺ وعائلة أبي جهل ٢٣
أوصاف أبي جهل ٢٤
موقف أبي جهل من الدعوة الإسلامية ٢٥
مغزى عداوة أبي جهل للرسول الكريم في رأي بعض علماء السلف ٢٦
محمد ﷺ رافع لواء الحق وأبو جهل رافع لواء الباطل ٣٠
أبو جهل يتحرك في اضطهاد المسلمين ٣١
أبو جهل يمشي مع رجال قريش إلى أبي طالب في شأن الرسول ﷺ ٣٢
أبو جهل يُظهِر العداوة للرسول ﷺ ٣٣
أبو جهل يقتل سُمَيّة (أول شهيدة في الإسلام) ٣٤
تعذيب قريش وأبي جهل للمسلمين هو سبب هجرتهم إلى الحبشة ٣٥
قريش وأبو جهل يؤذون الرسول في الصلاة ٣٥

أسلوب أبي جهل في التعذيب ٣٥
تشكيك أبي جهل بخبر الإسراء ٣٦
أبو جهل يكاتب بعض ملوك العرب في شأن الرسول ٣٦
تدبير أبي جهل الخائب في هلاك الرسول ﷺ ٣٩
مجيء أبي جهل مع أشراف قريش إلى أبي طالب ٤٠
دور أبي جهل في حصار قريش لرسول الله وخبر الصحيفة ٤١
أبو جهل وزعماء قريش يكيدون للمهاجرين في الحبشة ٥٢
حمزة يُعلن إسلامه ويعاقب أبا جهل ٥٤
ورود اسم أبي جهل في قصة إسلام عمر بن الخطاب ﷺ ٥٧
اجتماع قريش وفيهم أبو جهل في الحطيم ٦٢
أبو جهل يحاول قتل الرسول ﷺ ويفشل ٦٣
أبو جهل يذهب ويستمع إلى الرسول ﷺ ليلًا وهو في بيته ٦٥
ابو جهل يمتقع لونه من رؤية محمد ﷺ بباب داره ٦٦
قيام أبي جهل والمشركين بمخاصمة الرسول ﷺ وتهديده ٦٧
وأبو طالب يمدحه ويرد على أبي جهل ٧٣
الرسول يدعو قريش وأبا جهل لإطاعته ٧٦
الرسول الكريم يلتقي بأبي جهل وجهًا لوجه ٧٦
ويعرض عليه الإسلام ٧٦
شعر لعمر أو أبو طالب في أبي جهل ٧٧
أبو جهل فرعون هذه الأمة ٧٨
أبو جهل الشجرة الملعونة في القرآن ٧٨
ذكر ما أنزل الله تعالىٰ في أبي جهل وما هَمّ به ٧٨
تهكّم أبي جهل بالرسول ﷺ وتنفير الناس عنه ٧٩
أبو جهل وذكر شجرة الزقوم في القرآن الكريم ٨٠
ذلّ أبي جهل للرسول ﷺ ٨٠
محاولة أبي جهل الخافقة في ردّ وفد النصارى عن الإسلام ٨٠
نزول ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ في أبي جهل وأصحابه ٨١
أبو جهل والمشركون من أشراف قريش عند أبي طالب لما ثقل به المرض .. ٨١
ذكر أبي جهل في هجرة عامر ابن ربيعة وهجرة بني جحش إلى المدينة ٨٣

تغرير أبي جهل والحارث بن ربيعة بعياش بن أبي ربيعة ٨٤
اجتماع أبي جهل وزعماء قريش في دار كندة لمنع هجرة الرسول ﷺ من مكّة إلى المدينة ٨٦
ركوب سُراقة أثر الرسول ﷺ ولوم أبي جهل له ٩٢
ملاحم بين عليّ ﷺ وأبي جهل بعد هجرة الرسول ﷺ ٩٤
حسد أبي جهل من تزويج عليّ ﷺ بفاطمة الزهراء ﷺ........................ ١٣٠
شعر لعليّ ﷺ في أبي لهب وأبي جهل ١٣٩
عليّ ﷺ يرغب بالزواج من ابنة أبي جهل ١٤٠
سرية حمزة إلى العيص لاعتراض أبي جهل سنة ٢ هـ........................ ١٤٤
(شعر أبي جهل في الردّ على حمزة) ١٤٦
كيفية مصرع أبي جهل في معركة بدر المباركة ١٤٧
ما جرى بين العباس وأبي جهل حول رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ١٥٣
نساء عبد المطلب يلمن العباس للينه مع أبي جهل ١٥٤
الظفر للمسلمين برجلين من قريش يقفان على أخبارهم وذكر أشراف قريش بما فيهم أبو جهل ١٥٥
رؤيا جهيم بن صلت في مصارع قريش وإبلاغ أبي جهل بذلك ١٥٦
رجوع الأخنس ببني الأزهر وعدم التمثّل بقول أبي جهل ١٥٧
رفض أبي جهل لمشاورة قريش بالرجوع عن القتال ١٥٨
عدم اعتبار أبي جهل من الأكفاء في القتال ١٦٣
استفتاح أبي جهل بالدعاء أثناء اللقاء ١٦٤
رجز لأبي جهل في المعركة ١٦٤
مقتل أبي جهل والتماسه في القتلى ١٦٥
الرسول ﷺ ينادي أبا جهل بعد مصرعه ١٦٧
شعر حسان فيمن أُلقوا في القُليب وفيه ذكر أبي جهل ١٦٨
انتشار نبأ مقتل أبي جهل ١٦٩
ما نزل في وعظ المسلمين وتعليمهم خطط الحرب وفيه إشارة إلى أبي جهل ١٦٩
قصيدة للإمام عليّ ﷺ وفيها ذكر أبي جهل ١٧٠
أبيات للإمام عليّ ﷺ يوم أُحد وفيه ذكر أبي جهل ١٧٠
يوم الحشر وأبو جهل، في التراث الشعبي الإسلامي ١٧١

مركز أبي جهل في قريش قبل الإسلام ١٧٣
رؤيا النبيّ ﷺ غرقًا لأبي جهل في الجنّة ١٧٣
أبو جهل في الجحيم ١٧٣
نفسية أبي جهل تحت المجهر ١٧٤
الخـاتمة ١٧٥
المصادر ١٧٧

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان. ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3645-3
90000>
9782745136459

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com